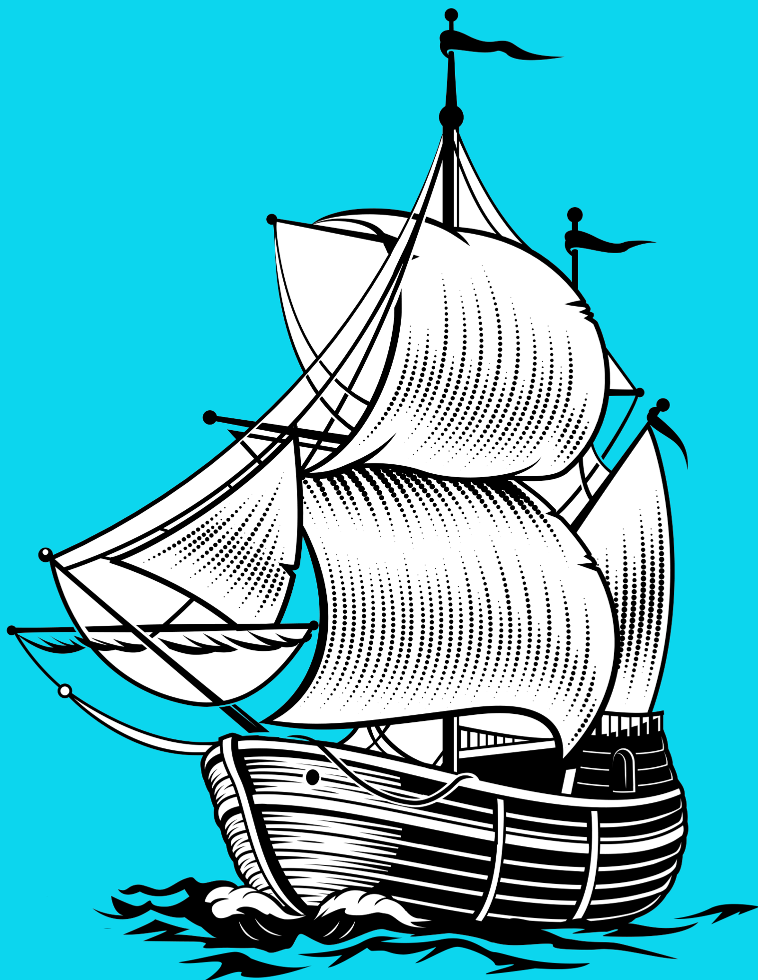
صخرة في بحر البلطيق

روبرت بار



ترجمة إسلام سميح الردان

صخرة في بحر البلطيق

تأليف
روبرت بار

ترجمة
إسلام سميح الردان

مراجعة
الزهراء سامي



صخرة في بحر البلطيق

روبرت بار

A Rock in the Baltic

Robert Barr

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٨٠ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الفصل الأول

واقعة البنك

في رَدهة البنك الوطني السادس في مدينة بار هاربر بولاية مِين، تنحَّى المُلازمُ آلان دروموند، المُلازم في سفينة «كونسترنيشن» التابعة للبحرية المَلَكية البريطانية، ليُقدِّم سيدةً على نفسه. كان مجيء المُلازم إلى البنك بغرض تغيير بضع أوراق مصرفية بيضاء جديدة من عُملة بنك إنجلترا إلى عُملة البلد الذي كان يزوره حينئذٍ. لم يَبدُ أن السيدة لاحظَت مُجاملَته أو وُجُودَه، وكان هذا أكثرَ غرابةً؛ فدروموند شابٌّ جدير بالملاحظة بالقدر الكافي ليَلفتَ إليه الأنظار حتى بين حشدٍ من الناس، ثم إنهما كانا في تلك اللحظة هما العميلين الوحيدين في البنك. كان دروموند طويل القامة، قويَّ البنية، شُجاعًا، أشقر الشعر كأيٍّ من أبناء اسكنديناڤيا، وله عينان داكنتا الزرقة كان يقول عنهما في بعض الأحيان مازِحًا إن لونهما كلون جامعتِه. كان دروموند يقترب ببطءٍ من نافذة الصَّرَّاف بحركةٍ مُتمهلةٍ لا توحي بأنه مُتعجلٌ ألبتة، حين ظهرَت الفتاةُ عند الباب، وتقدَّمَت بسرعةٍ إلى منضدة البنك وحاجزه الشبكي المصنوع من الأسلاك النحاسية، والذي يُطوِّق الفتحة القوسية التي يجلس خلفها الصرَّاف. رغم أن ثوبها كان بسيطًا جدًّا، فقد كان يتمتَّع بسحرٍ نابعٍ من بساطةٍ كادَت توحي بأنه ثوبٌ من الثياب المعقدةِ التصميم المصنوعةِ في مدينة باريس، وكانت ترتديه وعليها سيماءُ الرِّفعة تلك التي يُعتقَد أن سرَّها لا تَمتلكه حصرًا سوى نساء فرنسا وأمريكا.

لم يرَ الشابُّ أيًّا من هذا، ورغم أنه كان يُقدِّر جمال الفتاة، فإن ما استوقفه في تلك اللحظة هو تعبير القلق المرسوم على وجهِها؛ ذلك الوجه الذي أبرز شُحُوبَه المؤقَّتَ شَعرُها الأسودُ الغزير. بدا له أنها ألزمَت نفسها بمهمةٍ كانت شديدة التردُّد في أدائها. فمنذ اللحظة التي دخلت فيها من الباب كانت عيناها السوداوان الكبيرتان مثبتتَين على الصراف فيما يُشبه التوسُّل، ولم تريا أيَّ شيءٍ آخر. ورغم أنَّ دروموند كان مُتبلدَ العقل في العادة، فقد استنتج سريعًا أن هذه اللحظة مُهمة للغاية في حياتها، وأنه ربما كانت

تتوقَّف عليها مسائلُ عظيمة. رأى يدها اليُسرى تُمسك بركن الإفريز الواقع أمام الصراف بقبضةٍ متوتِّرة، وكأنما كان الدعم الذي ستحصل عليه بهذه الطريقة ضروريًّا لها. أما يدها اليُمنى فقد ارتجفت قليلًا وهي تمرِّر قُصاصةَ ورقٍ مُستطيلة الشكل عبر الفتحة إلى المُوظف الهادئ غير المُكترث.

سألَت الفتاة بصوتٍ خفيض: «هلا تَصرف لي هذا الشيك؟»

أخذ الصراف يتفحَّص المُستند في صمتٍ لبعض الوقت. بدا التوقيعُ غيرَ مألوفٍ له.

قال بهدوء: «لحظةً واحدةً يا سيدتي»، وتقهقر إلى مكتبٍ في الجزء الخلفي من البنك، حيث فتح كتابًا ضَخمًا، وراح يُقلِّب بعضَ الصفحات سريعًا، ويُمرِّر إصبعه أسفل إحدى الصفحات. بدا أنَّ حركته البطيئة زادت من ذعر الفتاة. لقد زاد شُحوبها، وترنَّحَت قليلًا، وكأنما كانت مُعرَّضةً لخطر السقوط، لكنها رفعَت يدها اليُمنى وساندت بها اليُسرى، وهكذا ثبَّتَت نفسها على إفريز نضد الصراف.

قال المُلازم لنفسه: «يا إلهي! ثمَّة خطبٌ ما هنا. تُرى ما هو؟ وفتاةٌ جميلةٌ للغاية كذلك!»

لم يرَ الصراف وهو وراء حاجزه شيئًا مما يعتمل من المشاعر هذه. لقد عاد في لا مُبالاةٍ إلى مكانه، وسأل، بأسلوبٍ عاديٍّ:

«كيف ستأخذين المال يا سيدتي؟»

أجابت بصوتٍ كاد يكون همسًا: «أُريده ذهبًا لو سمحت»، وطردَ شُحوبَ وجهها تورُّدٌ مُشرق، بينما تنهَّدَت تنهيدةً عميقةً دلَّت على النجاة من مِحنة.

في هذه اللحظة الحاسمة حدث شيءٌ غيرُ عادي. عَدَّ الصراف بعضَ العملات الذهبية، ومرَّرها من الفتحة إلى مالكتها الجديدة.

قالت الفتاة: «شكرًا لك.» ومن دون أن تمسَّ المال، انصرَفت وكأنها واقعةٌ تحت تأثيرِ تنويمٍ مغناطيسي، وكانت عيناها غيرُ المُبصِرتين لا تزالان غيرَ مُباليتَين بالمُلازم الضخم، وخرجَت سريعًا من البنك. لم يُلاحظ الصراف هذا التخلي عن المال. لقد كان يكتبُ بعضَ الكلام الغامض على الشيك الذي صُرِف.

قال المُلازم لاهثًا بصوتٍ عالٍ: «يا إلهي!» وثَب إلى الأمام بينما كان يتحدَّث، وجرفَ العملات الذهبية في يدِه، واندفَع إلى الباب. كان هذا تصرُّفًا من شأنه أن يُوقِظ الصراف الأكثر تهاوُنًا لو أنه كان في حالة نُعاس. وبسرعة وعفوية، سحب الصراف مُسدَّسًا كان في دُرجٍ مفتوحٍ تحت يده.

صاح قائلًا: «توقَّف أيها الوغد وإلَّا أطلقتُ النار!» لكن المُلازم كان قد اختفى في ذلك الحين. اندفع الصراف إلى الممر بالقدر المتوقَّع من السرعة، ودون أن يَنتظر حتى فتح الباب المُنخفض الذي يفصل بين الحجرات العامة والخاصة في البنك، قفز فوقه، وانطلق حاسرَ الرأس مُطارِدًا المُلازم. إنَّ ضابطًا بالبحرية البريطانية في زيِّه الرسمي يُسرع في اللَّحاق بفتاةٍ غير مُدركةٍ لاقترابه منها، ومن خلفهما رجلٌ مُنفعلٌ حاسرُ الرأس يُمسك مُسدسًا في يده، لهو منظر من شأنه أن يَجمع حشدًا من الناس بسرعةٍ في أي مكانٍ تقريبًا، لكن تصادف أنهم كانوا في وقت الغَداء، وكان سكان ذلك المُنتجع الصيفي الشهير داخل منازلهم؛ لذا فقد كان الشارع لحُسن الحظ خاليًا. كان ضابط البحرية هناك لأن وقت وجبة الظهر على متن السفينة الحربية لم يكن مُتزامنًا مع وقت الغداء على الشاطئ. وكانت الفتاة هناك؛ إذ تصادَفَ أن كان هذا هو الجزء الوحيد من اليوم الذي أمكَنَ أن تَخرُج فيه دون أن يُلاحظها أحدٌ من البيت الذي كانت تعيش فيه، خلال ساعات عمل البنك، لتقوم بتجربتِها المالية الصغيرة المُثيرة. وكان الصراف هناك لأنه لم يكن للبنك وقتُ غداء، ولأنه شهد لتوِّه أكثرَ حدثٍ مُريبٍ رأَته عينُه الدائمةُ اليقَظةِ يومًا. على الرغم من الرزانة والهدوء اللذَين قد يبدو بهما أيُّ صراف، في عيون الجمهور؛ فهو رجلٌ يُعاني توترًا مستمرًّا خلال ساعات عمله. فكل شخصٍ لا يعرفه معرفةً شخصيةً يُقابله في عمله هو سارقٌ مُحتمَلٌ قد يُحاول في أيِّ لحظةٍ، عن طريق العُنف أو الحِيلة، أن يَسرق المالَ الذي يحرسه. إن وقوع أيِّ حدثٍ على خلاف المألوف والمعتاد يُثير ارتيابَ أيِّ صرافٍ في الحال، وما فعله هذا الغريب حين فَرَّ بمالٍ ليس مِلكه قد بَرَّر اضطرابَ الصراف إلى حدٍّ بعيد. بَدءًا من تلك اللحظة، فإن براءةَ التصرُّف أو أيَّ تفسيرٍ واضحٍ للغاية بحيث يُقنع أيَّ رجُلٍ عاديٍّ، يُصبحان، بالنسبة إلى عقل مُوظف البنك، دليلًا على ارتكابِ جُرمٍ أكثر مكرًا. إنَّ المواطن العادي، عندما يرى المُلازم وقد لحقَ أخيرًا بالفتاة المُسرعة ودنا منها وخاطَبَها، ورفَع قُبَّعته، ثُم صبَّ في يدها الممدودة ما أخذه من ذهب، كان سيعلم على الفور أن هذا إنما كان صنيعًا من صنائع الكياسة الفطرية التي يُمارسها الناس كل يوم. لكن الصراف ليس كذلك. كلما ابتعد عن البنك، أدركَ على نحوٍ أشدَّ إيلامًا أن هذَين اللذَين أمامه، وكلاهما غريبٌ بالنسبة إليه، قد استدرجاه، بفعلهما المُشترك، هو ومُسدسه كذلك، بعيدًا عن وظيفته خلال الساعة الأشد كآبة في اليوم. لم يكن الفرار بتلك القطع الذهبية القليلة هو ما يُزعجُه الآن؛ وإنما الخوف مما قد يحدث خلفَه في تلك اللحظة. كان واثقًا أن هذَين الاثنين كانا يعملان بالتعاون معًا. لم يَخدعه الزيُّ الرسمي الذي يَرتديه الرجل. فأيُّ لصٍّ كان يستطيع أن يَحصُل بسهولةٍ

على زيٍّ رسميٍّ، ثم إنه حين عاد بذهنه ليراجع عناصر المكيدة سريعًا، أدركَ الفعالية الكبيرة التي كانت عليها الخطةُ؛ أولًا: ما صدرَ عن المرأة من إهمال لا يُصدَّق عندما تركَت ذهبها على النضد؛ وثانيًا: اختفاءُ الرجل بالمال في تهور؛ وثالثًا: اندفاعه الطائشُ هو نفسه إلى الشارع وراءهما. لقد رأى المؤامرة كلها في لحظة خاطفة؛ لقد قفز حرفيًّا إلى الشَّرَك، وفي أثناء هذه الدقائق الخمس أو العشر التي غابها، ربما يكون شُركاء هذين الاثنين قد روَّعوا المُوظَّفين العُزَّل، وسرقوا الأموال. كان دُرج ماله مفتوحًا، وحتى الخزينة الكبيرة كانت مفتوحة. لقد استدرجتْه المفاجأةُ بالفعل وكأنه ريفيٌّ أخرق. أخذ يلعن تهوُّرَه بمرارةٍ وهو يلهث. كان واجبه أن يَحمي البنك، لكنَّ البنك لم يُسرَق، بل ما سُرق، في أحسن الأحوال، هو امرأةٌ مُهمِلةٌ لم تَأخُذ مالها. لقد احتفظ بشيك المال، وكانت الخسارة، إذا كان ثمَّة خسارة، ستُصبح خسارتها هي، لا خسارة البنك، ورغم ذلك فها هو ذا، يَجري في الشارع حاسِرَ الرأس كالمجنون، والآن يَقف ذانك الاثنان معًا في هدوءٍ تامٍّ، بينما يُعطيها المال، وبهذا يَنشُران غطاءً من البراءة فوق الخُدعة الوضيعة. لكن أيًّا كان ما يَحدث في البنك، فسوف يَعتقل اثنين من الجناة على الأقل. كان الاثنان يَقفان غافلَين تمامًا عن الخطر الذي يتهدَّدهما حين أفزعهما إلى حدٍّ ما رجلٌ لاهثٌ، حاسرُ الرأس، يجري مُندفعًا نحوهما، وهو يَرتعش من الغيظ، ويلوِّح بسلاحٍ قاتل.

صاح الصراف قائلًا: «عودا إلى البنك في الحال أنتما الاثنان!»

سأله المُلازم بصوتٍ هادئ: «لماذا؟»

«لأنني أقول ذلك، وهذا سببٌ واحدٌ من الأسباب.»

«ذاك سببٌ مُفحِم»، هكذا أجاب المُلازمُ بضحكةٍ خفيفةٍ، زادَت خصمه سخطًا. وأضاف: «أعتقد أنك مُنفعلٌ من دون داعٍ. هل تَسمح بوضع ذلك المُسدس في جيبك؟ إننا دائمًا ما نضع المسدسات في أقْربتها ونحن على متن السفينة الحربية عندما تُشرِّفنا السيداتُ بحضورهنَّ. أنت تريدني أن أعود لأنني لم أكن مُخوَّلًا بأخذ المال، أليس كذلك؟ حسنٌ؛ هيا بنا.»

عَدَّ الصرافُ هذا خداعًا، ومحاولةً لإعطاء المرأة فرصةً للهرب.

وقال للفتاة: «يجب أن تعُودي أنتِ أيضًا.»

ناشدَته بصوتٍ خفيض: «أُفضل ألَّا أفعل»، وهو تعليق لم يكن من المُمكن أن تأتي بشيءٍ أكثر حُمقًا منه، إذا كانت قد قضَت فترة العصر كلها في الاستعداد.

تجدَّد تصميمُ الصراف على رأيه وبدا ذلك في وجهه.

وردد قوله: «يجب أن تعودي إلى البنك.»

قال المُلازم مُعترضًا: «يا إلهي، أرى أنكَ الآن تتعدَّى حدود سُلطتك. أنا فقط المُجرم. أما الفتاة فهي بريئةٌ تمامًا، ولا حقَّ لك في احتجازها دقيقةً واحدة.»

يبدو أنَّ الفتاة — التي كانت تَبتعد ببطءٍ وتَظهر عليها علاماتُ الرغبة في الفرار؛ مما دفع الرجلُ الحاسرُ الرأس، الذي من الواضح أنه في حالة تأهُّب، إلى الانحناء للأمام استعدادًا لكي يَعترضها — قد قررَت أن تنحني للعاصفة. تجاهلَت الفتاة الصراف، ورفعت بصرها إلى المُلازم الأشقر وقد ارتسمَت على شفتَيها الجميلتَين ابتسامةٌ خفيفة.

وقالت: «لقد كان الخطأ كله حقًّا خطئي أنا من البداية، وكان تصرُّفًا شديد الحماقة منِّي. إنَّ لي شيئًا من المعرفة بمُدير البنك، وأنا واثقةٌ أنه سيَضمنني، إذا كان هناك.»

أنهت جملتها واستدارت باتجاه البنك تحثُّ الخطى، مُشيرةً بذلك إلى رغبتها في ألا يرافقها أحد. وجد المُوظفُ الحاسرُ الرأسِ غضبَه يُفارقه دون تفسير، بينما حلَّ محلَّه خوفٌ كبيرٌ من أن يكون قد ارتكب خطأً مُحرِجًا.

قال المُلازم بلُطفٍ، وهما يسيران معًا بخطًى واسعةٍ: «الحق أنَّ موظَّفًا في موقعك ينبغي له أن يُحسن الحكم على طبيعة الناس. كيف يُمكن لأي عاقلٍ، لا سيَّما إذا كان شابًّا، أن ينظر إلى تلك الفتاة الجميلة ويظنَّ بها شرًّا، هذا شيءٌ يفوق قدرتي على الفهم. هل تعرفها؟»

قال الصراف باقتضاب: «لا، هل تعرفها أنت؟»

ضحك المُلازم بلُطف.

وسأل: «لا تزال مُرتابًا، أليس كذلك؟ لا، لا أعرفها، لكني أقولها لك بِلُغة الصناعة المصرفية إنني أُراهنك على آخر فِلسٍ لديَّ أنني سأفعل. في الواقع، أنا مُمتنٌّ لك إلى حدٍّ ما لعنادك وإصرارك على إرغامنا على العودة. العناد من الصفات التي أحبُّها، وأنتَ تتحلَّى بها على نحوٍ مُدهِش؛ ولذا أنا عازمٌ على الوقوف بجانبك عندما يَحين وقتُ التوبيخ الإداري الرسمي. أنا مُتأكدٌ تمامًا أني قابلتُ مديرك في المأدُبة التي أَعدُّوها لنا في الليلة الماضية. إنه السيد مورتن، أليس كذلك؟»

قال الصراف مُتذمِّرًا، بصوتٍ أجشَّ ينم عن جَزَع: «بلى.»

«رائع، هذا ممتازٌ للغاية. إنه من أفضل الرجال الذين قابلتُهم منذ عشر سنوات. والآن، قالت السيدةُ إنَّ لها علاقةً به، وإن لم أتمكَّن إذن من إقناعه بأن يُعرِّفني بالسيدة، فسيكون هذا دلالةً على أن الرجل الذي تلتقيه في مأدُبة يُصبح مختلفًا تمامًا إن التقيته في محل عمله

ببنك. لقد كُنتَ تبحث عن مؤامرات؛ فها هي ذي مؤامرتي جلية لك. إن ما أتآمر عليه هو التعارُف، وليس الذهب.»

لم يكن لدى الصراف مَزيدٌ من الكلام. عندما دخلا البنك معًا رأى الموظفين جميعًا مُنهمكين في العمل، وعلم أنه ما مِن حدَثٍ مُروِّعٍ وقع أثناء غيابه. كانت الفتاة قد ذهبَت مُباشرةً إلى غرفة المُدير، فتبِعها الشابان إلى هناك. كان مُدير البنك واقفًا عند مكتبه، وكان يُحاول أن يُحافظ لوجهِه على تلك الهيئة الصارمة التي تبدو في وجوه العاملين بمجال الأموال، لكنَّ بريق عينيه كان يُكذِّب تلك الهيئة. من الواضح أن الفتاة كانت، وهي واقفة هي الأخرى، تُعطيه صورةً وصفيةً سريعةً لِما حدث، لكنها سكتت الآن عندما ظهر المُتَّهمُ وشريكُها في الجريمة.

كان مجيءُ الرجل الإنجليزي هِبةً سماويةً للمُدير. ذلك أنه كان على درجةٍ عاليةٍ من التهذيب تمنعُه من الضحك في وجه سيدةٍ كانت تقصُّ عليه بجديةٍ تامةٍ أحداثًا أثارت فيه روح الدعابة؛ ولذا فقد مكَّنه قُدومُ المُلازم من قَمع مرحِه بموضوعٍ آخر، وعندما حيَّاه الضابطُ في وُدٍّ قائلًا: «صباحُ الخير يا سيد مورتن»، أجابه:

«يا إلهي، حضرة المُلازم، سعدتُ برؤيتك. لقد كانت أُغنيةً رائعةً للغاية تلك التي غنيتَها لنا ليلةَ أمس، لن أنساها أبدًا. ما اسمُها؟ «ويتينجتون فير»؟» وضحك من فوره، كمن تذكَّر شيئًا لطيفًا.

احمرَّ وجه المُلازم حياءً وكأنه فتاة، وقال مُتلعثمًا:

«في الواقع يا سيد مورتن، إن هذا ليس متوافقًا مع قانون الإثبات. فحين تُعقَد محاكمة لشخصٍ ما، لا يُسمح بذكر الإدانات السابقة مُطلقًا إلا بعد الحُكم بعقوبة. ينبغي ألَّا تُؤخذ عليَّ أُغنيةُ «وديكوم فير» في الأزمة الحالية.»

ضحك المُدير ضحكةً خافتةً مرحة. أما الصراف، فعندما رأى كيفية سير الأمور، انسحبَ بهدوءٍ، وأغلقَ الباب خلفه.

قال مورتن: «حسنٌ يا حضرة المُلازم، أعتقد أن عليَّ أن أُرسل برقيةً إلى أوروبا بما حدث هنا، عسى أن تعلم دول قارتك الواهنة أنَّ صرافًا عاديًّا في أحد البنوك لا يَخشى مواجهة الأسطول البريطاني. والحق يا سيد دروموند أنك إذا قرأتَ التاريخ، فستعلم أن هذا شاطئٌ خطيرٌ على سُفُنِكم الحربية. إنه ليبدو منافيًا بعض الشيء لواجبِ الضيافة ألَّا يتمكن أحد ضيوف مدينتنا من أخذ كل الذهب الذي يُريده من أحد البنوك، لكنَّ صرافًا في بنكٍ ينظر إلى الموضوع بشيءٍ من ضيق الأفق بالتأكيد. لقد كنتُ على وشك أن أعتذر إلى

الآنسة إمهيرست، وهي عميلةٌ محترمةٌ من عملائنا، عندما جئتَ أنت»، والتفتَ إلى الفتاة، وواصل كلامه برزانةٍ قائلًا: «وأرجو يا آنسة إمهيرست أن تسامحينا على الموقف المُزعِج الذي تعرَّضتِ له.»

جاء رد الفتاة: «يا إلهي، لا بأس على الإطلاق»، غير أنَّ هذا الرد لم يخلُ من تنهيدة ارتياح. وأضافت: «لقد كان الخطأ كله خطئي أنا حين تركتُ المال بهذه اللامُبالاة الشديدة. في وقتٍ ما، حين أكون أقل استعجالًا منِّي الآن، سوف أُخبرك كيف تصادف أن أخطأتُ هذا الخطأ الفادح.»

في غُضون ذلك لمح المُدير نظرةً متوسِّلةً في عيَن المُلازم وفسَّرها على النحو الصحيح.

«قبل أن تُغادري يا آنسة إمهيرست، اسمحي لي أن أُعرفكِ بصديقي، المُلازم دروموند؛ المُلازم في سفينة صاحبة الجلالة «كونسترنيشن».»

بعدما تمَّ التعارف بينهما على هذا النحو، أفصحَ التعبير الذي ارتسم على وجه الفتاة عن تجدُّد تَوقها إلى المُغادَرة، وعندما التفتَت إلى الباب، وثَبَ الضابط إلى الأمام وفتحه لها. وإن كان المُدير يتوقَّع عودة الشاب، فها هو ذا قد خاب أملُه؛ إذ قال دروموند سريعًا وهو يُغادر:

«سوف أراك في النادي هذه الليلة»، وعندئذٍ، لمَّا وجد مورتن اللطيفُ نفسَه وحيدًا، جلس على كرسيه الدَّوَّار وأخذ يضحك بهدوءٍ بينه وبين نفسه.

اكتسى وجه الفتاة بظلٍّ طفيف للغاية من الانزعاج عندما سار البحَّارُ إلى جوارها بعدما خرجا من باب غرفة المدير، وسارا عبْر الجُزء العمومي من البنك وصولًا إلى المَخرج، وعندما لاحظ الشابُّ عُقِد لسانه لحظةً، لكنه مع ذلك واصل سيرَه في عنادٍ واضح لم يكن لتلميحها الطفيف للغاية بأنها لا تَرغب في مُرافقته لها أكثر من ذلك أن يُثنيه. لم يتكلَّم الشاب حتى نزلا على الدَّرج الحجريِّ وتجاوزاه إلى الرصيف، وعندئذٍ بدأ كلامَه بتلعثُمٍ فيه شيءٌ من الحرج، وكأنما كان يطلب تفسيرًا لما بدا على وجهها من الانزعاج.

«أنتِ ... أنتِ ترَين يا آنسة إمهيرست، أنَّ كلًّا منا تَعرَّف بالآخر على النحو الملائم.»

كانت هذه أول مرةٍ يَسمع الفتاة تضحك فيها، وإن كانت ضحكةً قصيرة فحسب، وكان صوت الضحكة موسيقيًّا للغاية في أُذنيه.

قالت الفتاة: «لقد كان تعريفًا مُختصرًا للغاية.» وتابعت: «إنني لا أستطيع حتى أن أدَّعي لنفسي معرفةً بالسيد مورتن، رغم أني فعلتُ ذلك في وجود مرءوسه اللجوج. إنني

لم أَلتقِ بمدير البنك إلا مرةً واحدةً فقط من قبل، ولم تستمرَّ إلا دقائق معدودة، وذلك عندما أراني أين أُوقِّع باسمي في سِجِلٍّ كبير.»

قال دروموند في إلحاح: «ومع ذلك، فسأدافع عن صلاحية هذا التعريف في مواجهة المُنافسين. إن شخصية مدير البنك في أي بلد تحظى بأهمية كبيرة للغاية، وإن ثناءه لشيءٌ مرغوبٌ جدًّا.»

«يبدو أنك حُزت ثناءه. فقد أثنى على غِنائك مثلما رأيت»، والتمعت عين الفتاة ببريق خبيث وهي ترمقه بطرْف عينها، بينما افترَّت شفتاها عن ابتسامةٍ عندما رأت التورُّدَ يصعد من جديدٍ إلى وجنتَيه. لم تُقابل من قبلُ رجلًا يتورَّد وجهه من الخجل قط، ولم يكن بوسعها سوى أن تعدَّه صبيًّا كبيرًا لا شخصًا ناضجًا ليُؤخَذ على محمل الجِد. أصبح تلعثُمُه أكثر وُضوحًا.

وقال: «أظنكِ ... أظنكِ تسخرين منِّي يا آنسة إمهيرست، وأنا في الواقع لستُ متفاجئًا من هذا، ويُؤسفني ... يؤسفني أنكِ تعتبرينَني أكثر لجاجةً حتى من الصراف. لكنني في الحقيقة كنتُ أريد أن أُخبركِ بمدى أسفي لأنني تسببتُ في إزعاجك.»

ردَّت الفتاة على الفور: «يا إلهي، إنك لم تَفعل هذا. لقد كان الأمر كلُّه بسبب خطئي أنا من البداية، كما قلتُ من قبل.»

«لا، ما كان ينبغي لي أن آخذ الذهب. كان يَجدر بي أن ألحق بكِ، وأن أُخبركِ أنه لا يزال ينتظركِ في البنك، وأنا الآن أرجو منك أن تأذَني لي في السير معكِ في الشارع، حتى إذا كان ثمة مَن نظر مِن هذه النوافذ، ورأى رجلًا حاسرَ الرأس وفي يده مسدَّس يُطاردنا، فسيعلم الآن عندما ينظر من النافذة مرةً أخرى أن الأمور على ما يُرام، وربما حتى يَعُدَّ المُسدس والرجل الحاسر الرأس وهمًا بصريًّا.»

ضحكَت الفتاةُ من جديد.

وقالت: «لا أحدَ ألبتَّة يَعرفني في مدينة بار هاربر، حيث إن معارفي هنا أقل حتى من معارف زائرٍ مثلك؛ ولهذا لا يُهمُّني ألبتَّة إن كان أيُّ أحدٍ قد رآنا أم لا. سوف نسير معًا إذن، إلى المكان الذي باغتَنا فيه الصرافُ، وهذا سيمنحني فرصةً لتفسير تَركي للمال على النضد، حتى وإن لم أتمكَّن من الاعتذار عنه. أنا واثقةٌ أنَّ تصرفي بدا متعذر التفسير لكليكما بالتأكيد، لكنَّ أدبك الجم سوف يمنعُك بالطبع من أن تقول هذا.»

«أؤكِّد لكِ يا آنسة إمهيرست ...»

قاطعَته الفتاة، بمرحٍ لم تُظهِره في السابق، قائلةً: «أعرف ما ستقوله، لكنَّ المسافة إلى ناصية الشارع قصيرة، ولأنني في عجلةٍ من أمري كما ترى، يمكنني إذا كنتَ لا تمانع أن أستكملَ قصتي عندما نَتَقابل مجددًا …»

«رائع، إذا كنا سنَتقابل مجددًا …» همس الشاب بهذه الكلمات بحماسةٍ شديدةٍ حتى إنه آن لحمرة الخجل في تلك اللحظة أن تعلو وجنَتي الفتاة.

وأسرعت تقول: «إنني أتكلَّم بطيش. ما أريد أن أقوله هو أنني لم أملِك قبل ذلك كثيرًا من المال قط. وحديثًا جدًّا ورثتُ ما جمعه قريبٌ لي لمْ أعرفه مطلقًا. لقد بدا الأمر بعيدًا جدًّا على التصديق، وغريبًا للغاية، بل إنه لا يزال يبدو غريبًا ويصعب تصديقه، ولا أزال أتوقَّع أن أستيقظ وأجد أن الأمر برمَّته حُلم. في الواقع، عندما لحقتَ بي في هذا المكان الذي نقف فيه الآن، خشيتُ أن تكون قد جئتَ لتخبرني أن الأمر كان خطأً؛ وأن ترمي بي من السحاب إلى الأرض القاسية من جديد.»

صاح دروموند بتلهُّف: «لكنَّ الأمر كان على عكس ذلك تمامًا. على عكس ذلك تمامًا، تذكَّري. لقد جئتُ كي أؤكِّد حلمكِ، وقد تَسلمتِ من يدِي أول جزءٍ من ثروتك.»

اعترفَت الفتاةُ قائلةً: «نعم»، بينما كانت عيناها مُثبتتان على رصيف المشاة.

واصل الشاب كلامَه في حماسة: «إنني أفهم الآن ما جرى. أعتقد أنكِ لم تَصرفي أيَّ شيك مُطلقًا.»

اعترفَت الفتاة قائلةً: «مُطلقًا.»

«وكانت هذه مجرَّد تَجربة. لقد وضعتِ حلمكِ في مواجَهةٍ مع الواقع العمَلي الصارم للبنك، والبنوك لا تعرف الأحلام. كنتِ على وشك أن تُحوِّلي رؤياكِ إلى حقيقة واقعة، أو تكتشفي أنها اختفَت. عندما مرَّر إليكِ الصراف العاديُّ القطعَ النقدية، قالت لكِ صلصلتُها: «لقد صار الخيالُ المتوهَّم حقيقة»، لكنَّ القطع الذهبية نفسَها لم تَعنِ لكِ في تلك اللحظة الشديدة الأهمية أكثرَ مما يعنيه الكثير من القطع النقدية العديمة القيمة؛ ولذا أعرضتِ عنها.»

رفعت الفتاةُ بصرَها إليه، ورغم أن عينَيها كانتا دامعتَين، فقد أضاءتا ببهجةٍ بثَّها فيهما التعاطفُ البادي في نبرة صوته لا فحوى كلماته. كانت حياة الفتاة قبل هذه اللحظة قليلة الحظ من الطيبة مثلما كانت قليلة الحظ من المال، وكان صوته يَنطق بصدق عميق أنعشَ قلبها الشاعر بالوحشة؛ إذ كانت تلك الخبرة جديدة عليها. لم يكن هذا الرجل شديد

الحماقة كما تظاهر بذلك من قبل. لقد حدس بالمعنى الباطنيِّ لِما حدث على نحوٍ دقيقٍ. نسيَت الفتاةُ ضرورة الإسراع بالرحيل التي كانت مُلِحَّةً للغاية منذ دقائق معدودة.

قالت الفتاة: «لا بُد أنكَ تُجيد قراءة الأفكار.»

قال الشاب ضاحكًا: «لا، أنا لستُ بارعًا على الإطلاق. الحق أنَّ قدمي دائمًا ما تزلُّ في المشاكل مثلما أخبرتُكِ، ودائمًا ما أفعل أشياءَ تُزعج أصدقائي. يُؤسفني القول إنني في الوقت الراهن محلُّ ريبة إلى حدٍّ ما في العمل، وقد استُدعيت كي أتحمَّل عُبُوس رؤسائي في الخدمة.»

سألَته قائلةً: «يا إلهي، ماذا حدث؟» بعد وقوفهما المؤقت عند ناصية الشارع التي باغتهما الصراف عندها، أخذا يتمشَّيان الآن معًا مثل صديقَين يَعرف أحدهما الآخر منذ زمنٍ بعيد، وقد تجاهَلَت شرطَها السابق بألا يتجاوزا ناصية الشارع.

«حسنٌ، لقد كنتُ أتولَّى مؤقتًا قيادة السفينة الحربية المُبحِرة في بحر البلطيق، وبعدما تجاوزتُ صخرةً كبيرةً تُشبه الجزيرة ببضعة أميال، رأيتُ أنها ستكون فرصةً جيدةً لأُجرِّب مِدفعًا جديدًا وضعناه على متن السفينة عندما غادَرنا إنجلترا. كان البحرُ هادئًا جدًّا، وكانت الصخرة مُغريةً للغاية. كنتُ أعرف بالطبع أنها منطقةٌ روسية، لكنَّ أحدًا لم يكن ليتصوَّر أنَّ مكانًا كهذا كان يسكنه أيُّ شيءٍ آخر سوى النوارس.»

صاحت الفتاةُ وهي تَرفع بصرها إليه وعلى وجهها علاماتُ فضولٍ جديد: «ماذا! أتقصد أنك أنت الضابط الذي طلبَته روسيا من إنجلترا، ورفضَت إنجلترا تسليمه؟»

«يا إلهي، لم يكن بإمكان إنجلترا أن تُسلِّمني، بالطبع، لكنها اعتذرَت، وأكدَت لروسيا أنها لم تنوِ شرًّا. ومع ذلك، فإنَّ أي شيءٍ يستدعي عمل الدبلوماسيِّين محلَّ استهجان، ومَن يعمل عملًا تُضطر حكومتُه للتنصُّل منه يُصبح غير محبوبٍ لدى رؤسائه.»

«لقد قرأتُ عن الموضوع في الصحف وقت حدوثه. ألم تُبادلك الصخرةُ إطلاق القذائف؟»

«بلى، لقد فعلَت، وما من أحدٍ كان من المُمكن أن يكون أكثر ذهولًا منِّي عندما رأيتُ سحابة الدخان التي ترد عليَّ إطلاق النار.»

«كيف أَمكن لمدفعٍ أن يُوجَد هناك؟»

«لا أحدَ يدري. أظن أن صخرة البلطيق تلك هي حصنٌ مَخفيٌّ، وأن بها ممراتٍ ذات كُوَّاتٍ لإطلاق القذائف وحجراتٍ لصغار الضباط منحوتة في الصخر على طريقةِ حصوننا في منطقة جبل طارق. لقد قلتُ للمحكمة العسكرية إنني أضفتُ إلى معلومات أسطولنا

معلومةً قيِّمة، لكنني لا أظن أنه كان لهذا الزَّعمِ أيُّ تأثيرٍ على آراءِ القُضاة الذين حاكَمُوني. وقد استرعيتُ انتباههم أيضًا إلى الحقيقة المتمثِّلة في أن قذيفتي أصابَت هدفها، بينما انحرفت القذيفةُ الروسية مسافةَ نصف ميلٍ عن إصابة سفينتي. كاد هذا التعليقُ أن يُفقدني مَنصبي في البحرية. إنَّ المحكمة العسكرية لا تتمتَّع بحس الفكاهة.»

«أظن أن الأمور كلَّها قد سُوِّيَت على نحوٍ مُرضٍ الآن، أليس كذلك؟»

«حسنٌ، بالكاد حدث هذا. كما تعرفين، الدول الأوروبية مُتشكِّكةٌ جدًّا في حُسن نوايا بريطانيا، مثلما أن بعضها متشكِّك بالطبع في حسن نوايا بعضها الآخر. وما من حكومةٍ تُحب وقوعَ ما نستطيع أن ... حَسنٌ، ما نَستطيع أن نُسمِّيه «حَدثًا حُدوديًّا»، وحتى إذا كانت إحدى الدول على صوابٍ تمامًا، فإنها برغم هذا تنظُر شزرًا إلى أيِّ موظفٍ من موظفيها يُسبِّب — بحماقته — مُشكلةً دولية. أما بخصوصي أنا، فأنا محل ريبة، كما أخبرتُكِ من قبل. لقد برَّأَت المحكمةُ العسكرية ساحتي، لكنها فعلَت ذلك على مَضضٍ ومع تحذيرٍ وجَّهَته لي. سيتوجب عليَّ أن أتحلى باستقامةٍ شديدةٍ خلال السنة أو السنتَين القادمتَين، وأن أحذَر الوقوعَ في أيِّ خطأ؛ لأن أعين الأميرالية مسلَّطة عليَّ. مع ذلك، أعتقد أني أستطيع تسوية هذا الأمر. لديَّ إجازةٌ ستستمرُّ ستةَ أشهرٍ ستبدأ قريبًا، وأنوي أن أقضيَها في مدينة سانت بطرسبرج. سوف أحرص على زيارة بعض الموظفين في الأميرالية هناك سرًّا، وعندما يَعرفون بأنفسهم أنني أحمقُ حَسَنُ النية، سيتلاشى الارتياب كله.»

«لو كنتُ مكانكَ فلن أفعل أيَّ شيءٍ من هذا القبيل.» هكذا أجابت الفتاةُ بنبرةٍ جادةٍ، وقد نسيت تمامًا قُربَ عهد أحدهما بصاحبه، مثلما نسيَت مرور الوقت، بينما لم يُلاحظ هو أيَّ تعارُضٍ في الموقف. وأضافَت: «وسأُحجم عن التدخُّل في أي شيء؛ خشيةَ أن أَزيد الأمر سوءًا.»

سألها: «لِمَ تعتقدين هذا؟»

«لقد حققَت دولتُك في الأمر، وخاطرَت عن عمدٍ بوقوع نزاع عندما رفضَت تسليمك. فكيف يمكنك إذن أن تَذهب إلى هناك طواعيةً؟ سوف يكون ذلك التصرف الشخصي من جانبك مُعارِضًا معارَضةً مباشرةً للقرار الذي اتخذَته حكومتُك.»

«إنَّ الأمر مثلما وصفتُه فيما يتعلق بالقواعد، غير أنه لم يكن لإنجلترا أن تحتل المكانة التي تحتلها في العالم اليوم لو أن رجالها لم يتصرَّفُوا في كثير من الأحيان بصفتهم الشخصية، وهو ما كانت الحكومة لتُوافق عليه ألبتَّة. أما عن الوضع القائم الآن، فإن روسيا لم تُصرَّ على طلبها، بل قبِلَت قرارَ إنجلترا بامتعاضٍ، رغم أنها لا تزال مقتنعةً تمامًا

بأن تصرُّفي لم يكن انتهاكًا لمنطقةٍ خاضعة لنفوذ روسيا فحسب، وإنما كان إهانةً مُتعمَّدةً كذلك؛ ومن ثمَّ فإن العواقب الأسوأ لتصرُّفٍ طائشٍ أقوم به لا تزال قائمة. لو أنني فقط أستطيع مُقابلةَ وزير الخارجية، أو رئيس الأميرالية في مدينة سانت بطرسبرج وجهًا لوجهٍ لمدةِ عشر دقائق، لتولَّيتُ إزالة هذا الانطباع.»

قالت الفتاةُ بتواضُعٍ مُتكلَّف: «إن إيمانك بقدرتك على الإقناع عظيم.»

بدأ المُلازم يتلعثم من جديد.

وقال: «لا، لا، ليس الأمر هكذا بدرجة كبيرة، لكنَّ إيماني كبيرٌ في قدرة الرُّوس على الحكم على الأشخاص. أظنُّ أنهم يتصوَّرُونني حقودًا مُتنمِّرًا من كارهي روسيا الشَّرِسين، قد انتهكَ منطقتهم بمكرٍ، وألقى قذيفةً في أرضهم وإهانةً في وجههم. إنهم صادقون تمامًا في هذا الاعتقاد. وأنا أريدُ أن أمحوَ ذلك الانطباع، ولا شيء يُضاهي دليلًا عيْنيًّا. إنني أُحب الروس. واحدٌ من أعز أصدقائي روسيُّ الجنسية.»

هزَّت الفتاةُ رأسها.

وقالت في إصرار: «لو كنتُ مكانك لما حاولتُ فعْل هذا. ماذا لو قبضت روسيا عليك، وقالت لإنجلترا: «لقد أخذنا هذا الرجل رغمًا عنكم»؟»

ضحك المُلازمُ بشدة، وقال:

«هذا غير وارد؛ لن تفعل روسيا شيئًا كهذا. بالرغم من كل ما يُقال عن الحكومة الروسية، فإن أعضاءها رجالٌ فُضلاء. إذا حدث شيءٌ كهذا، فسيتسبَّب ذلك في مشكلة بالطبع. تلك لحظةٌ نُصبح فيها سريعي الانفعال. فاعتقال مواطن إنجليزي تافه جدًّا بغير حق، ربما يتسبَّب في شَن حملةٍ عسكريةٍ مُكلِّفةٍ للغاية. قد يتصرَّف مبعوثونا الدبلوماسيون بطريقةٍ لائقةٍ تمامًا، ورغم ذلك يُخلِّفون وراءهم شعورًا بالاستياء. انظري إلى هذه القضية نفسها مثلًا. لقد قالت بريطانيا لروسيا بنبرةٍ تدل على عدم الاكتراث:

«إننا نُنكر هذا العمل، ونعتذر عنه.»

والآن، كان يمكن لكلامها أن يُصبح في محلِّه بدرجة أكبر من هذا بكثير لو أنها قالت بلُطف:

«إن من بين موظفينا شابًّا أحمقَ طائشًا مُتعطِّشًا للمعلومات. لقد أراد أن يختبر مِدفعًا جديدًا، ومن ثمَّ أطلق منه قذيفةً، ولو قلنا إنه نوى حينها أن يُصيب بها القمر لكان ذلك أقرب من قولنا إنه نوى بها الهجوم على روسيا. إنَّ ما يعلمه عن الرقص أكثر بكثيرٍ مما يعلمه عن الشئون الخارجية. لقد أعطيناه إجازةً لمدة شهر، وسوف يتسلَّل سرًّا إلى

مدينة سانت بطرسبرج ليَعتذِر ويُوضِّح الأمر. ستُدركون فور أن تروه أنه لا يُشكِّل تهديدًا على السلام بين الدول. وفي غضون ذلك، إذا أمكنكم أن تغرسوا في ذهنِه شيئًا من التَّعقُّلِ الهادئ الرزين قبل أن يعود، فسنكون في غاية الامتنان.»

«إذن أنتَ عازمٌ على فعل ما تعتقد أنه كان على الحكومة أن تفعله.»

«أجل بالفعل. لن تتَّسم مُهمتي غير المرخَّص لي بها بأي رسمية صارمة. إن لي قريبًا في السفارةِ في مدينة سانت بطرسبرج، لكنني لن أقترب منه، ولن أنزل أيضًا في أيِّ فندق؛ بل سأَستأجر غرفةً هادئةً في مكانٍ ما بحيث لا أُخاطر بمقابلة أيِّ معارف غير مُتوقَّعِين.»

«يبدو لي أنك مُوشكٌ على تزويد الحكومة الروسية بفرصةٍ مُمتازةٍ لاختطافكَ إلى سيبيريا، ولن يفطن أحدٌ إلى الأمر.»

أطلق دروموند لنفسه العِنان في الضحك السخيِّ الذي لا يصدر إلا عن شابٍّ لا يزال يرى الحياة أشبه بمزحة جيدة.

وقال: «لن أُمانع في دراسة النظام السيبيري من الداخل إذا كانوا سيَسمحُون لي بالعودة قبل انتهاء مدة إجازتي. أعتقد أن مثل ذلك الشيء لم يكن إلا مُبالَغةً من بعض الكُتاب الذين يتَّسمون في أسلوبهم بالإثارة. إن الحكومة الروسية لن تُقر أيَّ شيءٍ من هذا النوع، وإذا حاول الموظفون الصِّغار القيام بأعمال طائشة، يمكنني الاستعانة بقريبي على الدوام، وسيكون من سوء الحظ ألا أتمكَّن من إرسال رسالةٍ قصيرةٍ إليه. يا إلهي، ليس ثمة خطرٌ في خُطتي!»

توقفَت الفتاةُ فجأةً، وأوحى وجهُها بأنها ستصرخ صرخةَ فزعٍ صغيرة.

سألها المُلازم: «ما الأمر؟»

«يا إلهي، لقد سِرنا بعيدًا داخل الريف!»

«يا إلهي، هل هذا كل شيء؟ لم أنتبه لهذا.»

«وثمَّة مَن ينتظرونني. لا بدَّ أن أُسرع.»

«هُراء، دعيهم ينتظرون.»

«كان ينبغي لي أن أعود منذ وقتٍ طويل.»

استدار الاثنان، وأخذَت هي تُسرع في السير.

«فكِّري يا آنسة إمهيرست في ثروتكِ الجديدة وهي مُودعةٌ بأمانٍ في بنك صديقنا مورتن، ولا تتعجلي من أجل أي أحد.»

«لم أقُل إنها ثروة؛ ليس في البنك سوى عشرة آلاف دولار.»

«يبدو هذا هائلًا، لكن إذا لم يكن لدى كلِّ واحدٍ ممَّن ينتظرونكِ أكثر من عشرة آلاف، فلا أعتقد أنَّ عليكِ الإسراع من أجلهم.»

«الأمر على عكس ذلك يا سيد دروموند. فكلُّ واحد فيهم أفقرُ مني؛ ولذا كان عليَّ أن أعود منذ وقتٍ طويل. إنني أخشى الآن أنهم سيكونون في حالة انفعال.»

«حسنٌ، إذا ترك لي أيُّ أحدٍ ألفَي جنيهٍ، فسآخذُ إجازةً بعد الظهر كي أحتفل. ها قد عُدنا إلى ضواحي المدينة مرة أخرى. ألن تُغيِّري رأيكِ ووجهتكِ؟ فلنَعُد إلى الريف، ونجلس إلى جانب التلِّ، وننظر إلى الخليج، ونتأمَّل في ثروتكِ في رضًا وحبور.»

هزَّت دورثي إمهيرست رأسها ومدَّت يدها.

وقالت: «يجبُ أن أُودِّعكَ الآن يا حضرة المُلازم دروموند. هذا أقصر طريقٍ يوصلني إلى البيت.»

«ألا يُمكنني أن أواصل السير معكِ بضعَ خطواتٍ أخرى فقط؟»

«كلا، أرجوك، أريد أن أُكمل ما تبقَّى من الطريق وحدي.»

أمسك دروموند يدها، التي حاولَت أن تسحبها، وبحماس قال:

«لديَّ كلامٌ كثيرٌ جدًّا كنتُ أريد أن أقوله، لكن ربما الأهم هو هذا: هل سأراكِ في مساء اليوم الرابع عشر من هذا الشهر، في الحفل الراقص الذي سنُقيمه على متن السفينة «كونسترنيشن»؟»

ضحكَت الفتاة وقالت: «محتمَل جدًّا، إلا إذا حجبني عنك الزحام. سيكون هناك حشدٌ كبيرٌ من الناس. سمعتُ أنكم وزَّعتم الكثير من الدعوات.»

«نرجو أن يأتي كلُّ أصدقائنا. سيكون حفلًا رائعًا. لقد وعد وزيرُ بَحريتكم بزيارتنا، وسيحضُر سفيرنا في واشنطن. أُؤكِّد لكِ أننا نبذل غاية وُسعنا في الأكاليل المُضاءة، والسُّجُوف المُعلَّقة، وكل هذه الأشياء؛ لأننا نُريد أن نجعل الاحتفال مُكافئًا بالحد الأدنى على الأقل لحُسن الضيافة الذي تلقيناه. لقد حصلتِ على بطاقة دعوةٍ بالتأكيد، لكنْ ليتكِ لم تَحصُلي عليها، كي أنال شرف إرسال دعوةٍ أو أكثر إليك.»

قالت الفتاة، وقد ضحكَت ضحكةً خفيفةً وازداد تورُّد وجهها من جديد: «لا داعي لهذا بالمرة.»

«إذا احتاجَت أيُّ واحدةٍ من صديقاتِك بطاقات دعوة، أيُمكن أن تُعلميني كي أُرسلها لكِ؟»

«أنا متأكدةٌ أنني لن أحتاج إلى أيٍّ بطاقة دعوة، لكن إذا احتجتُ، فأعدُكَ أن أتذكَّر عرضكَ الكريم، وأطلبها منك.»

«سيكون من دواعي سروري أن أخدمك. مع مَن ستأتين؟ أودُّ أن أعرف الاسم، تحسُّبًا لأن أُخفق في الوصول إليكِ بين الحشد.»

«أتوقَّع أن أكون مع القُبطان كِمْت من البحرية الأمريكية.»

«آه»، هكذا قال المُلازم، بنَبرةٍ تشي بخيبةِ أملٍ لم يتمتَّع بالكياسة الكافية لإخفائها. تراخَت قبضته على يدِها، وانتهزَت هي الفرصةَ لسحبها.

«كيف هو القبطان كِمْت؟ سوف أترقَّب وصوله كما تعرفين.»

«أعتقد أنه أوسم رجلٍ رأيتُه في حياتي، وأعلم أنه أطيب الرجال وأكثرهم دماثة.»

«حقًّا؟ أظن أنه شاب، أليس كذلك؟»

قالت دورثي مُبتسمةً: «ها هو ذا غرور الشباب. القبطان كِمْت من البحرية الأمريكية مُتقاعِد. ابنته الصغرى تَكبُرني بسنتَين فقط.»

صاح المُلازم بحماسةٍ صادقة: «يا إلهي، نعم، القبطان كِمْت. لقد ... لقد تذكرتُه الآن. لقد كان موجودًا في المأدبة ليلة أمس، وكان جالسًا إلى جوار قبطاننا. يا له من راويةٍ ممتاز!»

«سوف أُخبره بهذا، وأسأله عن رأيه في أُغنيتك. وداعًا!» وقبل أن يتمكَّن الشاب من التفكير في أي ردٍّ، كانت الفتاة قد رحلت.

مرَّت فوق الأرض بسرعةٍ ورشاقةٍ في البداية، ثم أخذت تُخفِّف سرعتها شيئًا فشيئًا، ثم أبطأَت حتى أصبح سيرُها وقورًا للغايةِ إلى أن وصلَت إلى بيتٍ ذي ثلاثة طوابق يُسمونه «الدار الصيفي» يُطل على الخليج، ثم تنهدَت تنهيدةً وفتحَت البوابة، ودخلَت المنزل من مدخل الخدم.

الفصل الثاني

في غرفة الحياكة

كان في غرفة الحياكة التي تُطلُّ على منظرٍ رائع ثلاثُ نسوة؛ أمٌّ وابنتاها. كانت الأم جالسةً على كرسيٍّ هزازٍ مُنخفِض، مثالًا مُتجسِّدًا للعجز الُمحزِن، وقد ارتخَت يداها على حِجرها، بينما خلَّفت الدموعُ آثارًا على وجهها العتيق. كانت الابنة الكُبرى تَذرع الغرفة جَيئةً وذهابًا في تجسيدٍ عجيبٍ للحيوية والتلهُّف مثلما كانت الأم نموذجًا للكآبة. أما مُحيَّاها الجميل فقد أفسده عُبُوسٌ غاضب. كانت الابنةُ الصغرى تقف إلى جوار النافذة الطويلة، وتُسند جبينها على الزجاج، بينما راحت أصابعُها تنقُر بتكاسلٍ على حافة النافذة. كانت نظرتها مُثبَّتةً على الخليج الأزرق، حيث ترسو السفينة الحربية البريطانية الضخمة «كونسترنيشن»، محاطةً بمجموعة من سفن الأسطول الأمريكي وكأنها بجعاتٌ بيضاء في الماء. كانت الأشرعة البراقة تتلألأ في أماكنَ متفرقة فوق صفحة الخليج، بينما راحت الزوارقُ ذاتُ المحركاتِ وغيرها من الزوارق، تندفع هنا وهناك في وقاحة وَسَطَ سفن الأسطول الضخمة.

كان في أحد أركان الغرفة ماكينةُ حياكة، وعلى المنضدة الطويلة أكوامٌ من أقمشة رقيقة رديئة تُصنع منها الملابس النسائية. لم يكن ثمة سجادةٌ على الأرضية، ولا سقفٌ فوق رءوسهن، لا شيء سوى العوارض الخشبية العارية وألواح الخشب التي تَحمل ألواحَ التسقيف المصنوعة من خشب الصنوبر في السطح الخارجي؛ مع ذلك فقد كانت هذه العِلِّية مُتميِّزةً بسبب المنظر الرائع الذي يُمكن مُشاهدتُه من نافذتها. لقد كانت مَشغلًا مثاليًّا.

بينما البنت الكبرى تسير جَيئةً وذهابًا، تحدَّثت بنَبرةٍ غاضبة:

«لا يوجد أيُّ عُذرٍ إطلاقًا يا أمي، وإنه لضَعفٌ منكِ أن تَزعُمي أنَّه ربما يُوجد عذر. إنَّ المرأة غائبةٌ عن البيت منذ ساعات. ها هو ذا غداؤها على الطاولة لم تتذوَّقْه، وقد أحضرَته الخادمة في الثانية عشرة.»

أشارت إلى صينيَّةٍ عليها أطباقٌ أيَّدَت مُحتوياتُها الباردةُ حقيقةَ تعليقها.

قالت الابنةُ الصُّغرى، دون أن تَصرف عينَيها عن سفينة صاحبة الجلالة «كونسترنيشن»: «ربما أضربَت عن العمل. لن أتعجَّب إذا نزلنا إلى الطابَق السُّفليِّ مرةً أخرى ووجدْنا منظِّمي الإضراب يمنعون العمالَ مفسدي الإضراب من دخول المنزل.»

قالت أختها الكُبرى باستهزاء: «يا إلهي، يمكن الاعتمادُ عليكِ دائمًا في قول الهراء التافه. إن الطريقة العاطفية السخيفة التي تُعامِلين بها العمال، أنتِ وأبي، هي التي تجعل التعامل معهم من أصعب ما يكون. لو كانت الطبقاتُ العاملة عرفَت حدودها ...»

«الطبقات العاملة! ماذا تقولين! إن دورثي سيدةٌ نبيلةٌ مثلنا تمامًا، وأحيانًا أعتقد أنها أكثر نبلًا إلى حدٍّ ما من كُلٍّ منَّا. إنها ابنةُ كاهن.»

قالت البنت الكبرى بازدراء: «هذا ما تَزعمه هي.»

ردت الصغرى دون اكتراث: «حسنٌ، لا بُد أنها أدرى بذلك.»

«إن أمثالكِ من الناس هم الذين يُدلِّلون العالةَ أمثالها بتقريبِهم منهم ومناداتهم بأسمائهم الأولى. لا تُكثِري من مُناداتها بدورثي؛ اسمُها إمهيرست.»

تمتمَت الصغرى دون أن تُحوِّل رأسها: «لقد سُميَّت دورثي عند تعميدها، بشهادة العرَّاب والعرَّابة.»

اعترضَت أمهما بوداعة، وكأنما أرادت أن تقترح حلًّا وسطًا، وتُخفِّف من حدة النقاش، فقالت: «أعتقد أنها تَستحق أن تُنادى بالآنسة إمهيرست، وأن تُعامَل بلُطفٍ لكن بتحفُّظ.»

«هُراء!» هكذا صاحت الكُبرى في سخط، مُظهِرةً رفضَها الحلَّ الوسط.

همست الصغرى قائلةً: «لا أفهم سببَ ثورتكِ يا سابينا. لقد ظللتِ تُزعجينها دون توقُّفٍ حتى أنجزَت ثوبك الذي ستَذهبين به إلى الحفل الراقص. إنني أنا وأمي مَن يحق لنا أن نتذمَّر؛ فثوبانا لم يُمسَّا تقريبًا، بينما تستطيعين أنتِ أن تَسيري بجلالٍ فوق أسطُح السفينة «كونسترنيشن»، مثل يختٍ كاملِ الأشرعة. وها أنا ذا أعود إلى مزج تشبيهاتي من جديد، كما يقول أبي دائمًا. إن اليخوت لا تسير على ظهور البوارج، أليس كذلك؟»

بوهَنٍ صححَت الأمُّ المعلومةَ قائلةً: «إنها طرَّادة.» إذ كان لديها بعضُ المعرفة بشئون البحرية.

«حسنٌ، طرَّادةٌ إذن. إنَّ سابينا تخشى ألَّا يذهب أبي إلَّا إذا كان لدينا جميعًا ثياب جديدة فخمة، لكن أمي تستطيع أن تَرتدي فستانها الحريري الأسود القديم، وسأذهب أنا حتى إن اضطررتُ إلى ارتداء ثوب قطني.»

«إن التفكير في أنَّ هذه المرأة تأخذ مالنا، وتتغيَّب بهذه الطريقة الشائنة ليَفوق القدرة على الاحتمال!»

«تأخذ مالنا! هذا معنى أن يمتلك المرءُ مَلَكة الخيال. يا إلهي، أنا لا أظن أن دورثي أخذَت قرشًا واحدًا منذ ثلاثة أشهر، وأنتِ تعلمين أننا اشترينا قماش الثياب بالأجل.»

وبَّخَتها أمها في لُطفٍ قائلةً: «يجب أن تتذكري أن أباكِ ليس غنيًّا.»

«يا إلهي، إنما ألتمس قليلًا من المعاملة الإنسانية. إن الفتاةَ لسببٍ ما قد خرجَت. وهي لم تتذوق شيئًا منذ وقت الإفطار، وأنا أعلم أنه ما مِن قطعةٍ فضيةٍ واحدةٍ في جيبها لتشتري بها كعكةً من أحد محلات الألبان.»

قالت سابينا: «لا يحق لها أن تتغيَّب دون إذن.»

«ماذا تقولين! إنك تتكلَّمين وكأنها بحَّارةٌ على متن بارجة ... أقصد طرَّادة.»

قالت الأم بنحيبٍ، وهي تكاد تَلوِي يدَيها وتفركهما تعبيرًا عن قلقها، بعدما أنهكتها الأزمة جزئيًّا: «إلى أين يُمكن أن تكون الفتاة قد ذهبت؟ هل قالت لكِ أيَّ شيءٍ عن الخروج من المنزل يا كاثرين؟ إنها أحيانًا تأتَمنكِ على أسرارها، أليس كذلك؟»

صاحت سابينا في غضبٍ شديد: «تأتمنها على أسرارها!»

قالت كاثرين بتَنهيدةٍ بريئة: «أنا أعلم أين ذهبَت.»

صاحت الأم وابنتها بالكلمات نفسها تقريبًا: «لماذا لم تُخبرينا قبل الآن إذن؟»

أوضحَت كاثرين بهدوءٍ، وهي لا تظنُّ ألبتَّة أن كلماتها تَحوي أي شيء من الحقيقة: «لقد هربَت مع قبطان السفينة «كونسترنيشن» لتتزوَّجه. كان أبي يجلس بجواره في المأدُبة ليلة أمس، ويقول إنه بحَّارٌ رائع وأعزب. لقد كان أبي مُتيَّمًا به بصورةٍ هائلة، وقد ناقشا التكتيكات الحربية معًا. في الواقع، إنَّ أبي يتكلَّم بلهجةٍ إنجليزيةٍ واضحةٍ جدًّا هذا الصباح، وأظن أن لديه صداعًا خفيفًا يُحاول أن يُخفيَه بابتسامةٍ مُضطربة.»

قالت أمها بلهجةٍ جادة: «لا يمكن لأحدٍ أن يُخفي الصداع؛ لأنه شيءٌ خَفيٌّ. أتمنَّى ألا تتكلَّمي بطيشٍ كبيرٍ هكذا يا كاثرين، وعليكِ ألا تتكلَّمي عن أبيكِ بهذه الطريقة.»

قالت كاثرين بلهجةٍ جازمةٍ، وبثقةٍ كبيرة: «يا إلهي، إنَّني أنا وأبي يفهم أحدُنا الآخر»، وفي تلك اللحظة، وللمرة الأولى طوال هذا الحوار حوَّلَت الفتاةُ وجهها عن النافذة؛ إذ كان الباب قد انفتح لتدخل منه المُذنِبة.

صاحت سابينا ولم تكد قدم إمهيرست تعبُر بأكملها عتبةَ الباب: «والآن يا إمهيرست، ما معنى هذا؟»

نظرت النسوة الثلاث كلهن إلى الوافدة. كان وجهها الجميل متوهِّجًا، ربما بسبب الجهد الناتج من صعودها الدَّرَج، وتألقت عيناها كعينَي إلهة الحرية عندما قابلَت تلك النظرةَ المحدقة المتعجرفة التي رمقتْها بها سابينا ذاتُ القامة الفارعة بمثلها في ثبات.

وقالت بهدوء: «لقد أخَّرني أمرٌ ما.»

«لماذا خرجتِ من دون إذن؟»

«لأنه كان لديَّ عملٌ أقوم به ولم يكن يمكن القيام به في هذه الغرفة.»

«ليست هذه إجابةً لسؤالي. لماذا لم تَستأذني؟»

رفعَت الفتاةُ يديَها ببطءٍ، وأظهرَت مِعْصَمَيها الجميلَين وقد ضمَّت أحدَهما إلى الآخر، وكشفَت كُمَّ فستانها الأسودِ عن جزءٍ يسيرٍ مِن ساعِدها.

وقالَت بتؤدة: «لأن القيود قد سقطَت عن هذَين المِعصمَين.»

«لستُ أدري ما تقصدين حقًّا»، هكذا قالت سابينا التي يبدو أنها تأثرَت رُغمًا عنها، لكنَّ الأخت الصغرى أخذَت تُصفِّق بانتشاء.

وصاحت: «رائع، رائع يا دورثي. أنا أيضًا لا أدري ما تقصدينه، لكنكِ تبدين مثل ماكسين إليوت في تلك المسرحية عندما ...»

قاطعتها الأخت الكبرى قائلةً من خلفها: «هلَّا تصمُتين!»

أعلنت دورثي قصدها قائلةً: «أقصد أنني لا أنوي مواصلة الحياكة هنا بعد الآن.»

قالت الأم بتفجُّع: «يا إلهي، آنسة إمهيرست، آنسة إمهيرست، سوف تُقدمين من دون شفقةٍ على تركنا في هذه الأزمة ونحن بلا مُعين؛ ولا يُمكننا الحصول على أيِّ حائكة ملابس في المنطقة تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف. إن الجميع يعملون ليلَ نهارَ للاستعداد للحفل الراقص يوم الرابع عشر من الشهر الجاري، وأنتِ ... أنتِ التي ربيناكِ ...»

قالت الابنةُ الكبرى بسخريةٍ ومرارة: «أظنُّها ستحصُل على مالٍ أكثر.»

قالت كاثرين، وقد تقدَّمت خطوةً للأمام وضمَّت يديها معًا: «دورثي، يا إلهي. هل تقصدين أن تقولي إنني سأحضر الحفل الراقص بثوب قطني في النهاية؟ لكنَّني سأذهب، برغم ذلك، حتى ولو رقصتُ بعباءةٍ صباحية.»

وبَّخَتها أمها قائلةً: «كاثرين، لا تتكلَّمي بهذه الطريقة.»

ردَّت الابنة الكبرى بانفعال قائلةً: «بالطبع، حين يتعلَّق الأمرُ بمزيدٍ من المال، فلا قيمة للطِّيبة.»

ابتسمَت دورثي إمهيرست عندما ذكرَت سابينا كلمةَ طِّيبة.

وأقرَّت قائلةً: «المسألة كلها مسألة مالٍ بالتأكيد بالنسبة إليَّ.»

قالت كاثرين، بتنهيدةٍ مُبالغ فيها: «دورثي، لم أتوقَّع ذلك منكِ مُطلقًا. ليتَه كان حفلًا راقصًا بأزياء تنكرية، إذن لاستعرتُ بذلةَ أخي جاك النظاميةَ، وذهبتُ بها.»

قالت الأم شاكيةً: «كاثرين، أنا مصدومةٌ فيكِ.»

«لا يُهمني؛ فسوف أبدو رائعة في زي طالبٍ صغيرٍ بالبَحرية. لكن، دورثي، لا بد أنكِ تتضوَّرين جوعًا؛ إنكِ لم تَمسِّي غداءك ألبتَّة.»

قالت سابينا بصرامة: «يبدو أنكِ نسيتِ كل شيءٍ اليوم، الواجب وكل شيءٍ آخر.»

قالت دورثي بصوتٍ خفيض: «أنتِ مُحقةٌ تمامًا.»

«وهل هربتِ مع قبطان السفينة «كونسترنيشن»، وتزوجتُما في السر، وكان هذا أمام أحد قُضاة الصلح؟ أخبرينا كل شيءٍ عن الموضوع.»

سألتها دورثي، وقد غزا الذعرُ عينَيها بُرهةً من الزمن: «ماذا تقولين؟»

«يا إلهي، كُنتُ لتوي أقول لأمي وساب إنكِ هربتِ في وضح النهار، مع قبطان السفينة «كونسترنيشن»، الذي كان بالأمس أعزبَ شديدَ المرَح، لكنه ربما أصبح اليوم رجلًا مُتزوِّجًا إذا صحَّت شكوكي. يا إلهي، دورثي، هل سيكون عليَّ أن أذهب إلى الحفل الراقص بفستان من قماشٍ منقوش؟»

نظرت الفتاةُ حائكة الملابس نظرةً رقيقةً إلى كاثرين المندفعة.

وقالت: «كيت، عزيزتي، سوف تلبسين أروعَ فستان للحفلات الراقصة رآه الناس يومًا في بار هاربر.»

سألتها سابينا: «كيف تَجرُئين على مُناداة أختي باسم كيت، والتفوُّه بهذا الهراء؟»

«سأظلُّ أناديكِ دائمًا بالآنسةَ كِمْت، والآن، سوف أَجلِس إذا سمحتِ. أنا مُتعَبة.»

صاحت كاثرين: «نعم، وجائعةٌ أيضًا. ماذا أُحضر لكِ يا دورثي؟ هذا كله بارد.»

«أشكركِ، أنا لستُ جائعةً على الإطلاق.»

«ألا تُريدين فنجانًا من الشاي؟»

ضحكَت دورثي في شيءٍ من السأم.

وقالت: «بلى. وأريد بعض الخبز والزبد.»

قالت كاثرين، تقترح عليها: «وكعكة أيضًا.»

«وكعكة أيضًا، من فضلك.»

انصرفَت كاثرين بسرعةٍ إلى الطابَق السفلي.

«حسنٌ، أنا مندهشة!» هكذا هتفَت سابينا لاهثةً وهي تستجمع قوَّتها من جديد، وكأنما انهارت قيمة النسيج الاجتماعي.

وضعت زوجة القبطان كِمْت إحدى يديها فوق الأخرى وبدا في وجهها تعبير ينم عن إذعان ممتزج بالصبر، كمَن ترى جميع المعالم والحدود القديمة وهي تتلاشى من أمام عينيها.

سألت سابينا ببرودٍ شديد: «هل ثمة أي شيءٍ آخر نستطيع إحضاره لكِ؟»

ردَّت دورثي، بثقةٍ ورصانة: «نعم، سأكون ممتنةً للغاية إذا أحضر لي القبطان كِمْت بطاقة دعوةٍ إلى الحفل الراقص على متن السفينة «كونسترنيشن».»

قالت سابينا لاهثةً: «حقًّا! ألا تُكمِّل أمي هي الأخرى جهودَ أبي وتُعطيكِ ثوبًا من ثياب الحفلات الراقصة من أجل تلك المناسبة؟»

«ليس لي أن أُزعجها بهذا، يا آنسة كِمْت. إنَّ بعض زبائني قد أطرَوني من قبلُ بقولهم إن لي ذوقًا رفيعًا في الثياب، وإن تصميماتي، لو عُرفَت أكثرَ من هذا، لربما تُصبح طرازًا رائجًا في نطاقٍ ضيق؛ لذا سأعتني بزيِّي بنفسي؛ لكن إذا تكرَّمَت مدام القبطان كِمْت بالسماح لي بحضور الحفل الراقص تحت رعايتها الشخصية، فسأكون في غاية الامتنان لذلك.»

«ما أروع هذا! أما مِن شيءٍ أستطيع أنا عملَه لتعزيز طموحاتكِ يا آنسة إمهيرست؟»

«أنا ذاهبةٌ إلى الحفل الراقص بصفتي مُتفرِّجةً فقط، وربما يُمكنكِ أن تبتسمي لي عندما تمرين بي أنتِ ورفاقكِ، لكي يقول الناس إنني من معارفِك.»

بعد هذا ساد الصمتُ غرفةَ الحياكة إلى أن دخلت كاثرين، تتبعها إحدى الخادمات بالشاي وقِطع الكعك. كانت بعض خامات الثياب موضوعةً على منضدةٍ دائريةٍ صغيرةٍ فأزاحتها المندفعة كاثرين جانبًا، ووُضعت المنضدةُ، والصينيةُ فوقها، على يمين دورثي إمهيرست. عندما غادرت الخادمةُ الغرفة، انسلَّت كاثرين إلى طاولة الحياكة الطويلة، ووثبَت فوقها بخفةٍ، وجلست هناك تهزُّ قدمًا رقيقةً صغيرة. جلست سابينا على الكرسي الثالث في الغرفة، كان العُبُوس لا يزال يُضيف صرامةً إلى وجهٍ هو دون ذلك وجهٌ جميل. الابنة الصغرى هي التي تكلمت.

«والآن يا دورثي، أخبرينا بكل شيءٍ عن الهروب والزواج.»

«أيُّ هروبٍ وزواج؟»

«كنتُ أُهدِّئُ من مَخاوف أمي بإخبارها أنكِ هربتِ مع قبطان السفينة «كونسترنيشن» لتتزوجيه. لا بد أنني كنتُ مخطئةً في ذلك الظن؛ لأنه لو كان الزواجُ السريُّ الذي رجوتُ حدوثَه قد تَمَّ لكنتِ قلتِ لسابينا إنَّ القيود في معصميكِ بدلًا من قولكِ إنها أُزيلت. لكنَّ أمرًا مُهمًّا حدث، وأريد أن أعرف كل شيءٍ عنه.»

لم تستجِب دورثي لهذه المناشَدة، وبعد دقيقةِ صمتٍ قالت سابينا بلُغةٍ عملية:

«كلُّ ما حدث هو أن الآنسة إمهيرست تتمنَّى أن يُقدِّم لها أبي بطاقة دعوةٍ للحفل الراقص الذي سيُقام على متن السفينة «كونسترنيشن»، وعندما سلَّمَت بحدوث ذلك، طلبَت من أمي أن تكون مرافقتها في الحفل، وعلاوةً على هذا عبَّرت عن رغبتها في أن أُعاملها بتهذيبٍ بالغٍ عندما نكون على متن الطرَّادة.»

صاحت كاثرين بمرح: «يا إلهي، إنَّ الشرط الأخير ميئوس منه ولا تُجدي حتى الصلاةُ من أجله، لكنَّ الشرطَين الآخرَين مُحتملان جدًّا. يُسعدني شخصيًّا أن أكون مرافقة دورثي، وأما عن التهذيب، يا إلهي، فسوف أتحلَّى بتهذيبٍ يُعوِّض عن كل نقصٍ في دماثةِ بقية أفراد الأسرة.

لأني أرى أنه في البِحارْ،
إذا قال «أرجوك» بعضُ الخِيارْ،
فذا القولُ يُرسِي بباقي الرجالْ،
سُلوكَ ذوي الفضلِ أهلِ الكمالْ.
كذلكَ أخواتُه قد فَعلنَ،
وأبناءُ عَمٍّ وعمَّاتُ قُلنَ.

والآن يا دورثي، دعي عنكِ الخجل. ها هم أُولاء أُختُكِ وابنةُ عمكِ وعمتُك ينتظرن كشف السر المُروِّع. ماذا حدث؟»

قالت الفتاة، وهي تبتسم من الطريقة التي أسهبَت بها الأخرى في الحديث: «سوف أُخبركِ بما سيحدث يا كيت. من المُحتمَل أن تُوافق السيدة كِمْت على اصطحابي أنا وأنتِ إلى نيويورك أو بوسطن، حيث سننزل في أفضل فندقٍ هناك، وسنزيِّن أنفسنا بفساتين للحفل الراقص ستكون موضع إعجاب مدينة بار هاربر بأكملها. سوف أدفع تكاليف هذه الرحلة لردِّ جزءٍ من معروفِ والدكِ الذي سيأتيني ببطاقة دعوة، ومعروف والدتكِ التي ستَسمح لي بأن أكون واحدة منكن.»

«يا إلهي، إنه ليس هروبًا من أجل الزواج إذن، وإنما ميراث. هل مات قريبك الشرير الغني؟»

قالت دورثي برزانةٍ، وعيناها تنظران إلى الأرض: «نعم.»

«يا إلهي، أنا آسفةٌ جدًّا على ما قلتُه الآن!»

وبَّختها أمها قائلةً: «دائمًا ما تتكلمين من دون تفكير.»

«نعم، أليس كذلك؟ لكن، أتعلمين، كنتُ أظن بطريقةٍ ما أن دورثي ليس لها أقارب؛ لكن إذا كان لها قريبٌ غني، وسمح لها بأن تَكدح كالعبيد في الحياكة، فأنا أرى إذن أنه شرِّير، سواء مات أو لا يزال على قيد الحياة، وهذا رأيي!»

علَّقت سابينا على كلامها بصرامةٍ وإنصاف: «عندما يتقاضى المرءُ أجرًا نظير عمله لا يُسمى ذلك عبودية.»

نظرت الفتاة الحائكة الملابس إليها. وقالت:

«كان جدِّي، في ولاية فيرجينيا، يملك عبيدًا قبل الحرب، وكثيرًا ما كانت تُراودني فكرةُ أن أيَّ لعنةٍ ربما تكون لها علاقةٌ بالاستعباد قد كُفِّر عنها بي أنا جزئيًّا على الأقل، كما يُنذر بذلك الكتابُ المقدَّس، حيث يقول إن ذنوب الآباء سوف تبلغ عاقبتُها حتى الجيل الثالث أو الرابع. لقد كنتُ أفكِّر في هذا عندما تحدثتُ عن سقوط القيود من معصمَيَّ؛ لأنكِ أحيانًا، يا آنسة كِمْت، كنتِ تجعلينَني أشكُّ إن كان الأجر والعبودية على تلك الدرجة من التعارض التي يبدو أنكِ تتخيلينهما عليها. كثيرًا ما كان أبي الكاهن، يُحدثني عن عبيدِ أبيه، وعلى الرغم من أنه لم يُدافع مطلقًا عن نظام الرِّقِّ، فأنا أظن أن تأثيرًا سحريًّا ما كان يُضعِف من وضوح الماضي في عقله ومن الجائز أن ذلك التأثير السِّحري قد حجب عنه العيوبَ التي كانت تشوب الحياةَ في المزرعة. لكنني كثيرًا ما كنتُ أظن وأنا في حالات الاكتئاب والوحدة أنني كنتُ لأُفضِّل أن أُصبح إحدى إماء جدي على أن أتحمَّل الحياة التي أُجبرتُ على أن أحياها.»

ناشدتها كِيت قائلةً: «ربَّاه، دورثي، لا تتكلمي بهذه الطريقة، وإلَّا ستُبكينني. فلنبتهج مهما يكن من أمر. أخبرينا عن المال. ابدئي بالقول: «في يومٍ من الأيام»، ثم سيُصبح كل شيءٍ على ما يرام. فمهما بلغت بداية مثل هذه القصص من فظاعة، فإنها دائمًا ما تنتهي بالكثير والكثير من المال، أو بأميرٍ يرتدي زيًّا رسميًّا رائعًا ويضع شريطًا ذهبيًّا، وتَحصُلين على نصف مملكته. هيَّا تكلمي.»

رفعت دورثي عينَيها إلى صديقتها المتلهِّفة، وطرد ابتهاجٌ مُشرقٌ سحائبَ الكآبة المحتشدة على وجهِها.

«حسنٌ، ذات يومٍ كنتُ أعيش في سعادةٍ كبيرةٍ مع والدي في بيتٍ صغيرٍ من بيوت القساوسة في بلدةٍ صغيرةٍ قرب نهر هدسون ريفر. لقد أفقرت الحربُ عائلتَه، وعندما بِيعت المزرعة، أو تُركت ليدِ الإهمال، كان كلُّ ما يأتي منها من المال يذهب إلى أخيه الأكبر والوحيد. كان أبي عالِمًا حالمًا، ولم يكن رجل أعمال مثل أخيه الذي يبدو أنه كان يتمتع بتلك المهارة. لقد ماتت أمي وأنا طفلة؛ فلست أتذكَّرها. كان أبي أطيب الرجال وأكثرهم صبرًا، وكلُّ ما أعلمه هو الذي علَّمَنيه. كنا فقراء للغاية، وقمتُ أنا بمهام تدبير المنزل، والتي أديتها على خير وجهٍ أمكنني، حيث كنتُ أتعلَّم دائمًا من إخفاقاتي. لكنَّ أبي لم يكن يكترث ألبتَّة لوسائل الراحة المادية إلى حد أنه لم يُوبِّخني ولا مرةً واحدة. لقد علَّمني كلَّ ما أعرفه عما يُمكن تسميته بالإنجازات، وقد كانت إنجازاتٍ متنوعةً بطريقةٍ غريبةٍ للغاية؛ إلمامٌ باللغتَين اللاتينية واليونانية، وقدْرٌ جيدٌ من الفرنسية، والتاريخ، والأدب، وحتى الرقص والموسيقى؛ إذ كان عازفًا ممتازًا. لقد توقَّف دخلُنا الضئيل مع توقُّف حياة أبي، وكان عليَّ أن أختار العمل الذي ينبغي لي أن أقوم به لأجني قوت يومي، مثل «أورفانت آني» في قصيدة «وِتكم رايلي». لقد بدا أن هناك ثلاث سُبل مفتوحة أمامي. كان بإمكاني أن أُصبح مُربية أطفال، أو خادمةً في المنازل، أو حائكة ملابس. لقد أحرزتُ بعض المكانة بالفعل في العمل الأخير، واعتقدتُ أنني إذا تمكنتُ من تأسيس عملٍ لنفسي، فستكون الفرصة في تحقيق بعض الاستقلال مع هذا المجال أعظم مما لو أصبحتُ مربيةَ أطفالٍ أو خادِمة. لكن لكي أفعل هذا كنتُ أحتاج على الأقل إلى رأسِ مالٍ صغير.

على الرغم من انقطاع التواصُل بين الأخوَين على مدار سنواتٍ عديدةً، فقد حصلتُ على عنوان عمِّي، وكتبتُ له أُخبره بموتِ أبي، وأطلبُ منه بعضَ المساعدة لكي أُنشئَ عملًا لنفسي، ووعدتُه بإعادةِ ما يُقرضني من مالٍ مع الفائدة حالَما أستطيع؛ لأنه على الرغم من أن أبي لم يقُل قط كلمةً سيئةً واحدةً في حق أخيه الأكبر، فقد عرفتُ بطريقةٍ ما عن طريق الحدس، وليس عن طريق العلم، أنه كان رجلًا قاسيًا، وقد برهنَت على هذا رسالتُه التي ردَّ بها عليَّ؛ إذ لم تحتوِ على أي عبارةٍ تدلُّ على الأسف لموت أخيه. رفض عمِّي أن يُقرضني المبلغ الذي طلبته منه، قائلًا إنه قبل عدةِ سنواتٍ أعطى أبي مائتَي دولارٍ ولكنَّ أبي لم يردَّها له مُطلقًا. ولذا فقد أُرغمتُ، حتى اللحظة الراهنة على الأقل، على التخلِّي عن خطَّتي في فتح مؤسسةٍ لحياكة الثياب النسائية حتى ولو على أضيق نطاق،

واضطررتُ إلى قبول وظيفةٍ كتلك التي أُزاولها هنا. لقد تمكَّنتُ على مدار ثلاث سنواتٍ من ادِّخار مبلغ المائتَي دولار، وأرسلتُه إلى عمِّي، وتعهَّدتُ له بإرسال مبلغ الفائدة إذا أخبرَني بتاريخ الدَّين. ردَّ عمي برسالةٍ تُوضِّح المعلومات، وضمَّنها إيصالًا بأصل الدَّين، مع كشفِ حسابٍ في غاية الدقَّة لمبلغ الفائدة في حال حُسبَت على طريقة الفائدة المركَّبة سنويًّا؛ إذ كان هذا هو حقه القانوني، لكنه عبَّر في رسالته عن استعداده لقبولِ فائدةٍ بسيطةٍ وإعطائي إيصالًا بالمبلغ كله.»

«المتوحِّش!» هكذا هتفت كاثرين، وقد تسبَّبت لها هذه الكلمةُ في توبيخٍ خفيفٍ من أمِّها على انفعالها ولغتها غير الملائمة.

قالت كاثرين، من دون أن يَعتريها خجل: «حسنٌ، أكمِلي.»

واصلت دورثي قائلةً: «إنما أذكر هذا الجزء تحديدًا من القصة ليكون درسًا عمليًّا في الأمانة. لم تحدث منذ بداية الكون حالةٌ من حالات فعل الخير دون انتظار مقابلٍ أشبه بما فعلتُه أنا حين أرسلت مبلغ المائتَي دولار. يبدو أن عمي كان رجلًا مُنظَّمًا للغاية. لقد وضع رسالتي التي تحتوي على المال في ملفٍّ ومكانٍ مُحدَّدَين، ووضعَ معهما كذلك نسخةً مكتوبةً على الآلة الكاتبة من رده، وعندما تُوفِّي، كانت هذه الوثائق هي ما لفَتَ انتباه مُحاميه إليَّ؛ إذ إنَّ عمي لم يترك وصية. لقد اتصلتْ شركة كاليفورنيا بمحامِين في نيويورك، وبدءوا سلسلةَ تحقيقاتٍ دقيقة للغاية، وأسفرَت تلك التحقيقاتُ في النهاية، بعدما قدمتُ لهم إثباتاتٍ مُعينةً طلبوها مني، عن إعلاني وريثةً لتركة عمي.»

سألتها كاثرين: «وما مقدار ما ورثتِ؟ ما مقدار ما ورثتِ؟»

«لقد طلبتُ من المحامِين في نيويورك أن يُودعوا لي عشرة آلاف دولار في البنك الوطني السادس الواقع بهذه المدينة، وقد فعلوا. وكان خُروجي اليوم كي أسحب شيئًا صغيرًا من هذه الوديعة لأتأكَّد إن كانت حقيقية.»

تمتمت كاثرين بنبرةٍ تنمُّ عن خيبةِ أملٍ كبيرة: «عشرة آلاف دولار، هل هذا كل شيء؟»

سألتها دورثي وعيناها تلمعان فرحًا: «أليس هذا كافيًا؟»

«نعم ليس كافيًا، أنتِ تستحقِّين عشرة أضعاف هذا، ولن أذهب إلى نيويورك أو بوسطن على حسابك لشراء ثياب جديدة. هذا غير وارد! سوف أَحضُر الحفل الراقص بثوبي المصنوع من قطن الكاليكوه.»

ضحكت دورثي بصوتٍ مُنخفِض، وأخرجَت من الحقيبة الصغيرة التي تحملها على جنبها رسالةً، وناولت كاثرين إياها.

وقالت تُحذِّر صديقتها: «إنها خاصَّة وسرية.»

قالت كاثرين وهي تفتحُها: «يا إلهي، لن أُخبر أي أحد.» قرأت كاثرين قراءةً حثيثةً حتى منتصف الرسالة، ثم هبَّت واقفةً فوق المنضدة، وصرخت:

«خمسة عشر مليون دولار! خمسة عشر مليون دولار!» وأخذت تُؤرجح ذراعيها إلى الأمام والخلف كرياضيٍّ على وشك أن يقفز، ثم قفزت على الأرض، وكادت تقلب المنضدة الدائرية الصغيرة، والصينية وكل شيءٍ وهي تعانق دورثي إمهيرست.

«خمسة عشر مليون دولار! هذا يُشبه … يا إلهي، أمي، أتُدركين أن في بيتنا واحدةً من أغنى الفتيات في العالم؟ ألا ترَين أنَّ بقية هذا الاجتماع يجب أن تُجرى في قاعة الاستقبال تحت أفخم رعاية؟ كم هو مشين أن نُبقي وريثةً مثل هذه في العلِّيَّة!»

قالت سابينا ببطءٍ وفتور: «أعتقد أن دخل السيد روكفيلر …»

صاحت الأخت الصغرى الساخطة: «ربَّاه، سُحقًا للسيد روكفيلر ودخله!»

ناشدتها أمها بعينَين دامعتَين: «كاثرين!»

الفصل الثالث

على متن السفينة

على مدار يوم الصيف الطويل، ظلَّت قلوب تلك السيدات، صغيرات أو غير صغيرات تمامًا، تخفق بحماس رقيق لَمَّا تسلَّمن دعوات الحضور إلى الحفل الراقص المُقام على متن السفينة «كونسترنيشن» في تلك الليلة. أُضيفت اللمساتُ الفنيةُ الأخيرةُ للثياب البديعةِ التصميمِ التي تطلَّبَ عملُها مهارةً وذوقًا ومالًا. لَمَّا ارتدت فتياتُنا الثلاثُ أكثر الثياب أناقةً ودلالةً على حُسن الذوق، شعرنَ بالابتهاج، وبدا هذا الشعور على كل واحدةٍ منهنَّ تبعًا لطبيعتها؛ فكان انتشاءُ سابينا تعبيرًا عن الفخامة، وكانت دورثي هادئةً ورزينة، أما كاثرين فلم ترضَ على الرغم من توسُّلات أمها، بالبقاء هادئةً، وإنما راحَت تهز فستانها الجميل يَمنةً ويَسرةً وهي تتمايل بحركات رقصة الفالس، وتَقتبِس، كعادتها، من كلمات أوبرا السير دبليو آر جيلبرت. راحت تتراقص على الأرضية على إيقاع غنائها.

عندما ارتديتُ للمرة الأولى هذا الزي.
قلتُ، وأنا أنظر إلى المِرآةْ،
«لا يمكن أن يتفوَّق عليَّ
في الهيئة أو الصورة أيُّ مدنيٍّ.»

في غضون ذلك، كان البحَّارُ المُخضرَم اللطيفُ القبطانُ كِمْت في غرفةٍ بالطابق الأسفل يقصُّ آخر الأخبار على زوج ابنتِه المستقبلي، وهو ضابطٌ شابٌّ في البحرية الأمريكية، ظلَّ ينتظر بنفاد صبرٍ نابعٍ من إحساسه بالواجب، قُدُومَ المُشرقة سابينا. عندما نزلتِ السيداتُ أخيرًا، انطلقَ الجمعُ، وسط الظلام المُحتشِد في هذه الليلة الصيفية المُبهجة، نحو الرصيف البحري الخاص الذي مُنِحوا، بفضل المكانة الرسمية للقبطان كِمْت، امتيازَ الإبحار منه إلى الطرَّادة، وذلك على متن المركب الحكومي الصغير، المُسمَّى «ويب-بور-ويل»، الذي

كان سينقل فيما بعدُ وزير البحرية وبِطانته عبر هذه المياه نفسِها. قبل لحظاتٍ من وصولهم إلى الرصيف البحري استوقَّف خُطاهم دَوِيُّ أحد المدافع، وتلاه على الفور ظهور السفينة «كونسترنيشن» تميِّزها من بين غيرها المصابيحُ الكهربائية؛ كانت حدود الصواري، والمدخنةُ وهيكلُ السفينة مُحاطةً كلها بنجومٍ متوهجة.

صاحت سابينا، التي كان فتاها واقفًا إلى جوارها: «يا لَلروعة! يبدو أن صاروخًا عملاقًا، من صواريخ الألعاب النارية، كله بلونٍ واحدٍ، قد انطلق، وظلَّ مُعلَّقًا هناك مثل نجوم السماء.»

همست كاثرين لدورثي قائلةً: «إنه يُذكِّرني بكُرة فُشارٍ أفرطت في النُّضجِ.» وقد أثارت هذه العبارة في الفتاتَين ما يكفي من الطيش لكي تَنفجِرا في الضحك.

دوَّى صوتُ مدفعٍ من إحدى السفن الأمريكية، وعلى إثره بدت فرقة السفن البيضاء في وهج كوميض البرق. وفي هذه اللحظة أخذت جميعُ اليخوت والمراكب الأخرى في المياه تتباهى بنيران قذائفها، وأضاءَ الخليجُ الصغيرُ كله مثل بحيرةٍ في عالِم سحري.

قال القبطانُ كِمْت وهو يضحك ضحكةً خافتة: «والآن، راقبوا السفينة البريطانية. أظن أنها ستؤدي لنا عرضًا رائعًا بإحدى الرايات.» وبينما هو يتكلم ظهرَت، ممتدةً من منصة المراقبة على متن السفينة إلى صاريها، رقعةٌ كبيرةٌ من القماش زرقاءُ اللون، عليها أربع نجماتٍ ضخام تُشكل مُجتمعةً أركان متوازي أضلاع والْتمَعَت في وسطها مرساةٌ كبيرةٌ بيضاء. ضجَّ طاقمُ السفينة «كونسترنيشن» بالهُتافات، وعزفت الفرقةُ الموسيقية التي على متنها النشيدَ القومي الأمريكي؛ نشيد «الراية المرصَّعة بالنجوم.»

قال القبطانُ كِمْت موضحًا: «هذه هي راية وزير البحرية الأمريكية، والذي سيحضر معنا الليلة. لقد ظل الزوَّار شديدي التكتُّم على هذه المعلومة، لكنَّ رجالنا عرفوا السرَّ منذ أسبوعٍ تقريبًا، وسأُصاب بخيبة أملٍ كبيرةٍ إذا لم يُبادلُوهم بالمثل.»

عندما توقفت الفرقة الموسيقية التي على متن السفينة «كونسترنيشن» عن العزف، انطفأت جميع أضواء فرقة السفن الأمريكية، ثم ظهرت على سفينة القيادة رايةٌ تمتد من الصاري إلى الصاري يظهر العَلَمُ البريطانيُّ في أحد أركانها، ويَقسم صليبٌ أحمرُ كبيرٌ بقيتَها إلى ثلاثةِ مربعاتٍ بيضاء. بعدما لمع هذا الضوء شرعت الفرقة الموسيقية الأمريكية في عزف النشيد الوطني البريطاني، ثم ظهرت الأضواءُ التي تؤطر السفينة من جديد.

قال القبطان: «هذه هي راية السفينة الحربية البريطانية.»

أسرع المركب «ويب-بور-ويل» بنقل الجَمْع وآخرين معهم عبر المياه المُتلألئةِ إلى قاعدة الدَّرَج الفخم الذي كان قد أُنشئ خصيصًا لنقل النخبة من الماء إلى ظهر السفينة. كان اتساعه يزيد على ضعف اتساع سُلَّم السفينة العاديِّ، وكان مفروشًا بالسجاد من أعلاه إلى أسفله، وكان يقف على كل درجةٍ من درجاته بحَّارٌ من رجال الأسطول، كانوا ثابِتِين جميعًا وكأنهم تماثيل برونزية، وكان صف الرجال يُشكِّل، إذا صحَّ التعبير، درابزينًا حيًّا صاعدًا إلى السماء المُظلمة.

تقدَّم الجمعَ القبطانُ كِمْت وزوجتُه، وتلاهما سابينا وفتاها، وجاءت الفتاتان في أعقابهم.

همست كاثرين في أذن صديقتها: «أليس أولئك الرجال رائعين؟ ليتَ كلُّ واحد منهم كان يحمل مِشعلًا عتيقَ الطراز. إنني مُغرمةٌ بالبحَّارة.»

قالت دورثي: «وأنا أيضًا»، ثم انتبهت إلى سلوكها، وضحكت قليلًا.

قالت كاثرين متنهدةً: «أظن أننا جميعًا نُحبُّ البحَّارة.»

على متن السفينة «كونسترنيشن» كان قبطانها بدينًا يقف مُرتديًا بذلةً نظاميةً متألقةً، إلى جوار السيدة أنجيلا بيرفورد الموظَّفة بالسفارة البريطانية في واشنطن، كي يستقبل ضيوف الطرَّادة. خلفَ هذين الاثنين احتشدت مجموعةٌ من الضباط والسيدات اللاتي يَرتدين ثيابًا في غاية الأناقة، وكانوا يتحدَّثون بمرحٍ بعضهم مع بعض. عندما نظرت دورثي إلى السيدة أنجيلا التي تشبه الأميرات بدا وكأنها تعرفها؛ وكأنَّما كان على متن السفينة امرأةٌ خارجةٌ من قلب قصةٍ رومانسيةٍ إنجليزية. لقد جعلَت قامتُها الطويلةُ المنتصبةُ في فخرٍ القبطانَ الضخمَ يبدو أقصر مما هو عليه في الحقيقة. أما الخُيَلاء الفطريةُ التي تُميِّز تلك الملامح الكلاسيكية فقد لطَّفتها إلى حدٍّ ما ابتسامةٌ مؤقتة. نظر القبطان كِمْت وراءه ثم قال بصوتٍ خفيض:

«والآن أيتها الفتيات، فلتُحاولْن أن تبدُون في أحسن مظهَر. سوف تَستقبل السيدة البريطانية الفتيات الأمريكيات.»

قالت كاثرين: «أعرف أنني سأضحك، وأخشى أنني ربما أُقهقه»، لكنَّ أختها الكبرى رمقتها بنظرةٍ لا تقلُّ غطرسةً عن أيِّ نظرةٍ كان من الممكن لأيِّ سيدةٍ مثل السيدة أنجيلا أن ترمقها بها، فتلاشَت نية المرح تمامًا في تلك اللحظة؛ وهكذا مرَّ الاختبار بصورةٍ تقليديةٍ دون أن تضحك كاثرين أو تقهقه.

ذابت سابينا وفتاها في الحشد. كان القبطان كِمْت يومئ برأسه موزعًا التحايا بين معارفه الكثيرين، وأحسَّت كاثرين بدورثي وهي تتراجع وتلتصق بها قليلًا عندما شقَّ فتًى مجهولٌ طويلُ القامة طريقَه ببراعةٍ بين الناس، واتجه مباشرةً إلى القبطان، وأمسَكَه من يده بطريقةٍ تدل على صداقةٍ عميقةٍ للغاية.

«قبطان كِمْت، سُررتُ برؤيتك من جديد. اسمي دروموند؛ المُلازم دروموند، وقد شرفتُ بالتعرف إليك في تلك المأدُبة منذ أسبوعٍ أو أسبوعين.»

هتفَ القبطان بمودَّةٍ مساويةٍ لتلك التي حُيي بها: «بل أنا الذي شرفتُ بذلك يا سيدي، أنا الذي شرفتُ بذلك.» لم يكن القبطان في البداية يتذكَّر أيَّ شيءٍ عن الشاب، لكنه كان إلى حدٍّ ما سياسيًّا هاويًا، وكانت لديه كل مهارة السياسيِّين في مواجهة المجهول، وتحقيق أقصى استفادةٍ من أيِّ موقفٍ يَجد نفسه فيه.

فقال: «يا إلهي، نعم، يا حضرة المُلازم، أتذكَّر جيدًا جدًّا تلك الأغنية الرائعة التي ...»

قال المُلازمُ لاهثًا: «أليسَت ليلةً رائعة؟ أظن أننا جَديرُون بأن نُهنَّأ على حالة الجو هذه.»

كان لا يزال مُتشبِّثًا بيد القبطان، وصافحها من جديدٍ بمودَّةٍ كبيرةٍ جدًّا حتى إنَّ القبطانَ قال لنفسه:

«لا بد أنني تركت أثرًا طيبًا في نفس هذا الشاب»، ثم رفعَ صوته وردَّ عليه بمرحٍ قائلًا:

«يا إلهي، إنَّ الجو مُعتدلٌ عندنا دائمًا في هذا الوقت من السنة. فحكومة الولايات المتحدة تتحكَّم بالطقس. ألم تكن تعلم هذا؟ بلى، إنَّ مكتب الطقس لدينا يُعدُّ الأفضل في العالم.»

ضحكَ المُلازمُ بانشراحٍ، برغم أن نغمةً خاليةً من الإحساس قد تخلَّلت ضحكته؛ إذ كان قد وصل إلى نهاية حديثه، وأدركَ أنه لم يَعُد بوسعِه أن يُكرِّر المصافحة مرةً ثالثة، وهو مع هذا لا يدرِي كيف يُواصِل الحديث. حينها تدخَّلَت لَباقةُ السياسيِّ وأنقذَتِ المُلازمَ بالطريقة التي كان يأملها تمامًا.

«حضرة المُلازم دروموند، اسمح لي أن أُعرفك بزوجتي.»

انحنت السيدةُ مُحيِّيةً إياه.

«وابنتي كاثرين، والآنسةِ إمهيرست، صديقة العائلة؛ المُلازم دروموند، قبطان السفينة «كونسترنيشن».»

قال المُلازم، وكأنما خطرت الفكرة لتوِّها بباله: «أتساءل إنْ كانت الفتاتان تَرغبان في الذَّهاب إلى مكانٍ تَستطيعان فيه أن تُلقيا نظرةً شاملةً على الزينة. ربما ... ربما لا أكون أفضل مُرشدٍ، لكنَّني أعرف السفينة معرفةً جيدةً إلى حدٍّ ما.»

قال القبطان كِمْت: «لا تسألني. اسأل الفتاتَين. إنَّ كلَّ ما حصلتُ عليه في الحياة قد جاءني لأنني كنتُ أطلبُه، وإذا لم أحصل عليه من أول مرة، كنتُ أَطلُبُه من جديد.»

صاحت كاثرين بحماس: «نُريد أن نرى الزينة بالطبع»، فانحنى المُلازم محيِّيًا القبطان كِمْت وزوجته، وقاد الفتاتَين عبر ظهر السفينة، إلى أن وصل إلى مكانٍ مُرتفعٍ بعيدٍ عمَّن قد يَقصِد التنزُّه، وفي ركنٍ مُنعزلٍ منه إلى حدٍّ ما، لكنه ركنٌ يُطلُّ من زاويةٍ رائعةٍ على الحشد، وُضِعت أريكةٌ لا تتَّسع إلا لشخصَين قد أُخذت من قمرة أحد الأشخاص على متن السفينة. كان أحد البحَّارة يقف حارسًا، لكنه اختفى من المكان بعد إيماءةٍ من المُلازم.

صاحت كاثرين: «يا للعجب! مقاعد محجوزة، أليس هذا مُدهشًا؟ كم هي مُختلفةٌ عن كراسي المسرح، حيث يمنحك الحق في الجلوس في مكانِك أن تَحمل قطعةً ملوَّنةً من الورق المقوَّى. هنا يَحرسُك رجلٌ يَحمل سيفًا. إنه شيءٌ يعطي المرءَ فكرةً عن أهوال الحرب، أليس كذلك يا دورثي؟»

ضحكَ المُلازم بانشراحٍ شديدٍ وكأنما لم يكن هو نفسه يتمنَّى أن يكون في المكان الذي تحتله المرحةُ كاثرين في تلك اللحظة. لقد كان يَقدح زناد فكره ليحل المُعضلة المتمثِّلة في القول المأثور: «الاثنان رُفقة، أما الثلاثة فلا.» جلسَت البنتان معًا على الأريكة وراحتا تُحدِّقان في الحشد النابض بالحياة، الذي تكتنفُه الأضواءُ في براعة. كان الناسُ لا يزالون يتدفَّقون فوق السلالم المؤدية إلى السفن، وأخذت أسطُح السفن تتكدَّس سريعًا بكوكبةٍ مُتعدِّدة الألوان ودائمة التغيُّر من الناس. كان طنين المحادثة يكاد أن يَحجب صوت المقطوعات الموسيقية الشهيرة المختارة التي تعزفها الفرقة الموسيقية البارعة على متن الطرَّادة. فجأةً انقطع صوتُ إحدى المقطوعات المختارة. لقد توقَّف صوتُ الآلات الموسيقية للحظةٍ، ثم بدءوا يعزفون اللحن العسكري الوطني الأمريكي المسمَّى «ذا ستارز آند سترايبز فور إيفر» (النجوم والأشرطة إلى الأبد).

صاحت كاثرين: «مُدهش. أتستطيع فرقتكم الموسيقية أن تعزف لحن المؤلف الموسيقي «سوسا»؟»

قال المُلازم مُتباهيًا: «لا بد أن أقول إننا نستطيع. ونحن نستطيع عزف موسيقاه، إلى حدٍّ ما بحيث نُعطِي موسيقيِّي السيد سوسا أنفسَهم بعضَ النصائح النافعة.»

انحدرت كاثرين إلى اللغة العامية وردَّت قائلةً: «تَغلبون الفرقة الموسيقية، فعلًا؟ فرقة سوسا الموسيقية؟»

قال المُلازم مُبتسمًا: «بالتأكيد. والآن أيتها الآنستان، هل تسمحان لي بالانصراف بضع دقائق؟ إن هذه المقطوعة الموسيقية المختارة تعني أنَّ وزير بحريتكم الآن في المياه، ولا بد أن أكون موجودًا في مكاني مع بقية الضُبَّاط لاستقباله هو ومساعديه بكلِّ ما يَليق بهم من مراسم الاستقبال. أرجوكما، عِداني ألَّا تُغادرا هذا المكان حتى أعود؛ أتوسَّل إليكما.»

قالت كاثرين ضاحكةً: «يَجدُر بك أن تَجعل بحَّار الأسطول يَحرُسنا.»

«يا إلهي! فكرةٌ رائعةٌ تمامًا.»

رأت دورثي ملامحَ المرح تُغادِر وجهه تمامًا، مُفسِحةً المجالَ لملامحَ صارمةٍ مُسيطِرةٍ كي تحل محلها. فبالرغم من أنه كان مُنهمكًا في شيءٍ من المزاح، يجب ألَّا يرى المرءوسُ أيَّ أثرٍ للهو على وجهه. لقد قال كلمةً صارمةً لأحد بحَّارة الأسطول، فقفز ذلك الأخيرُ برشاقةٍ إلى طرَف الأريكة، ورفعَ يده مُؤديًا التحية، ووقفَ مُتيبِّسًا كإنسانٍ آليٍّ. بعد ذلك رأت الفتاتان قامةَ المُلازم الطويلةَ تشق طريقها إلى المكان الذي يقف فيه القائد.

«أظن يا دورثي أننا سجينتان. تُرى ماذا سيفعل هذا الفتى لو حاوَلنا الفرار. ألا يبدو المُلازمُ رائعًا؟»

قالت دورثي بصوتٍ خفيض: «يبدو شخصًا لطيفًا للغاية.»

«لطيف! يا إلهي، إنه مُدهش. صدِّقيني يا دورثي، سوف أرقص الرقصة الأولى معه. إنني أنا الأكبر سنًّا. إنه كبيرٌ بما يكفي لتَتقاسمه فتاتان صغيرتان مثلنا، ألا ترين هذا؟»

قالت دورثي: «لا أنوي أن أرقص.»

«هُراء، إنكِ لن تَجلسي هنا طوال الليل من دون أحدٍ تُكلمينه. سوف أطلب من المُلازم أن يُحضر لكِ أحد الرجال. سوف يأخذ اثنين أو ثلاثة من بحَّارة الأسطول ويَقبض على أيِّ أحدٍ تريدينه.»

قالت دورثي بنبرةٍ صارمةٍ تكاد توحي بأن الأخت الكبرى هي التي تتحدَّث: «كاثرين، إذا قلتِ أيَّ شيءٍ مثل هذا فسأعود إلى المنزل.»

«لا يمكنكِ أن تعودي. سوف أستغيثُ بالحارس. سوف أحبسكِ إذا لم تتأدَّبي.»

«ينبغي لكِ أنتِ أن تتأدبي. حقًّا يا كاثرين، يجب أن تَنتبهي لما تقولين، وإلا فستُحزنينني للغاية.»

أمسكَتها كاثرين من مِرفقها، وضغطت عليه ضغطةً سريعةً رقيقة.

«لا تَخافي يا فتاة الاحتشام، لن أُحزنكِ مهما حصل. لكنكِ ستَرقُصين بالتأكيد، أليس كذلك؟»

هزَّت دورثي رأسها.

«مرةً أخرى. ليس الليلة. يوجد الكثيرُ من الناس هنا. لن أستمتع بالأمر، وثمة ... ثمة أسبابٌ أخرى. إنَّ هذا كله جديدٌ وغريبٌ عليَّ للغاية؛ هؤلاء الرجال البارزون وأولئك النساء الجميلات، والأضواء، والموسيقى، وكل شيء — وكأنني دخلتُ عالَمًا آخر؛ شيءٌ قرأتُ عنه من قبل، أو ربما حلمتُ به، ولم أتوقَّع قط أن أراه رؤيا العين.»

«يا إلهي، أيتها الفتاة الغالية، إذن، لن أرقص أنا أيضًا.»

«يا إلهي، بل ستَرقُصين يا كاثرين، يجب أن ترقصي.»

«لا يمكن أن أكون شديدة الأنانية لدرجة أن أتركَكِ هنا وحيدةً تمامًا.»

«ليس في هذا أيُّ أنانية يا كاثرين. سوف أستمتع بوقتي تمامًا هنا. إنني في الواقع لا أرغب في الحديث إلى أي أحد، وإنما أريد فقط أن أستمتع بحُلمي، رغم خوفٍ صغيرٍ فقط في أعماق قلبي من أنني قد أستيقظ فجأةً، وأنا أفرك عينَيَّ، لأجد نفسي في غرفة الحياكة.»

قرصتها كاثرين.

وقالت: «والآن، هل أنتِ مستيقظة؟»

تبسمَت دورثي وهي لا تزال تحلم.

صاحت كاثرين بحيويةٍ مُتجدِّدة: «انظري! لقد أحضروا الوزير سالمًا على متن المركب ذي الأشرعة الرباعية الأضلاع، ويبدو أنهم يستعدون للاحتفال. ها هو ذا مُلازمي العزيز عائد؛ طويل القامة حتى وهو بين طِوال القامة من الرجال. انظري إليه. إنه في عجلةٍ كبيرةٍ من أمره، لكنه في غاية الأدب، وحريص على ألا يَرتطم بأي أحد. والآن يا دورثي، لا تخافي. سأكون نموذجًا مثاليًّا للحياء. سوف تَفخَرين بي عندما تكتشفين ما يتملَّكُني من الخجلِ عند الحديث باحتشام. أظن أن عليَّ أن أُظهر الشوق إليه قليلًا. لا أعرفُ في الواقع كيف أَفعل هذا، لكن في الروايات الإنجليزية القديمة كانت الفتيات يُظهِرن الشوق دائمًا، وربما يتوقَّع الرجلُ الإنجليزي أن يرى قليلًا من الشوق في فتاته. تُرى هل أسْرته من النبلاء. إذا لم يكن كذلك، فلا أعتقد أني سأُعبِّر عن شوقي كثيرًا. ومع ذلك، أيُّ جدوى

لخُيلاءِ الأُبهةِ الفارغةِ والفخر بالنَّسب؛ أليس هكذا تقول القصيدة؟ إنني أحبُّ مُلازمنا الصغير الغالي لشخصه فقط، وأعتقد أنني سأحظى برقصةٍ واحدةٍ فقط معه، على الأقل.»

استولى دروموند على كرسيٍّ خفيفٍ من مكانٍ ما، ووضعه بحيث يُشكِّل مع الأريكة زاوية قائمة، كي يتمكَّن من رؤية الفتاتَين دون أن يحجب عنهما الرؤية. اختفى البحَّار المُكلَّف بحراسة الفتاتَين من جديد، وبدأت الفرقة الموسيقية في تلك اللحظة تعزف موسيقى الرقص.

صاحَ دروموند في ابتهاج: «حسنٌ، لقد رتَّبتُ كلَّ شيء. لقد استقبلتُ وزير البحرية، سوف يرقص قبطانُنا مع زوجتِه، وسيرقص الوزير مع السيدة أنجيلا. وها هم أولاء يبدءون!»

ظلَّ الشباب يشاهدون الرقصَ دقائقَ معدودة، ثم قال المُلازم:

«أيتها السيدتان، إنني أشعر بخيبة الرجاء لأنَّكما لم تُثنيا على عرض الأضواء الكهربائية الذي أقمناه.»

قالت دورثي بنبرةٍ مؤكدةٍ، وكانت هذه أول مرةٍ تُكلِّم فيها المُلازمَ في تلك الليلة: «أنا واثقةٌ أنه في غاية الإتقان، حقًّا، وأنه بارعٌ لأبعد الحدود»، لكن كاثرين، التي كانت قدمُها الصغيرة تنقر سطحَ السفينة على إيقاع موسيقى الرقص، رفعَت رأسها فجأةً، وقالت — بلا مبالاةٍ — إنَّ العَرض كلَّه جيدٌ للغاية بالنظر إلى كونه محاولةً بريطانية في مجال الإضاءة، لكنها ترجو الفتى أن يتذكَّر أن أمريكا هي مَنشأُ علم الكهرباء.

وقالت: «أين كنتم ستُصبحون لولا إديسون؟»

قال المُلازم بمرح: «أظن أننا كنا سنُصبح حيث كان موسى عندما انطفأت الشمعة؛ في الظلام.»

قالت دورثي: «ربما كنتم ستَمتلكُون مشاعل. لقد نسيَتْ صديقتي أنها كانت تتمنَّى أن يحمل البحَّارةُ مشاعلَ فوق ذلك الدَّرَج المُعلق بجانب السفينة.»

«كنتُ أقصد مَصابيح كهربائية؛ مصابيح إديسون بالتأكيد.»

لم تكن كاثرين راضية عمَّا لاحَ من بوادر. فقد كانت مولعةً بالرقص إلى أبعد حدٍّ، في حين زرع هذا الفتى اللطيف نفسه هنا على كرسيٍّ خفيفٍ ليتحدث عن الكهرباء.

«آنسة كِمْت، يؤسفني أن عرضنا قد خيَّبَ أملَك. إن ازدراءك للهندسة البريطانية في مجال الكهرباء لا ينال مِنَّا؛ لأن هذا العَرض قد أنجزه حِرفيٌّ أجنبي، وآملُ أن أُعرفكِ إليه.»

قالت كاثرين، بأسلوبٍ شبيهٍ إلى حدٍّ ما بالأسلوب المعتاد لأختها الكبرى: «يا إلهي، حقًّا! أنا لا أرقص مع الحِرفيين، شكرًا لك.»

أكَّدت كاثرين على كلمةِ «أرقص»، لكنَّ المُلازمَ لمْ يفطِن لتلميحها؛ ولم يَزِد على أن ضحِك من جديدٍ بطريقةٍ دمثةٍ إلى حدٍّ يدعو إلى السخط، وقال:

«سوف تُشارك السيدة أنجيلا جاك لامونت في رقصة الفالس القادمة.»

قالت كاثرين بغطرسة: «يا إلهي، بإمكان السيدة أنجيلا أن ترقص مع أي حَدَّادٍ تُريده، لكنني لا أفعل هذا. إنني أفترض أن جاك لامونت هو فنيُّ الكهرباء لديكم.»

«نعم، هو كذلك، وأنا أعتقد يقينًا أنه أفضل رجلٍ على متن هذه السفينة. من المحتمَل جدًّا أن تكوني قد قرأتِ عن أخته. إنها تَكبُر جاك بسنة واحدة، وهي جميلةٌ جدًّا، ومثقفة، وفيها كلُّ ما ينبغي لسيدةٍ جليلةٍ أن تتحلى به من الصفات، لكنها وهبَت الفلاحين ممتلكاتها الضخمة، وهي تعمل معهم في الحقول؛ تعيش مثلما يعيشون، وتأكل مما يأكلون. لقد كُتِبَ مقالٌ عنها في إحدى المجلات النقدية الفرنسية منذ مدةٍ ليست بالبعيدة. إنها تُدعى الأميرة نتاليا.»

ردَّدت كاثرين الاسم، مُلتفتةً بوجهها ناحية الفتى: «الأميرة نتاليا! كيف يُمكن أن تكون الأميرة نتاليا أختًا لجاك لامونت؟ هل تزوجَت أحد الأمراء المسنِّين، ولجأَت إلى الحقول من الاشمئزاز؟»

«يا إلهي، لا؛ إن جاك لامونت روسي. إنه يُدعى الأمير إيفان ليرمونتوف عندما يكون في وطنه، لكننا ندعوه جاك لامونت على سبيل الاختصار. سوف يُساعدني في المهمة الروسية التي كلمتكِ عنها.»

سألت كاثرين: «أيُّ مهمة روسية؟ لا أذكر كلامك عنها.»

شحبَ لونُ دورثي، وابتعدت قليلًا عن صديقتها، بينما أخذت عيناها تتسعان لترسلا تحذيرًا سريعًا للمُلازم، الذي تذكَّر، بعد فوات الأوان، أن هذه المحادثة بشأن روسيا قد جرت أثناء سيرهما عندما خرجَا من البنك. سعلَ الفتى قليلًا خلف يده المنبسطة، واحمرَّ وجهه خجلًا، وقال متلعثمًا:

«يا إلهي، لقد ظننتُ أني أخبرتكما. ألم أُحدثكما عن الأمير أثناء قدومنا إلى هنا؟»

قالت كاثرين: «لم تتحدَّث عن هذا على ما أذكر. هل هو أميرٌ أصيلٌ حقيقي؟ أميرٌ مُنحدرٌ من سلالة ملكية مائة بالمائة، وبكلِّ ما في الكلمة من معنًى؟»

«لا أعرفُ شيئًا عن مسألة المَلكية، لكنه أميرٌ ذو منزلةٍ جيدةٍ في بلده، وهو كذلك حدَّادٌ ممتاز.» ضحكَ المُلازم ضحكةً خافتةً صغيرةً، ثم قال: «لقد تأثَّر هو وأخته تأثرًا

بالغًا بتعاليم تولستوي. إن جاك، في ظني، هو المُخترع الأروع على وجه الأرض حاليًّا، بصرف النظر عن إديسون. يا إلهي، إنه الآن مُنهمِكٌ في مشروعٍ يستطيع من خلاله أن يجعل المنازل تطفو من فوق الجبال هنا إلى مدينة نيويورك. يجعلها تطفو؛ بل ربما ينقلُها عبر خطٍّ للنقل هو المصطلح الأنسب. تعرفين أنهم يملكون خطوط أنابيب لنقل النفط. حسنٌ؛ إن جاك لديه محلولٌ يُذيب الحجارة كما يَذُوب السُّكرُ الأبيض في الشاي، وهو يعتقد أنه يستطيع أن ينقل السائل من المحاجر إلى مكان إنشاء المبنى. يبدو أنه بعد ذلك يصب هذا السائل في قوالب، وبهذا تَحصُلين على الحجارة من جديد. أنا شخصيًّا لا أفهم العملية، لكن جاك أخبرني أنها رخيصةٌ بطريقة عجيبة، وفعَّالةٌ بطريقة عجيبة كذلك. لقد استلهم الفكرة من الطبيعة ذات مرةٍ عندما كنتُ أنا وهو نقضي إجازتنا في ديترويت.»

«مدينة ديترويت، بولاية ميشيجان؟»

«نهر ديترويت.»

«حسنٌ، ذلك يتدفق بين ولاية ميشيجان وكندا.»

«لا، لا، هذا في فرنسا. أعتقد أن الاسم الحقيقي للنهر هو نهر تارن. حسنٌ، يوجد هناك ممر ضيِّقٌ يُسمى ديترويت؛ ذلك المضيق. إنه مكانٌ رائع؛ صَدعٌ هائل. تدخلينه في قارب، وجميع روافد النهر تصبُّ في المجرى الأساسي كدَفقاتٍ تنطلق من فوَّهة خرطوم مياه. يقولون إنَّ سببَ هذا هو المطر المترشِّح من خلال أوراق الأشجار الميتة الساقطة على سطح الأرض في الأماكن العالية البعيدة؛ إذ يتشبَّع الماءُ بغاز ثاني أكسيد الكربون، ومن ثمَّ يُذيب حجرَ الجير حتى يصل إلى الجرانيت، ويُشكِّل الجرانيتُ مهدَ هذه الأنهار الواقعة تحت الأرض. لقد بدا لي الأمر كلُّه في غاية الروعة، لكنَّه أثار النزعة العلمية في جاك، وهو لا يزال يواصل التجارب العلمية منذ ذلك الحين. إنه يقول إنه سيتمكَّن من بناء مدينة باستخدام خرطوم مياه في العام القادم.»

«أين يعيش؟»

«يعيش في الطرَّادة في الوقت الحالي فقط. لقد ساعدتُ في جعله يُوقِّع عقد العمل للسفينة باسم جون لامونت، وقد نجح من دون شك. لا عجبَ في هذا؛ فهو يحمل شهاداتٍ علميةً من جميع أنواع الجامعات الألمانية، ومن جامعة أكسفورد، ومن معهدٍ أو اثنين في الولايات المتحدة. أما في وطنه فهو يعيش في مدينة سانت بطرسبرج.»

«هل لديه قصرٌ هناك؟»

ضحكَ دروموند، وقال:

«لديه ورشة حِدادة، وفوقها غرفتان، وسوف أُقيم معه بضعة أشهر فورَ أن أحصل على إجازتي. عندما تصل الطرَّادة إلى إنجلترا ندفع رواتب الموظفين، وأتوقَّع ألا يكون لديَّ ما أقوم به لمدة ستة أشهر؛ ولذا سأذهب أنا وجاك إلى سانت بطرسبرج.»

«لماذا تسمونه لامونت؟ هل هو اسمٌ مأخوذٌ من اسمه الحقيقي ذلك الذي ينتهي بالمقطع «أوف»؟»

«تقصدين ليرمونتوف؟ نعم. لقد أسَّس القيصر ديميتريوس، في وقتٍ ما في بداية القرن السابع عشر، كتيبةَ حرسٍ مَلَكيٍّ اسكتلندية، تمامًا كما فعل لويس الحادي عشر في فرنسا قبل ذلك بمائتَي عام، وهناك أتى من اسكتلندا آل لامونت، وآل كارميشيل، وآل بوكانان، وآخرون، وقد مُنِحوا ألقابًا ومُمتلكات. الأمير إيفان ليرمونتوف يعود نسبُه إلى لامونت الأصلي، الذي كان أحد ضُبَّاط كتيبة الحرس الملَكي الاسكتلندية في روسيا.»

«إذن فهو في الحقيقة اسكتلندي، أليس كذلك؟»

«هذا ما أقوله له عندما يُزعجني؛ لأنني أنا شخصيًّا اسكتلندي. يا إلهي، لقد انتهَت رقصة الفالس. هل تأذنان لي في دقيقة أُحضِرُ فيها سمو الأمير؟»

أحنَت دورثي رأسها، وابتسمَت كاثرين ابتسامةً جميلةً عبَّرت بها عن إعطائه إذنها.

صاحت كاثرين، عندما غابَ المُلازمُ عن مدى صوتها: «يا إلهي، دورثي، فكِّري في الأمر! أميرٌ حقيقي، وأنا لم يَرقَ طموحي قطُّ إلى أعلى من كونتٍ تافه، أو أحد العامة من هذا النوع. إنه لي يا دورثي؛ أنا من عثرتُ عليه أولًا.»

«كنتُ أظن أنكِ استوليتِ على المُلازم، أليس كذلك؟»

«ما قيمة المُلازِمين عندي؟ أنا الشريفة بنت القبطان (المتقاعد) لا يُمكن أن أنزل إلى مستوَى مجرَّدِ مُلازم.»

«لن يكون عليكِ أن تنزلي كثيرًا، يا كيت، مع رجلٍ في مثل طول السيد دروموند.»

«لقد بدأتِ تلاحظين، أليس كذلك يا دوت؟ لكنَّني أهبكِ المُلازم بنفسٍ راضية؛ لأنَّني سأرقصُ مع الأمير، حتى ولو اضطررتُ إلى طلب الرقص معه بنفسي.

ستَمشي الهوينى بعيدًا، كما
يقول الجميع؛ كما يجزمون؛
مع السيد الجلاد العظيمِ؛
بذا يقطعون، ولا يخرصون.

يا إلهي، ها هما ذان قادمان. أليس رائعًا إلى حَدِّ الكمال؟ انظري إلى لحيتِه! إنَّ لونها يشبه تمامًا لون قطعةٍ ذهبيةٍ قشيبةٍ من فئة العشرين دولارًا. انظري إلى هذا الوشاح العريض الذي يَضعه مائلًا على جسمه. تُرى ما معناه. وتفرَّسي في تلك الأوسمة العسكرية المتلألئة على صدره. يا إلهي، أليس رائعًا؟»

«بلى، بالنظر إلى كونه حدَّادًا. تُرى هل صنعَ تلك النجوم على سندانه؟ إنه ليس فارعَ الطول مثل المُلازم دروموند.»

«دورثي، لن أسمح لكِ بالحطِّ من قدر أميري. كيف تتصرَّفين بكل هذه السماجة؟ لقد اعتقدتُ من البداية أن المُلازم طويلٌ للغاية. لو أنَّ الأمير يتوقَّع منِّي أن أقول له «سموك» فسيخيب أملُه.»

«أنتِ مُحقةٌ تمامًا يا كيت. سوف يَليق اللقب بالمُلازم أكثر.»

«دورثي، أعتقد أنكِ تشعرين بالغَيرة.»

قالت دورثي وهي تهز رأسها وتضحك: «يا إلهي، لا، لا أشعر بالغيرة»، ثم أضافت: «صه!» ذلك أنَّ كاثرين كانت على وشك أن تتحدث من جديد.

في اللحظة التالية كان الشابان واقفَين أمامهما، وبعدما تعارفوا برزانةٍ بعضهم إلى بعض، بادر الأمير إلى التوسُّل إلى كاثرين كي تتعطَّف عليه بالرقص معه، وقد سرَّ الفتاةَ أن تتلطَّف بالموافقة على طلبه هذا، دون أن تُظهِر، برغم ذلك، استعجالًا كبيرًا في موافقتها على طلبه، وانطلقا يسيران معًا.

الفصل الرابع

بمفردهما أخيرًا

قال المُلازم دروموند: «شخصٌ ما أخذَ الكرسيَّ القابل للطي. هل تَسمحين لي بالجلوس هنا؟» وقد تكرَّمَت الفتاة بإعطائه الإذن الذي طلبه.

عندما جلسَ المُلازم نظرَ حوله سريعًا، ثم مدَّ يده دون تفكير.

وقال: «آنسة إمهيرست، كيف حالُك؟»

ردَّت الفتاةُ مُبتسمةً: «بخير حال، شكرًا لك»، وبعد تردُّدٍ لم يدُم أكثرَ من نصفِ لحظةٍ وضعت يدها في يده.

«لا شك بأنَّكِ تستطيعين الرقص يا آنسة إمهيرست، أليس كذلك؟»

«بلى، لكن ليس الليلة. لستُ بأكثر من مُتفرجٍ في فيينا في هذا الحفل. يجب ألا تَسمح للكياسة بإبعادك عن الأرض، أو، ربما يجدر بي أن أقول عن سطح السفينة. إنني لا أمانع ألبتَّة في أن أبقى وحدي.»

«حسنًا، يا آنسة إمهيرست، هذا ليس تلميحًا، أليس كذلك؟ قولي لي إنني لم أُضجركِ بصحبتي.»

«يا إلهي، لا، لكنَّني لا أُريدُك أن تشعر أنك قد أصبحتَ مُلزمًا، لمجرَّد أن التقينا مصادفةً منذ بضعة أيام، بأن تُضيِّع ليلتك في الامتناع عن الرقص.»

«في الواقع يا آنسة إمهيرست، مع أنني أُحب للغاية أن أنالَ شرفَ الرقص معكِ، فلا توجد أيُّ فتاةٍ أخرى هنا أرغب في طلب الرقص معها. لقد خانتْني شجاعتي مرةً أو مرتَين هذه الليلة تحت المراقبة اللصيقة التي يَفرضها عليَّ قائدي، وأنا أحاول بعضَ الشيء منذ ذلك الحين أن أبتعد عن عينيه. أشعر أنه اكتشف فيَّ شيئًا جديدًا يَستهجنُه منِّي؛ ولذا قررتُ قرارًا حاسمًا ألَّا أرقص، إلا إذا وافقتِ على الرقص معي؛ ففي هذه الحالة سأكون مُستعدًّا تمامًا لمواجهة نظراته الطافحة بالتأنيب.»

«هل اقترفتَ أيَّ خطأٍ مؤخرًا؟»

«الربُّ وحده يعلم! إنني أحاول ألا أتعمَّد الإزعاج، وقد بذلتُ جهودًا إضافيةً بالفعل لكي أكون أكثر صلاحًا، لكن يبدو أنها جميعًا بلا فائدة. إنني أحاول أن أتجوَّل على متن السفينة في حالةٍ من التواضُع والهدوء غيرَ لافتِ الأنظارَ إليَّ، لكن هذا صعبٌ بعضَ الشيء على شخصٍ في مثل حجمي. لا أعتقدُ أن بإمكان أيِّ رجل أن يَنجح في الانحناء ما لم تكن قامتُه أقل من ست أقدام.»

ضحكت دورثي في اطمئنانٍ وهدوء. لقد أدهشَها أنها تشعر بالراحة معه، وبالسعادة أيضًا. لقد كان بينهما سرٌّ مشترك، وكان هذا في حدِّ ذاته رابطةً غير ملموسةٍ تربطها به، وهي التي لم تكن لها صلةٌ مع أي أحدٍ آخر. لقد أحبَّتْه؛ كانت تُحبُّه منذ البداية؛ وكانت بهجتُه غيرُ الخافيةِ في حضورها مُرضيةً لفتاةٍ مثلها لم يَسبِق لها أن وجدَت مَن يُقدِّم لها المجاملات اللطيفة التي تُقدم للفتيات في الحياة.

«أهي المهمَّة الروسية مرةً أخرى؟ إنكَ لا تبدو مهمومًا كثيرًا بها.»

قال دروموند متلعثمًا في ارتباكٍ واضح: «يا إلهي، هذا ... هذا ...» ثم قال فجأةً دون روية: «لأنكِ ... لأنني جالسٌ هنا معك. فرغم أنني لم أُقابلكِ سوى مرةٍ واحدة من قبل، يبدو بطريقةٍ ما وكأنني كنتُ أعرفكِ دومًا، وأما قلقي الصغير الذي أخبرتُكِ عنه فقد تلاشَى في حضورك. أرجو ألا تظنِّيني وقحًا بسببِ ما سأقوله، لكنني الليلة حقًّا، عندما رأيتُكِ عند مُقدَّم سُلَّم السفينة، لم أتمكَّن من إمساك نفسي عن التوجُّه مباشرةً إليكِ والترحيب بكِ. أخشى أنني أفسدتُ الأمر إلى حدٍّ ما مع القبطان كِمْت. لقد كان ألطف كثيرًا من أن يُظهِرَ أيَّ اندهاشٍ من مُبادرتي إيَّاه بالكلام والتي كانت صاخبةً نوعًا ما، والحق أنني لم أكن أتذكَّرُه مطلقًا، لكني رأيتُكِ قادمةً في كنفه، فجازفتُ بذلك. بدا لحسنِ الحظ أنه كان هو القبطان كِمْت رغم ذلك، لكن يُؤسفني أنني قد فاجأتُه، أو ربما اقتحمتُه، إذا جاز التعبير.»

قالت دورثي: «لقد رأيتُ أنَّ ترحيبك به كان لطيفًا للغاية. والحقُّ أنني لم أشكَّ حتى هذه اللحظة في أنك لم تتعرَّف عليه. إنه عجوزٌ لطيف، وأنا مُغرمةٌ به للغاية.»

قال المُلازم خافضًا صوته: «أرى أنني كدتُ أن أُخفق إخفاقًا فاضحًا عندما ذكرتُ تلك المهمة الروسية أمام صديقتكِ. لقد كنتُ أُفكِّر في ... في ... حسنٌ، لم أكن أُفكِّر في الآنسة كِمْت ...»

أسرعَت دورثي بالقول: «يا إلهي، إنها لم تُلاحظ أيَّ شيءٍ مُطلقًا. ثم إنك تخلصتَ من هذا أيضًا ببراعةٍ شديدة. لقد فكَّرتُ في إخبارها أنِّي قابلتُكَ من قبل عندما كنتُ أنا وهي في نيويورك، لكنَّ الفرصة لم تَسنح قط ... حسنٌ، لم أستطِع توضيح الأمر جيدًا، وفي الواقع، لم أُرِد أن أُفسِّر سلوكي الذي يتعذر تفسيره عندما كنتُ في البنك، فاعتمدتُ على الحظ. لو كنتَ رحَّبتَ بي قبلهم الليلة، فأظن ...» ثم ابتسمَت ورفعَت عينيها إليه وأكملت حديثها قائلة: «أظن أنه كان سيجدر بي أن أواجه الموقف بشيءٍ من صفاقة الوجه.»

«هل زرتُما مدينة نيويورك؟»

«نعم، لقد قضينا فيها أسبوعًا تقريبًا.»

«يا إلهي، هذا هو السببُ إذن.»

«سببُ ماذا؟»

«لقد ذرعتُ كلَّ شارعٍ وحارة وزُقاقٍ في مدينة بار هاربر جَيئةً وذهابًا، على أمل أن ألمحكِ. لقد أكثرتُ التردُّد على المدينة، وكنتِ أنتِ غائبة طوال هذا الوقت.»

«لا عجبَ أنْ يَعبس القُبطانُ في وجهك! هل كنتَ تُهمل عملَك؟»

«في الواقع، كنتُ أُضيف القليلَ فحسب إلى الوقت الذي يُسمَح لي فيه بالتنزه على الشاطئ. كنتُ أريد أن أعتذر عن كثرة كلامي عن نفسي أثناء عودتنا من البنك.»

«لقد كان ذلك مُمتعًا جدًّا، ولعلك تذكر أننا مشَينا أكثر من المسافة التي كنتُ نويتُ أن أمشيها.»

«هل كانت صديقاتُكِ ينتظرنكِ، أم غادرن؟»

«بل كُنَّ ينتظرنني.»

«لعلَّ ذلك لم يُزعجهنَّ.»

«يا إلهي، لا. لقد أخبرتُهن أنَّ ثمة ما أخَّرني. لقد توافَقَ أنه لم يكن من الضروري الخوضُ في التفاصيل؛ ولذا أُعفيتُ من مهمَّة التوضيح، وفضلًا عن ذلك، كانت لدينا أمورٌ مثيرةٌ أخرى لنناقشها. لقد استأثر موضوع حفل الطرَّادة بجانب كبير جدًّا من حديثنا، لدرجة أنه لم يكن ثمة حاجةٌ للحديث عن أي موضوعٍ آخر على مدى أيامٍ عديدةٍ مضت.»

«أظن أنكِ قد حضرتِ، من دون شكٍّ، احتفالاتٍ عديدةً أفخم من هذا. مع أننا حاولنا أن نقيم عرْضًا بالأضواء الكهربائية، ومع أنَّ لدينا فرقةً موسيقيةً على قدْرٍ جيد من الكفاءة، فإن أيَّ طرَّادة لم تُصمَّم على وجه الدقةِ من أجل الغرض الذي استُخدِمت فيه

تلك الطرَّادة الليلة. إن أمامنا العديد من العوائق لنتغلب عليها وهي عوائقُ لا تُجابِه قاطني المنازل الفخمة في نيويورك وبار هاربر.»

ظلَّت عينا الفتاة تنظران إلى سطح السفينة بضعَ لحظاتٍ قبل أن تُجيب، ثم نظرَت إلى جَمْع الراقصين، وقالت أخيرًا:

«أعتقد أن الحفل الراقص على متن السفينة «كونسترنيشن» يُضاهي في فخامته أي شيءٍ حضرتُه يومًا.»

«إنه للطفٌ منكِ أن تقولي هذا. إنَّ ثناءَ الكِرام لَهُو الثناءُ المُشرِّفُ حقًّا. والآن، يا آنسة إمهيرست، بما أنني اعترفتُ بتجولاتي غير المثمِرة في شوارع بار هاربر، ألا تمنحينني شرف زيارتكِ غدًا أو بعد غد؟»

كانت عيناها تُراقبان جموع الراقصين بنظراتٍ حالمة.

وقالت ببطءٍ، بينما تقوَّست شفتاها المُغريتان بابتسامةٍ خاطفة: «بما أنك كنتَ ودودًا للغاية هكذا مع القبطان كِمْت الليلة، فأعتقدُ أنه ربما يدعُوك لتُدخِّن معه سيجارًا، ومن الجائز أن أدخل أنا وكاثرين على القبطان مصادفةً وأنت معه، فنحن مُولعتان به للغاية.»

«كاثرين؟ يا إلهي، الفتاة التي كانت معكِ هنا اسمها كاثرين ... الآنسة كِمْت؟»

«نعم.»

«أنتِ مُقيمةٌ مع أسرة القبطان كِمْت إذن؟»

«نعم.»

«تُرى هل سيظنُّون أنني تخطيتُ آدابَ السلوك إذا أحضرتُ جاك لامونت معي؟»

قالت دورثي ضاحكةً: «الأمير؟ هل هو أميرٌ حقيقي؟»

«يا إلهي، نعم، من دون شك. ما كنتُ لِأجترِئ على تقديمه إليكما على أنه الأمير ليرمونتوف لو لم يكن، كما نقول في اسكتلندا، شخصًا أصيلًا؛ الشخص الحقيقي. حسنٌ إذن، سآتي أنا والأمير لزيارة القبطان كِمْت وإبداءِ احترامنا له بعد ظهر غدٍ.»

«هل قُلتَ إنَّ الأمير ذاهبٌ معكَ إلى روسيا؟»

«حسنًا، نعم. كما أخبرتُكما، إنني أنوي أن أعيشَ في هدوءٍ شديدٍ في مدينة سانت بطرسبرج، والأمير لديه ورشتُه وغرفتان فوقها في حيٍّ عُماليٍّ في المدينة. سوف أُقيم في إحدى الغرفتَين وسيقيم هو في الأخرى. إنَّ الأمير طاهٍ ماهر؛ ولذا لن نتضوَّرَ جوعًا، حتى ولو لم نأتِ بأي خادم.»

«هل تبرَّع الأميرُ بممتلكاته هو الآخر؟»

«لم يتبرع بها بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنه يتعامل بتسامحٍ كبيرٍ مع العُمَّال في أرضه، وهو يُنفق أموالًا طائلةً على تجاربه العِلمية وسفره لدرجةِ أنه كثيرًا ما يُعوِزه المالُ جدًّا، على الرغم من دخله الهائل. هل أنتِ مُعجبةٌ به؟»

«نعم. إنني بالطبع لم أرَه إلا دقيقةً واحدة. تُرى لماذا لم يَرجعا بعدُ؟ لقد انتهت عدةُ رقصاتٍ منذ غادرا.»

قال المُلازم وقد عاوده قليلٌ من تلعثُمه: «ربما، قد تكون صديقتُكِ مولعةً بالرقص بقدرِ ولع جاك به.»

«أما زلتَ عازمًا على الذَّهاب إلى روسيا؟»

«بالتأكيد. لا خطورةَ في ذلك ألبتَّة. قد لا أُحقِّق أيَّ شيءٍ، لكنني سأحاول. إن للأمير نفوذًا كبيرًا في مدينة سانت بطرسبرج، وسوف يُسخِّره في هدوءٍ لمصلحتي، لعلي أتمكَّن من زيارة الأشخاص المُهمِّين. سوف أبتهجُ عندما يتوقَّف القبطانُ عن إظهار الاستياء ...»

قاطع دروموند أحدُ زملائه من الضُبَّاط، حيث رفعَ قبعته، ورجاه أن يتحدث إليه.

«أعتقد يا دروموند أن القبطان كان يُريد أن يراك.»

«يا إلهي، هل قال هذا؟»

«لا، لكنَّني أعلم أنه ترك لك رسالةً في قمْرتك. هل أذهب لإحضارها؟»

«أرجو أن تَفعل يا تشيشام، إن لم يكن عندك مانع، ولم يكن في هذا كبيرُ مشقةٍ عليك.»

قال تشيشام: «لا مشقةَ إطلاقًا. هذا من دواعي سروري بالتأكيد.» ورفعَ قبعته من جديدٍ وانصرف.

«والآن، تُرى ما الذي نسيتُ أن أقومَ به؟»

تنهَّد دروموند تنهيدةً تناسبه.

وقال: «إنَّ إهمالًا واحدًا، في ظلِّ الظروف الحالية، من ذلك النوع الذي يمر دون أن يلاحظه أحدٌ مع أي رجلٍ آخر لَهُو علامةٌ على أنني لستُ أكثرَ من نذلٍ غيرِ نادمٍ على ما اقترفه. يستطيع أيُّ مُلازمٍ آخر أن يَسرق حصانًا بينما لا أقدِر أنا على النظر إلى السياج. لعلكِ تدركين الآن مدى أهمية السفر إلى روسيا وتلطيف حدَّة هذه المشكلة بالنسبة إليَّ.»

قالت الفتاة: «أعتقدُ أنكَ ربما تكون مُفرط الحساسية، وتنتبه إلى تصرفاتٍ فظَّة بينما لم يتعمَّد أحدٌ فعل شيء من هذا القبيل.»

عادَ تشيشام وسلَّم دروموند رسالة.

قال دروموند: «هل تأذنين لي في دقيقة؟» وعندما نظرَت إليه امتدحَ نفسه لقدرته على ملاحظة مِسحةِ قلَقٍ في عينيها. ثم فتحَ الرسالة.

وصاحَ: «يا إلهي!»

مالت دورثي إلى الأمام، ولم تستطِع أن تمنع نفسها من السؤال: «ما الأمر؟»

«لقد صدرت الأوامر برجوعي إلى الوطن. إنَّ قوات البحرية تأمرني بأخذ أول باخرةٍ متجهةٍ إلى إنجلترا.»

«هل في هذا خطورة؟»

ضحكَ دروموند بمرحٍ أتقنَ اصطناعه.

وقال: «يا إلهي، لا، ليس فيه خطورة؛ إنها فقط طريقتُهم في إدارة الأمور. كان من الممكن بسهولةٍ أن يسمحوا لي بالعودة إلى الوطن على متن سفينتي. إن الشيء الوحيد الذي أخشاه هو أنني سأضطر إلى ركوب القطار المتَّجه إلى نيويورك في وقتٍ مُبكرٍ من صباح الغد. لكن ...» ثم مدَّ يديه وأردفَ قائلًا: «لن يكون في الأمر خطورةٌ إذا سمحتِ لي بمراسلتكِ، وإذا كنتِ ستسمحين لي بأن أتوقَّع أن تردي على رسائلي.»

وضعَت دورثي يدها في يده دون ترددٍ هذه المرة.

وقالت: «تستطيع أن تراسلني، وسوف أرد على رسائلك. أنا واثقةٌ أنه ما من خطورة في هذا.»

الفصل الخامس

بعد انتهاء الحفل

في عصر اليوم التالي لحفل السفينة «كونسترنيشن» جلسَت فتاتانا إحداهما في مقابل الأخرى تحت العوارض الخشبية لسقف غرفة الحياكة، وكانتا تجلسان في فتورٍ ودونما هدفٍ كأولئك الذين لم يعودوا إلى منازلهم حتى الصباح، بل حتى أسفر ضوءُ النهار بالفعل. إنَّ السمة المميزة السائدة في أيِّ منتجعٍ صيفيٍّ هي الكرسي الهزاز، وكان هناك في غرفة الحياكة منه اثنان، حيث جلست كاثرين ودورثي تتأرجَحان برفقٍ إلى الخلف والأمام وهما تتحدثان. كانتا تجلسان قريبًا من النافذة العريضة المنخفضة التي توفِّر إطلالة جميلةٍ جدًّا على الخليج الأزرق والسفن البيضاء. كانت السفينة الضخمة «كونسترنيشن» راسيةً بحائطها في مواجهة المدينة، وقد أُزيلَت كلُّ مظاهر الاحتفال من على هيكل السفينة وحِبالِ أشرعتِها وصوارِيها؛ رأت عيون الفتاتَين تلك التي لم تأخذ كفايتها من النوم، شيئًا نابعًا من حزن الرحيل بدا مُعلَّقًا كضبابٍ رقيقٍ حول السفينة الضخمة. لم تكن الفتاتان تناقشان الماضي، بل كانتا تستشرفان المستقبل، وتتنبآن به بينما تتخلَّل حديثهما فتراتُ صمتٍ طويلةٍ.

كانت كاثرين تقول: «إنكِ لن تبقَي معنا إذن، أليس كذلك؟ هل أنتِ عازمةٌ بعد أن اغتنيتِ على التخلِّي عن عائلة كِمْت الفقيرة؟»

«لكنني سأعودُ إلى عائلة كِمْت بين الحين والآخر، إذا سمحوا لي بهذا. يجب أن أبتعد فترةً من الزمن وأُفكِّر. لقد أصبحَت حياتي فجأةً في غاية الفوضى والاضطراب، وأنا أريد أن أتبيَّن موقعي، مثلما تفعل سفينةٌ خاضَت إحدى العواصف ولم تَعُد تعرف موقعها.»

««لا تدري أين تكون.» كما تقول الأغنية.»

«بالضبط؛ هذه هي حقيقة الأمر.»

«أرى يا دورثي أن عدم سماحكِ لنا بالإعلان عن ثروتكِ الطائلة كان أمرًا في غاية السوء. تخيَّلي فقط مقدار الحفاوة التي كنتِ ستَحظين بها على متن الطرَّادة ليلة أمس لو عرفَ الحشدُ أنَّ أغنى امرأةٍ بينهم ليست سوى فتاةٍ جميلةٍ خجولةٍ تجلس بمفردها تمامًا ولا تشترك ولو حتى في رقصةٍ واحدةٍ.»

«أنا ألا أهتم ألبتَّة بهذا النوع من الحفاوة يا كيت، ولو أنَّ جميع الحاضرين شعروا بمثل ما شعرتُ به أنا من سعادةٍ غامرةٍ بالاحتفال، فلا بد إذن أنهم استمتعوا بوقتهم للغاية. أعتقدُ أن صديقتي كيت استمتعَت بنصيبها من الرقص ونابَت عنِّي في الاستمتاع بنصيبي منه.»

««لقد رقصَت، ورقصَت، ثم رقصَت معهم حتى أنهكتهم». أعتقدُ أن تلك هي كلمات الأغنية الاسكتلندية التي اقتبسها الأمير. يبدو أنه حَسنُ الاطلاع على الشعر الاسكتلندي، وهو لا يستاء حتى من تسميته بالاسكتلندي. يبدو، بحسب ما فهمتُ منه، أن هذه الفتاة النشيطة التي تتحدَّث عنها الأغنيةُ قد رقصَت معهم حتى لم يعودوا قادرين على مراوحة أماكنهم؛ لأنَّ هذا ما شرحه لي، لكنني قلتُ له إنني أُفضِّل أن أتعلم الروسية على أن أتعلم الاسكتلندية؛ لأن الروسية أسهل بكثير، وكان سُمُوُّه من اللطف بمكانٍ بحيث ضحكَ لدُعابتي هذه. أمَا طلبَ منكِ المُلازمُ أن تشاركيه في الرقص؟»

«بلى، طلبَ.»

«ورفضتِ؟»

«نعم، رفضتُ.»

«ما كنتُ أظنه يتمتَّع بالقدر الكافي من حُسن التمييز الذي يجعله يطلب من فتاةٍ أن تشاركه في الرقص.»

«إنكِ ناكرةٌ للفضل يا كاثرين. لا تنسَي أنه عرَّفكِ إلى الأمير.»

«نعم، هذا حقيقي. لقد نسيت. لن أُخطئ في حقه بعد ذلك أبدًا.»

«أنتِ معجبةٌ بالأمير إذن، أليس كذلك؟»

«من بين جميع أصحاب التيجان، والأباطرة، والملوك، والسلاطين، والعواهل من جميع الأنواع، وكل دوق أو كونت أو إيرل أو مَركيز، من أولئك الذين قابلتُهم، والذين ألحوا عليَّ في أن أشاركهم امتيازاتهم المَلكية، أعتقد أنني ربما أقول بصدقٍ بالغٍ إنني أُفضِّل جاك لامونت هذا عليهم جميعًا.»

«لا شك أن الأمير جاك لم يَعرض عليكِ بعدُ أن تشاركيه في إمارته، أليس كذلك؟»

«بلى، لم يفعل بعد، لكنَّني أقنعتُه حرصًا منِّي على المستقبل، بالتوقُّف عن قراءة أدب تولستوي والبدء في قراءة كتابات مارك توين الذي لا يُضاهي الكاتِب الروسي في حس الدعابة فحسب، وإنما يتفوَّق عليه كثيرًا في جانب الحكمة. يجب ألَّا يُسمح لجاك بمنْح ممتلكاته للفلاحين كما فعلَت أختُه الساذَجة. ربما أَحتاجُ إلى تلك الممتلكات فيما بعد.»

«يا إلهي، هل تماديتِ إلى هذا الحد؟»

«لقد تماديتُ إلى هذا الحد؛ لكنه لم يفعل. إنه لا يعلم أيَّ شيءٍ عن الأمر، لكنَّني سأُنبِّهه عندما يأتي الوقت المناسب. إنه يتسم بالكثير من جوانب التعقُّل. لقد أخبرني أنه كان ينوي التنازل عن ممتلكاته، لكنه أولًا كان مشغولًا جدًّا، وثانيًا كان محتاجًا للمال. غير أنَّ تفكيره في حاجة إلى شيءٍ من الصقل كي يتخلَّص مما به من الشوائب. إنني لا ألقي باللوم عليه، بل ألوم تولستوي. عندما سألتُه مثلًا إن كان نالَ براءة اختراعٍ بشأن فكرته عن المدينة السائلة أم لا، قال إنه لا يرغب في التربُّح من اكتشافه، وإنما يريد منه نفع البشرية عمومًا. تخيَّلي مدى حماقة الفكرة!»

نبَّهتها دورثي قائلةً: «أعتقد أنه يستحق مُطلَق الثناء على مثل هذه الآراء.»

«يا إلهي، بالتأكيد، لكن الخطة غير قابلة للتنفيذ. لو أنه سمحَ لمثل هذا الاختراع بالإفلات من يده فمن المحتمَل أن يَستحوِذ عليه أصحاب شركة «ستاندارد أويل» ويحتكروه، فما سيكون موقف البشرية بأكملها حينئذٍ؟ لقد أخبرتُه أن الصواب هو الحصول على براءة اختراعٍ لفكرته، وجنْي كلِّ ما يستطيع جنيَهُ من المال، وتسخير المال في نفع البشرية تحت إشراف شخصٍ مُحسنٍ مثلي.»

«هل اقترحتِ عليه هذا؟»

«أنا لم أُصرِّح مَنْ هو الشخص الحكيم، لكنني شرحتُ المبدأ فقط.»

«نعم، وماذا قال هو؟»

«قال الكثير يا دورثي، قال الكثير. لقد أفضى إليَّ في مرةٍ واحدة بأسرار ممتلكاته في الأراضي الأجنبية. يبدو أنه يملك عدة قلاع، وعندما يزور أيًّا منها لا يستطيع أن يمنع «الموجيكس»، إذا كانت هذه هي التسمية الصحيحة للفلاحين هناك، من السجود على الأرض عندما يمر بهم، ووضْعِ جباهِهم على التراب، والتغني، بالروسية، بعبارة: «أذعِنوا، أذعِنوا، ها قد جاء الجلَّاد الأعظم»، أو بكلماتٍ بهذا المعنى. قلت له إنني لا أفهم ما قد يدفعه إلى منع عادة جذابة كتلك، وقال إنني لو زرتُ إحدى قلاعه فسيصنع هؤلاء الناس الجديرون بالاحترام، بكلمة منه، طريقًا مضلَّعةً في الطين بأجسادهم، لكي أخطو

من العربة إلى أبواب القلعة دون أن يتسخ حذائي، واشترطتُ أنه ينبغي له على الأقل أن يبسط على أجساد البؤساء المساكين سجادةً مدرجةً قبل أن أسير عبر الفناء الأمامي لقلعته.»

«حسنٌ، لقد صار أحدكما موضعَ ثقة الآخر إذا كنتما قد تحدثتما عن زيارةٍ إلى روسيا.»

«نعم، أليس كذلك؟ أظن أنكِ لا تقرِّين سلوكي الوقح، أليس كذلك؟»

«لا شك لدي أنكِ تصرفتِ بأقصى درجات التعقُّل يا كيت.»

«لكنني لم أنتظر الوقت الكافي، أليس كذلك؟»

«لا أعرف كم يَلزم من الوقت للوصول إلى مستوى الصداقة الذي وصلتِ إليه؛ فأنا عديمة الخبرة. صحيحٌ أنني قرأتُ عن الحب من أول نظرة، وأنا أنتظر وحسب لكي تخبريني إن كان ما حدث بينكما من هذا القبيل.»

«يا إلهي، إنكِ تَشعُرين بخجل كبير، وتجلسين هناك بكل هذا الحياء!»

«قد أبدو خجولة أو أشعر بالحياء، لكنه أثرُ النعاس وحسب.»

«يا لكِ من محتالة صغيرة يا دورثي.»

«لماذا؟»

«لا أدري لماذا، لكنكِ مُحتالة. لا، لم يكن ما بيننا من قبيل الحب من أول نظرة؛ وإنما كان مثالًا على انتقام المرأة. نعم، قد تبدو عليكِ علامات الدهشة، لكنَّني أقول الحقيقة. بعد أن انصرفتُ بمنتهى الزهو مع جلالته، رقصنا معًا رقصةً لطيفةً للغاية؛ ثم اقترحتُ عليه العودة إليكِ، لكن الفتى لم يَرغب في هذا، وللحظةٍ شعرتُ بالإطراء. غير أنني فهمتُ فيما بعد أنه لم يتجنَّب قُربَكِ طمعًا في صحبتي، وإنما كان يُضحِّي بنفسه من أجل صديقه.»

«أيُّ صديقٍ هذا؟»

«المُلازم دروموند بالطبع.»

«كيف كان يُضحِّي بنفسه من أجل المُلازم دروموند؟»

«أظنُّ أن المُلازمَ الطويل القامة لم يقع في حبائل إغوائي كما كنتُ أعتقد في البداية، لكنه، وعلى نحوٍ لا يُمكن تفسيره؛ إذ لا يدري المرء أبدًا كيفية حدوث هذه الأشياء، كان دروموند حريصًا جدًّا على أن يُترَك بمفرده مع الآنسة الخجولة دورثي إمهيرست، التي لا تَعرف كم يلزم من الوقت للوقوع في الحب من أول نظرة، رغم أنها قد قرأَت عن هذه

الأشياء، يا لها من فتاةٍ طيبةٍ بريئة. قال سببُ المصائبِ الأولُ لسبب المصائب الثاني: «ثمة فتاةٌ جالسةٌ على مقعدنا؛ سوف أُعرِّفك إليها. فلتُغرِها أنتَ بالاندماج في الرقص الأهوج، وأبقِها بعيدًا بقدرِ ما تستطيع، وسأردُّ لكَ الجميل يومًا ما.»

«وربما يكون جاك لامونت قد سبَّ ولعن حينذاك، أعرف أنَّ البذاءة أحيانًا ما تكون متفشيةً بصورةٍ موجعةٍ على متن السفن، لكنه برغم ذلك سمحَ للملازم باقتياده مثلما يُقتاد الحَمَل إلى المذبحة. ولَمَّا لم أكن قويةً بما يكفي لإلقائه من على ظهر السفينة عندما أدركتُ حقيقة الأمر، فعلتُ أفضل ما يُمكن فعلُه بعد ذلك؛ بالغتُ في معاملته بلطفٍ إلى حدٍّ يبعث على الغثيان. لقد ابتسمتُ في وجهه، واستمعتُ إلى الهراء الذي راح يقوله عن المكوِّنات الكيميائية لاختراعاته البارزة المختلفة، وكأن الفتيات يحضرن الحفلات الراقصة ليَدرُسن الكيمياء! قبل أن تنقضي نصفُ ساعةٍ استنتجَ ذلك القاصرُ أنه كان برفقة أول امرأةٍ عاقلةٍ حقًّا قابَلَها في حياته. وبعد قليلٍ بدأ يسقيني من كأس الغَزَل والهوى، مثلما تقول العبارةُ المقيتة، وكأنَّ الهوى مزيجٌ يُركَّب من هذا المُكوِّن وذاك المكوِّن، ثم يُرَجُّ قبل أن يُشرَب. يسرني أن أُضيف، دلالةً على مهاراتي في إثارة الإعجاب، أنَّ جاك نسيَ سريعًا أنه كان أُضحيةً، والحق أنه بعد قليلٍ من التوجيه، أصبح مُغازِلًا ممتازًا جدًّا. إنه قادمٌ لزيارتي بعد ظهر اليوم، وعندها سيُدرك الحقيقة. سوف أطأ عليه وكأنه واحدٌ من رعاياه من الموجيكس.»

«ما أروع مخيلتكِ يا كيت! كلُّ ما قلتِه إنما هو محض خيال. لقد رأيتُ أنه انجذبَ إليكِ من البداية. إنه حتى لم ينظر إليَّ ولو نظرةً عجلى.»

«بالطبع لم يفعل؛ لم يُسمَح له بذلك.»

«هذا هراء يا كيت. لو اعتقدتُ للحظةٍ أنكِ جادةً في كلامك لقلتُ إنكِ تستخفين بمفاتنك.»

«حسنٌ، ربما لا بأس بهذا كله أيتها الآنسة دورثي ذات الغمازة؛ إنكِ تُحاولين تشتيتي بمسائلَ جانبية؛ لأنكِ تَعلمين أن ما أريد معرفته هو السبب في لهفة المُلازم دروموند على إبعادي إلى مكانٍ آخر. ما الذي استفادَه من الفرصةِ التي قدمتُها إليه أنا بسذاجتي وقدَّمها إليه الأميرُ بدماثة أخلاقه؟»

«إنه لم يَقُل إلا كلامًا عاديًّا.»

«حدِّثيني عن التفاصيل يا دورثي، ودعيني أحكم بنفسي. إنكِ عديمة الخبرة للغاية، كما تعرفين ويجدر بكِ أن تَستشيري صديقة أكثر حُنكة.»

«أنا لا أتذكَّر فحسب …»

«أجل، كنتُ أتوقَّع هذا. هل تكلَّم عن نفسه أم عنكِ؟»

«عن نفسه بالطبع. لقد حدَّثني عن سبب نيته في السفر إلى روسيا، وتكلَّم عن بعض القيود التي واجهها في عمله.»

«حقًّا! وهل فكَّ تلك القيود؟»

«أقصدُ عقبات؛ مَصاعب تعترض طريقه، ويأمُل أن يتخطاها.»

«يا إلهي، فهمت. وهل أظهرتِ له ذلك التعاطفَ الذي …»

طرقَ شخصٌ ما على الباب، ودخلت الخادمة وفي يدها بطاقة تعريف.

أسرعَت كاثرين بالوقوف، وصاحت قائلةً: «يا إلهي! لقد جاءَ الأمير. يا لها من حماقةٍ ألا يكون لدينا مرآةٌ في هذه الغرفة، وهي غرفة للحياكة والجلوس أيضًا. هل أبدو على ما يرام يا دورثي؟»

«أنا أراكِ مثالًا للكمال.»

«يا إلهي، حسنٌ، يُمكنني النظر سريعًا في أيِّ مرآةٍ في الطابق القادم. ألن تنزلي لترَيه وأنا أطؤه بقدمي؟»

«لن أنزل، شكرًا لكِ. إنني على الأرجح سأغفو، وسأستمتع بقيلولةٍ على هذا الكرسي الوثير للغاية. لا تقسي كثيرًا على الفتى يا كيت. إنَّ ظنونكِ عنه مخطئةٌ تمامًا. إن المُلازم لم يُخطِّط ألبتَّة لأي شيءٍ مما تظنِّينه؛ لأنه لم يتكلَّم عن أيِّ شيءٍ غير المواضيع العادية جدًّا طَوال فترةِ بقائي معه، كما كنتُ على وشك أن أُخبركِ، لولا أنكِ تبدين متلهِّفة للغاية على الذهاب.»

«يا للعجب، لن تخدعيني بكلامكِ هذا أبدًا. سأعود قريبًا وقد أجهزتُ على الفتى تمامًا. والآن أنا ذاهبةٌ ولن أتأخر.» بعد هذه الكلمات نزلت كاثرين تتواثب على الدَّرج.

أخذت دورثي مجلةً كانت على المنضدة، وظلَّت بضع دقائق تقلِّب صفحاتها متنقلةً من خبرٍ إلى آخر، في محاولةٍ منها للبحث عن شيءٍ يثير انتباهها، لكنها فشلت في هذا. بعد ذلك تناولَت الجريدة التي كانت ملقاةً عند قدميها، لكنها سرعان ما ألقتها جانبًا هي الأخرى، واتكأَت في كرسيها بعينَين شبه مغلقتَين، وراحت تنظر إلى الطرَّادة الراسية في الخليج. أخذ ضبابٌ رقيقٌ يتصاعد بينها وبين السفينة، ثم بدأ يَغلظ شيئًا فشيئًا حتى انتهى به الأمر إلى أن حجبَ السفينة تمامًا.

كانت دورثي مهمومةً لشعورها بأنها نسيَت شيئًا ما، وقد حاولت جادة أن تتذكَّره لكن دون جدوى. لقد كان شيئًا بالغ الأهمية، كانت متأكدةً من ذلك، وهذا التأكُّد زاد من قلقها.

وأخيرًا رأَت سابينا قادمةً من الظلمة وهي ترتدي أسمالًا باليةً، وفي تلك اللحظةِ مكَّنتها ومضةٌ من الحَدْس من حل اللغز. لم يكن فستان الحفل الراقص قد اكتمل نتيجة لتوانيها؛ فأسرعت الفتاةُ بالنهوض، وبدافعٍ من إحساسها، لا من عقلها، جلسَت إلى ماكينة الحياكة، وحينها بدَّدَتِ الضبابَ ضحكةٌ مدويةٌ من كاثرين.

«يا إلهي، أنتِ أيتها الفتاة المسكينة، ماذا أصابك؟ هل عُدتِ إلى الكدح مرةً أخرى؟ يبدو أنكِ نسيتِ الثروة!»

صاحت دورثي في شيءٍ من الشرود: «هل … هل عُدتِ بالفعل؟»

«نعم بالفعل! يا إلهي، يا للعجب، لقد بقيتُ هناك مدةَ ساعةٍ وربع. أيتها الفتاة الحبيبة، لقد كنتِ نائمةً وعُدتِ إلى العبودية من جديد!»

قالت دورثي متنهدةً: «أظن ذلك.»

الفصل السادس

من البحر إلى الجبل

بعد ثلاثة أيام أبحرت فرقة «نورث أتلانتيك» التابعة للبحرية البريطانية بموازاة الساحل قادمةً من مدينة هاليفكس، ولم تتوقَّف قليلًا حتى في مدينة بار هاربر، وإنما أرسلَت برقيةً إلى السفينة «كونسترنيشن» التي رفعَت بدورها المرساة وانضمَّت إلى الأسطول بالخارج، وهكذا غادرت السفن الحربيةُ إلى ميناء آخر.

كانت كاثرين تقف إلى جوار النافذة العريضة بغرفة الحياكة في وِقفتها المفضلة؛ إذ تُسند جانب رأسها على زجاج النافذة، بينما تحدِّق عيناها في تراخٍ إلى الخليج، وتنقر أصابعها على حافة النافذة بلحن عسكري هذه المرة بطيء جدًّا. كانت دورثي جالسةً على كرسيٍّ هزازٍ، وفي يدها رسالةٌ تقرؤها للمرة الثانية. على مدى بضع دقائق سادَ الغرفةَ صمتٌ لم تقطعه النقراتُ الهادئةُ من أصابع الفتاة على أُسْكُفَّة النافذة، بل زاده وضوحًا. وأخيرًا تنهدت كاثرين تنهيدةً عميقةً وتمتمت بينها وبين نفسها:

يتلاشى أسطولنا بعيدًا.
تخبو نيرانه على الأرض والرمال.
ويح على مجدنا القديم،
يلقى مصير «نينوى» و«صور».

همسَت بينها وبين نفسها: «أتُراني قلتُ الأبياتَ بدقةٍ أم لا؟» لقد نسيَت أن في الغرفة أحدًا غيرها، وارتاعَت للغاية عندما تكلمَت دورثي.

«كِيت، إن هذا تغييرٌ كئيب من أوبرا جيلبرت إلى شعر كيبلينج. إنني دائمًا ما أعرف مزاجَكِ من اقتباساتِك. هل أصبحَتِ الحياةُ فجأةً أقسى من أن تُعبِّر عنها أوبرا «بينافور» أو «ميكادو»؟»

قالت كاثرين، دون أن تَلتفِت: «آه، لا أدري. كلُّها مسرحياتٌ تتسم بروح الدعابة، وكلٌّ منها كذلك يُقدِّم شيئًا يناسب القلب الحزين. إن الحكمة تنبع من فهم الأبجدية على النحو الملائم. مثلًا، في البداية جاء «جيلبرت»، وهذا أعطانا حرف الجيم؛ ثم جاء «كيبلينج»، وأعطانا حرف الكاف؛ وهكذا أصبح لدينا صيغةٌ جبريةٌ هي الجيم والكاف، والتي تُمثِّل أول حرفَين من اسم الكاتِب جيلبرت كيث تشِسترتون الذي ظهر بعدهما، وعندما يزداد القلبُ كآبةً يوغل أكثر في حروف الأبجدية حتى يَصل إلى حرف الشين، ليجد برنارد شو، الذي يُعد نسخةً محسَّنة من المدرسة الكِلياردية في الرواية، ويتبنَّى نظرةَ التأفُّف من الحياة. وبعد أن أتركه، أتعمَّق أكثر حتى أصل إلى حرف الواو الذي يمثِّله ويليام جيكوبز — شدَّ ما أتمنى أن يكتب الشِّعر! سيصبح أظرف البحَّارة جميعًا، وربما يتخلى ذات يوم عن مراكب نقل البضائع من أجل السفن الحربية. وحينها سيزداد استمتاعي بقراءة مؤلفاته.»

علَّقت دورثي بحسم: «أما أنا فلن أتنازل عن مارك توين مهما حدث.»

«مارك توين ليس مِلْكِكِ كي تَتنازلي عنه يا عزيزتي. إنه يخصُّني هو الآخر. لقد نسيتِ أن المقارنات أمرٌ بغيض. ليست صنعتنا عقدَ المقارنات بين الكُتَّاب، وإنما أخْذ ما يرضينا من كلٍّ منهم.

عجبًا لتلك النحلة الصغيرة الدءوبة!
ساعة بعد ساعة يزيد نشاطها.
في جمْع العسل تقضي نهارها.
تجنيه من كل زهرة متفتحة.

شِعر «واتس». أترين، لا أزال في العمق بين من يبدءون بحرف الواو. يا إلهي، دورثي، كيف يمكنكِ أن تجلسي بكل هذا الهدوء بينما السفينة «كونسترنيشن» توارَت لتوِّها عن أبصارنا؟ يا لكِ من فتاةٍ أنانية!

هَبْ لي الدُّمُوعَ لكربِ غيري، إنما
هَبْ لي أنا الصَّبرَ الجميلَ لكُربتي.

لا أدري مَن كتبَ هذا البيت، لكنكِ لا تبكين على كربات الآخرين، بل تستقبلينها بضحكٍ ماجن.» ذلك أن ضحكات دورثي الصاخبة المرحة، وهي ممسكةٌ بالرسالة التي

أحسنَت قراءتها، كانت تدوي في العوارض الخشبية لسقف الغرفة، وهو شيءٌ لم يحدث قبل ذلك قطُّ خلال مدةِ استئجارها الطويلة لتلك الغرفة. أدارت كيت رأسها ببطءٍ، وكانت تعبيرات وجهها تجمع بين السخط والهزل، بينما كانت عيناها كخبيرتَي أرصادٍ حائرتَين، فأنبأتا بدرجاتٍ متساويةٍ عن بهجةِ اليوم المشمس وكآبة الجو الماطر في الوقت نفسه.

«يا إلهي، كاثرين، إنكِ تبدين كأيقونةٍ للكآبة، بدلًا من أن تكوني تجسيدًا للمرح! هل هذه حقًّا حالةٌ من حالات «طائر الميكادو الحزين»؟ أترين، إنني أنقذكِ من هاوية حروف الأبجدية، وأرفعكِ إلى مُستوى كتابات «جيلبرت»، في ذلك المكان الذي اعتدتُ أن أراكِ فيه أكثر من غيره، وحيث يمكنني أن أفهمكِ بطريقةٍ أفضل. هل السبب في هذه الكآبة هو رحيل السفينة «كونسترنيشن»، وأنها أخذَت معها الحدَّاد جاك لامونت؟»

انتهَت التنهيدةُ الطويلةُ بكلمة «نعم» حزينة.

«إننا نشير إلى السفينة التي غادر على متنها بضمير المؤنث. لو كان هربَ مع أُنثى حقيقة ليتزوَّجها، فلربما صار ارتداءُ ثياب الحزن أو الغناء الحزين مفهومًا حينذاك بالرغم من عدم جدواه. أمَّا في وضعنا هذا فأنا لا أرى ما يدعو إلى هذه التنهيدة.»

«هذا لأنكِ شريرةٌ قاسيةٌ يا دورثي. أنتِ لا قلبَ لكِ، أو ربما لكِ قلبٌ بدائي على أحسن تقدير؛ لهذا لا يمكنكِ أن تتفهمي حالتي. لو كانت هذه الرسالة التي في يدكِ رسالةً غراميةً لا خطابًا من محامِيكِ لكنتِ أكثر إنسانيةً يا دورثي.»

أغلقَت اليدُ التي كانت تُمسك بالرسالةِ قبضتها عليها وغضنتها قليلًا عندما تكلمت كاثرين.

قالت دورثي وحُمرةُ الخجل تغمر وجنتيها: «إن خطابات العمل ضرورية للغاية، وهي جزء من العالم الذي نعيش فيه. ثم إنَّ عهدك بالسيد لامونت قصير للغاية.»

قالت كاثرين بنبرةٍ عنيدةٍ مؤكدة: «إنه لم ينقطع عن زيارتي يومًا واحدًا منذ ليلة الحفل الراقص.»

«حسنٌ، إنها ثلاث مراتٍ لا أكثر.»

«ثلاث مراتٍ فقط! انظري ماذا تقولين! وكأنك لم تدرسي الحساب قط. يا إلهي، إن ثلاثةً رقمٌ سحري. يُمكنكِ أن تفعلي به الكثير من الأشياء الرائعة. ألا تعلمين أن الرقم ثلاثة هو رقم الحب؟»

ردت دورثي في ابتهاجٍ لا يعكس تعاطفها: «كنتُ أظن أن الرقم اثنين هو رقمُ الحب.»

ألقت كاثرين نظرةً أخيرةً على الأُفق الخالي، ثم قالت وهي تجلس أمام صديقتها: «بل ثلاثة، فهو رقم عشريٌّ متكرِّر. إنه مستمرٌّ إلى الأبد، ولو جلستِ تكتبينه ألف سنةٍ فستظلين بعد انقضائها بعيدةً عن إدراك النهاية كما كنتِ تمامًا حين بدأتِ في الكتابة. سوف يدور بكِ هذا الرقم حول العالم ويعود بكِ مرةً أخرى، ولن يَنقص. إنه الرمز الرياضي لما ينبغي أن يكون عليه الحب الحقيقي.»

سألتها دورثي بنبرةٍ أكثر وقارًا من ذي قبل: «هل الأمر في هذه الدرجة من الجدية يا كيت، أم أنكِ تمزحين من جديد فحسب؟ هل تكلَّمَ معكِ؟»

«تكلَّم؟! إنه لم يفعل شيئًا سوى الكلام، وأنا أنصتُّ؛ يا إلهي، أنصتُّ بانتباهٍ شديد، وبتفهُّمٍ كبيرٍ للغاية. إنه لم يَلتقِ امرأةً مثلي قبل ذلك قط، وقال لي هذا بصراحة.»

«أنا مسرورةٌ للغاية لأنه يُقدِّركِ يا عزيزتي.»

«نعم، أنت تعلمين يا دورثي، إنني في الحقيقة أكثر حكمةً بكثيرٍ من أي امرأةٍ عادية. فمَن سواي مثلًا تستطيع أن تجد مثل هذا التشبيه الجميل للحب في كتابٍ لعلم الحساب ثمنُه خمسةٌ وعشرون سنتًا مثلما اكتشفتُ أنا في الكسور العشرية؟ إذا أخذتِ هذا المثال في الحسبان، كيف يُمكنكِ أن تشكِّكي في أن مجلدات التعليم الجامعي الأخرى ستكشف لي عن مكنون معانيها؟ لقد أهداني جون، وهو يُودعني، نسخةً مجلدةً جميلةً من ذلك الكتاب المدرسي الذائع الصيت المدعو «كتاب سوندرز في الكيمياء التحليلية»، وكان فيه صفحاتٌ رقيقةٌ للغاية مكتوبٌ عليها بالرصاص، بخطه الجميل.»

كان كلام كيت من النوع المثير للشفقة، ولم يُخفِّف من حدته أيُّ أثرٍ للهزل، ولذا وقعَت دورثي في شيءٍ من الارتباك، لكنها برغم ذلك ضحكَت، لكن الضحكةَ لم تجِد لها صَدًى عند كاثرين.

«وهل أعطيتِه مجلدًا من كتابات الشاعر روبرت براونينج في المقابل؟»

«لا، لم أفعل. كيف تتصرفين بكل هذا الجمود؟ أمن المستحيل عليكِ أن تفهمي الرابطة غير المرئية التي تَربطني أنا وجون؟ لقد نقَّبتُ في محل الكتب حتى وجدتُ نسخةً صغيرةً ساحرةً من «كتاب مارشال في الجيولوجيا للجيب» مُغطاةً بطبقةٍ لينةٍ بُنِّيَّةٍ جميلةٍ من الجلد الروسي، لقد رأيتُ أن الجلدة الروسية ستكون مُلهمةً جدًّا، وكان للكتاب إبزيمٌ صغيرٌ جميلٌ يبقيه مغلقًا وجدت أنه رمزٌ نموذجيٌّ ليَدينا عند الفراق. وكتبتُ على الورقة البيضاء في أول الكتاب: «إلى جي إل، تخليدًا لذكرى محادثاتٍ ماتعةٍ كثيرةٍ مع صديقته، كيه كيه.» لم يكن ينقصه سوى «كيه» أخرى حتى يصبح رمزيًّا وسياسيًّا،

تذكارًا للأيام الغابرة، حين كنتم أنتم أهلَ الجنوب، يا دورثي، ترهقوننا من أمرنا عسرًا، نحن الصالحين من أهل الشمال. لم يكن لديَّ وقتٌ لتصفُّح الكتاب بالكامل، لكنني وجدتُ إشاراتٍ كثيرةً لحجر الكلس، فوضعتُ عليها علامات، كما اخترتُ بعنايةٍ فائقةٍ كلماتٍ ذاتَ صلةٍ بتذويب العديد من المعادن وإعادة مزجها، ورسمتُ حولها متوازي أضلاعٍ بالحبر الأحمر. لقد تفضَّل صديقٌ لي يركبُ زورقًا بخاريًّا بحمل الطرد الصغير مباشرةً إلى السفينة «كونسترنيشن»، ولا أشك أن جاك يقرأ الكتاب بتمعنٍ الآن، ولعل ذهنه مشغولٌ بمَن أهدته إياه. أرجو أن يكون حديثًا، وألَّا يكون اشترى نسخةً منه من قبل.»

«أتقصدين يا كيت أن كلامكما كان كله عن الجيولوجيا؟»

«بالطبع لا. كيف تشرَّبتِ مثل هذه الفكرة السخيفة؟ لقد كان بيننا الكثير من المداعبات المبهجة في البساتين الرومانسية للكيمياء، وأحاديث من القلب إلى القلب عن علم التعدين، وذات مرةٍ لن أنساها أبدًا، كان الغسق يلفنا برفقٍ، وكنتُ أنا أُحدِّق في عينيه المتألقتين الناطقتين الذكيتين هاتين وهو يَنحني مقتربًا منِّي أكثر فأكثر؛ بينما راحَ صوتُه الرنانُ الخفيض يصوِّر لي في كلماتٍ مختارةٍ بعنايةٍ ما يَحمله الأسمنتُ المُسلحُ من أمل للعالم؛ أعني، أيتها الجاهلة، الأسمنتُ البورتلاندي المُقوَّى بدعامات الحديد؛ وجلستُ أنا أُصغي بأنفاسٍ محبوسةٍ بينما عباراته المتوهجةُ تتنبأُ بمستقبل هذا المزيج.»

أغلقت كاثرين عينيها، وراحَت تتأرجَح برفقٍ إلى الأمام والخلف، وأخذَت تدندن بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

عندما تمضي، يا جيمي،
بعيدًا في البحر، أيها الصبي الصغير،
عندما تمضي إلى الأراضي الروسية،
ماذا سترسل لي، أيها الصبي الصغير؟

«أنا أعرف ما الذي سأحصل عليه. ربما ستكون وصفة مُكتشَفة حديثًا لمزج الأسمنت ستلغي الحاجةَ إلى الحديد المستخدَم من أجل التقوية.»

«كيت، حبيبتي، إنكِ تبالغين في الأمر. صحيحٌ أن المرأةَ يجب أن تكون لُغزًا بالنسبة إلى الرجل، لكن يجب عليها ألَّا تطمحَ إلى أن تكون لُغزًا لأختها المرأة. هل تمزحين فقط، أم إن هناك شيئًا ما في كلِّ ما تقولينه هذا أكثر جديةً مما ينطوي عليه كلامُك؟»

«مثل الحديد المُستخدَم في تقوية الأسمنت، قد يكون داخَله، لكنكِ لا تستطيعين رؤيتَه، ولا يمكنكِ لمسُه، لكنَّ المدهش أنه يشكِّل فرقًا كبيرًا في أحجار البناء. أُفٍّ يا دورثي، فلنترك هذه المواضيع العملية، ولنتحوَّل إلى شيءٍ إنساني. ماذا أراد محاموكِ منكِ؟ هل ثمة مشكلةٌ بخصوص المال؟»

هزَّت دورثي رأسها.

«كلا. ولكن يوجد العديد من الأمور التي يجب عليهم أن يستشيروني فيها بالطبع، وأن يحصلوا على موافقتي على هذا المشروع أو ذاك.»

«اقرئي الخطاب. ربما يُساعدكِ عقلي الرياضي بأمرٍ ما.»

كانت دورثي قد أخفت الرسالة، ولم تُظهرها في تلك اللحظة.

«إنَّ ما أودُّ أن أتحدث إليكِ بشأنه مُتعلقٌ بمساعدتكِ، ومساعدتكِ المستمرة. لنتبع مثال الأسمنت والصُّلب، ولنعقد اتفاقًا. سوف أحاكي السفينة «كونسترنيشن» في أمر، سأغادر بار هاربر في الأسبوع المقبل.»

اعتدلت كاثرين في كرسيِّها، واتسعَت حدقتاها.

وسألَت: «ما مشكلةُ بار هاربر؟»

«تستطيعين الجواب عن هذا السؤال أفضل مني يا كيت. إن أفراد أسرة كَمْت ليسوا زوارًا، بل يعيشون هنا طوال العام. ما مشكلة بار هاربر في ظنكِ أنتِ؟»

«أعترفُ أنها تكون كئيبة قليلًا في فصل الشتاء، كما أنها بعيدةٌ جدًّا عن نيويورك طوال فصول العام. إلى أين تنوين الذهابَ يا دورثي؟»

«سوف يعتمد هذا بقدرٍ كبيرٍ على المكان الذي تَنصحني صديقتي كيت بالذهاب إليه؛ لأنني سآخذها معي، إذا رغبَت في هذا.»

«تُرى، أيَّ الأعمال سأتولَّى إذن: وصيفة، ماشِطة، خادمة للضيوف، خادمة عامة، طاهية، مربية، عاملة على الآلة الكاتبة؟ هل سأحصل يومًا ما على إجازة لمدة أسبوع، وهل سيُسمَح لفتاي بزيارتي، هذا إذا صار لي فتًى، والأكثر أهمية من ذلك كله: كم سيكون راتبي؟»

«ستُحدِّدين راتبكِ بنفسكِ يا كيت، وسيُرتِّب المحامون أمرَ وصولِ المبلغ المحدَّد إليكِ، حتى إذا تشاجَرنا نستطيع أن نتشاجر مشاجرةَ الندِّ للند.»

«يا إلهي، فهمت، سأكون ابنةً متبناةً إذن، أليس كذلك؟»

«بل أختًا متبنَّاة.»

«هل تظنِّين أنِّي سأستغل كوني صديقة إحدى الوريثات وأجعل لنفسي معاشًا؟»

قالت دورثي: «إنني أنا المستفيدة. وأنا أرجوكِ ألا تأخذكِ الرغبةُ في الاستغلال، وإنما أرجوكِ أن تأخذكِ الشفقةُ على فتاةٍ وحيدةٍ ليس لها أي أقارب ألبتَّة.»

«هل أنتِ جادةٌ حقًّا يا دوت؟»

«بالطبع جادة. وهل كنتُ سأعرض مثل هذا العرض إن لم أكن جادةً فيه؟»

«حسنًا، هذا أول عرضٍ يُعرَض عليَّ في حياتي، وأعتقد أنَّ المعتاد في مثل هذه المناسبات أن أقول إن الأمر كان مفاجِئًا جدًّا، أو غير متوقَّع، وإنني أحتاج إلى الوقت من أجل التفكير.»

«متى ستُقرِّرين يا كيت؟»

«يا إلهي، لقد قررتُ بالفعل. إنني مُتلهفةٌ لقبول عرضكِ، لكنني أظن أن من الأليق بالسيدة الكريمة التظاهر بشيءٍ من التمنُّع. ماذا قررتِ أن تفعلي يا دورثي؟»

«لا أدري. لم أستقرَّ إلا على قرارٍ واحدٍ حتى الآن. أنوي بناء كنيسةٍ صغيرةٍ من الحجارة والقرميد تكون على الطراز العتيق وجذَّابةً للغاية، هذا لو وجدتُ المهندس المعماريَّ المناسب لرسم تصميمٍ لها، وستكون هذه الكنيسة في هافرستوك.»

«أين هافرستوك هذه؟»

«إنها قريةٌ قريبةٌ من نهر هدسون، في السَّهل الممتد قرب جبال كاتسكيل.»

«هذا هو المكان الذي كنتِ تعيشين فيه مع والدك، أليس كذلك؟»

«بلى، وستُسمى كنيستي «كنيسة نصب الدكتور إمهيرست التذكاري».»

«وهل تنوين الإقامة في هافرستوك؟»

«كنتُ أفكِّر في هذا.»

«ألن تكون الإقامة هناك كئيبةً قليلًا؟»

«بلى، أظن ذلك، لكنه يبدو لي مكانًا مناسبًا لفتاتَين كي تُفكِّرا فيه لِما ستفعلانه في حياتهما.»

«نعم، هذه مسألةٌ مهمةٌ للاثنتين. أقترح يا دورثي أن نذهب إلى الجانب الآخر من النهر، ونلتحق بكلية «فاسير كوليدج». حينها سنَحظى ببعض المتعة على الأقل، وسيكون هناك أناسٌ على قدرٍ جيد من التعليم نتبادل معهم أطراف الحديث.»

«يا إلهي، تُريدين أن تستخدمي ما حصَّلتِه مؤخرًا من المعرفة العلمية كي تجتازي الامتحانات؛ لكنني لم أحظَ كما تعرفين بمعلِّمٍ خاصٍّ ليشرح لي ألغاز إحراق الكلس

وخلط الأسمنت. والآن، لقد ازدريتِ أنتِ الجانبَ الذي اخترتُه من النهر، وأنا اعترضتُ على الجانب الذي اخترتِه أنتِ. هذه هي البداية السيئة، ولنأمل أنها ستُؤدي إلى النهاية الجيدة. مَن عساه يحكم بيننا؟»

«يا إلهي، سوف نصل إلى حلٍّ وسطٍ بالطبع.»

«كيف يمكن أن نفعل هذا؟ نعيش في مركبٍ في النهر كما في رواية فرانك ستوكتُن «بودَر جرينج»؟»

«لا، بل نستقرُّ في مدينة نيويورك، التي هي في الواقع جزيرةٌ في نهر هدسون.»

«أتحبين أن تعيشي في نيويورك؟»

«ألا يبدو عليَّ ذلك! لا أتخيَّل أن تُتاح هذه الفرصةُ لأي أحدٍ ثم يسكن في مكانٍ آخر!»

«نقيم في فندق، وليكن فندق «هولدورف» على سبيل المثال.»

«نعم، يمكننا أن نعيش في فندق ريثما نجد الشقة المثالية، في شقةٍ عاليةٍ في إحدى العمارات السكنية، وتُطلُّ على منظرٍ كذلك الذي يُرى من قمَّة جبل «ماونت واشنطن»، أو من قمة مسلَّة «واشنطن مونيومنت».»

«لكنكِ نسيتِ أنَّني اشترطتُ شرطًا في البداية، وهو أنني سأبني كنيسة، ولن تكون الكنيسة في نيويورك، بل في قرية هافرستوك.»

«إن نيويورك هي المكان المُلائم تمامًا لكي تَبني منه مثل هذا الصرح. فقرية هافرستوك تقع بالقُرب من سكك حديد «ويست شور». ولا بأس في أن نُسافر إلى هناك مرةً كل أسبوع، أو أكثر إذا أحببتِ، ونرى سير العمل، وحينها سيُجِلُّنا أهلُ قرية هافرستوك. وعندما نركب العربة من محطة القطار سيقولون:

«ها هما تان الفتاتان القادمتان من نيويورك اللتان تَبنيان الكنيسة.» أما لو أقمنا بينهم فلن يعرفوا مدى تميُّزنا وسيَحسبون أننا مجرَّد قرويتَين عاديتين. يُمكننا أيضًا أن نقيم في أحد الفنادق الكبرى في مقاطعة كاتسكيلز ريثما تُجهَّز شقتُنا، ونأتي كلما أحبَبنا عبر خطوط السكة الحديدية الجبلية المنحدرة. الحق أنَّ مقاطعة كاتسكيلز هي المكان الأنسب، قبل أن تزداد برودة الجو.

يا للعجب، إن جبال كاتسكيلز تترك بصمتها السماء البعيدة،
وفوق قِمَمها الشاهقة تطفو السُّحُبُ الباهتة،
وتمتزج في رفقٍ شديد، حتى إنَّ العين المخدوعة لتنسى
أين تنتهي الأرض وأين تبدأ السماء.»

«هذا يَحسم النقاشَ لصالح كاتسكيلز يا كيت. أيُّ نوعٍ من السكنى عسانا نختار؟ فندقٌ كبير، أم مثوًى مُستأجَر خاص من نوع ممتاز؟»

«يا إلهي، فندقٌ كبيرٌ بالطبع؛ أكبر فندق موجود، أيًّا كان اسمه. فندقٌ من تلك الفنادق الباهظة الأسعار للغاية لدرجةِ أن المالك لا يَجرُؤ على الإعلان عنها، وإنما يقول في إعلانه: «لمعرفة الأسعار يُرجى التواصل مع المدير.» لا بد أن تكون مساحته كبيرة، وأن يكون متعاقدًا مع فرقةٍ موسيقيةٍ ممتازة، وأن يُعلِن عن وجود أطعمةٍ شهيرة. يجب أن يكون لغرفتك، على الأقل، شُرفةٌ خاصةٌ تستطيعين أن تضعي بها تلسكوبًا وتُشاهدي بِناء كنيستك في الأسفل. ولأنني فتاةٌ مُتواضعةٌ ذاتُ مكانةٍ ثانويةٍ، فسيكون لديَّ شرفةٌ كذلك لأُعوِّض نقاط النقص تلك.»

«لا بأس يا كيت، اتفقنا. غير أنَّ امرأتَين وحيدتَين تستطيعان الشئون المنزلية في شقةٍ في نيويورك، لكنَّهما لا تستطيعان الإقامة بمفردهما في أحد الفنادق الراقية بالسهولة نفسها.»

«يا إلهي، بلى، نستطيع. يُمكننا تقديم أفضل التزكيات لنا والمطالبة بمثلها للفندق.»

واصلَت دورثي كلامها، غيرَ منتبهةٍ لمقاطعة الحديث: «كنتُ سأقترح عليكِ أن ندعو والدك ووالدتكِ لمُرافقتنا. ربما يستمتعان بالتغيير من جو البحر إلى جو الجبال.»

عبست كاثرين قليلًا، واعترضَت قائلةً:

«هل ستتمسَّكين بالتقاليد بهذه الطريقة المخيفة يا دورثي؟»

«يجب أن نُولي التقاليد بعضَ الاهتمام، ألا تظنين ذلك؟»

«كنتُ آمل ألَّا نفعل. إنني أتوق إلى أن أُصبح فتاةً مستقلة، وأن أحمل مفتاح بيتي.»

«سوف تملكُ كل واحدةٍ منا مفتاح بيتها عندما نُقيم في نيويورك. سوف تكون شقتنا قلعَتنا الخاصة، ورغم أن مِفتاحنا سيُمكِّننا من الدخول، فسوف يمنع قُفلُ شقتنا الآخرين من الدخول إليها. إنَّ منتجعًا صيفيًّا شهيرًا ليتطلَّب معاملةً مختلفة؛ لأننا سنعيش هناك حياةً شِبه عامة. فضلًا عن ذلك، فأنا أنانيةٌ بما يكفي لأتمنَّى أن يكون خروجي تحت رعاية رجلٍ مشهورٍ للغايةِ مثل القبطان كِمْت.»

«حسنٌ، سأرى ما رأيهما في هذا الاقتراح. أنتِ لا تُريدين سابينا، أنا أفهم هذا، أليس كذلك؟»

«بل أريدها، إذا وافقَت أن تأتي.»

«أشك أن تُوافق، لكنَّني سأُجرِّب. فضلًا عن ذلك، فعندما فكَّرتُ في الأمر وجدتُ أن من الإنصاف أن أُعلِمَ والديَّ المُولَعَين بي أنني على وشك أن أهجرهما.»

بعد هذه الكلمات غادرَت كاثرين الغرفةَ، ونزلت تتواثب على الدَّرج.

أخرجت دورثي الرسالة من مخبئها، وقرأتها للمرة الثالثة، مع أنَّ أي شخصٍ غير مُهتمٍّ بالموضوع كان من الممكن أن يقول إنها وثيقةٌ عاديةٌ جدًّا. بدأت الرسالةُ كالآتي:

«عزيزتي الآنسة إمهيرست»، وانتهَت بهذه الكلمات: «المخلص لكِ دائمًا: آلان دروموند.» كان في سطورها بعض التفاصيل لِما فعله منذ أن ودَّعها. لقد أخبرها أن البحَّارة لا يحتاجون سوى قليلٍ من الوقتِ لحزم أمتعتهم، وفي تلك المرة بالذات كان وجود الأمير مفيدًا جدًّا. لقد خرجا معًا لإدراك القطار الذي ينطلق في الصباح الباكر، وودَّع كلٌّ منهما الآخر عند المحطة. كان دروموند قد عزم على الإبحار من نيويورك، لكنه قابل شخصًا ودودًا على متن القطار وأخبره ذلك الشخص أن باخرة ليفربول المسماة «إنثيوزيبيَانا» سوف تَنطلِق من بوسطن في اليوم التالي، ولذا تخلَّى عن فكرة الإبحار من نيويورك، وحجز للسفر على متن الباخرة المذكورة، والتي كتب رسالته هذه على ورقةٍ من ورق الرسائل الخاص بها، وأخفتها دورثي مرةً أخرى عندما سمعَت خُطا كاثرين الخفيفةَ على الدَّرَج.

اندفَعَت تلك الفتاةُ المتهورة إلى داخل غرفة الحياكة، وصاحت قائلةً:

«سوف نذهب كلنا؛ أبي وأمي وسابينا. يبدو أن أبي حصل على عرضٍ ممتازٍ لتأجير البيت، ويبدو أن هذا سيستمر حتى نهاية شهر سبتمبر، وهو يقول بما إنه يحب المرتفعات فسيقضي الوقت فوق قمة كاتسكيلز. إنه يتخلى عني، ويقول إنه لو تمكَّن من اقتراض أي مبلغٍ فسيوصي بحرماني من أن أرثَه فيه. إنه يشعر بالأسى لرحيل الأسطول البريطاني؛ لأنه يعتقد أنه ربما كان سيتمكَّن من الحصول على مُرتبٍ حقيقيٍّ نظير الالتحاق بالأسطول والعمل على متن السفينة. وبالرغم من ذلك، أصرَّ أبي على شرطٍ واحد، وهو أنه سيتولى نفقات نفسه وأمي وسابينا؛ ولذا فهو لا يريد غرفةً ذات شرفة. لكنني قلتُ إنني على الرغم من حرمانه إياي من ميراثه سوف أُساعد الأسرة من مرتبي، ولذا فسيُعيد النظر في تغيير وصيته.»

قالت دورثي وعلى وجهها ابتسامة: «سوف نتَّفق على الشروط عندما نصل إلى كاتسكيلز.»

الفصل السابع

الطريقة المتبَعة في البحرية

أقام القبطان كِمْت وزوجته وسابينا أسبوعًا في فندق «ماترهورن» قبل وصول الفتاتَين إليه. كانت الفتاتان قد ذهبتا مباشرةً إلى نيويورك، واستغرقتا تلك الأيامَ السبعة للعثور على شقةٍ تناسبهما، واتفقتا على تسلُّمها في الأول من شهر أكتوبر. وكان عليهما بعد ذلك مقابلةُ المحامِين لوجود الكثير من تفاصيل العمل التي ينبغي تسويتها، مع الحاجة إلى استشارةِ أحد المهندسين المعماريين من أجل بناء الكنيسة. بعد مغادرة نيويورك قضت الفتاتان يومًا كاملًا في قرية هافرستوك، حيث اشترَت دورثي إمهيرست قطعةَ أرضٍ بذكاءٍ شديدٍ كما لو أنها قضت عمرها كله في مجال العقارات. وبعد هذه الصفقة استقلَّت الفتاتان إحدى عربات الأجرة إلى المحطة الواقعة على الخط المتَّصل بالسكة الحديدية الجبلية المنحدرة، وبهذا «انطلقتا إلى السماء على أسِرَّةٍ مريحة من الزهور»، مثلما قالت كاثرين التي شرحت لصاحبتها المصدومة أنه لا بأس بهذه الكلمات؛ إذ لم تكن إلا اقتباسًا من أحد التراتيل الدينية. وعندما وصَلَتا إلى فندقهما أخيرًا شعرت كاثرين بابتهاجٍ غامر.

صاحت قائلةً: «أليس هذا مُبهِجًا؟ ويَجدُر به أن يكون كذلك بالفعل؛ لأنَّنا كما أعلم، على ارتفاعٍ يزيد ثلاثة آلاف قدمٍ مما كنا عليه في نيويورك، وحتى ناطحات السحاب لا يمكنها أن تنافس مثلَ هذا الارتفاع.»

كان وادي هدسون الفسيحُ يمتدُّ تحتهم على مدى البصر، متلألئًا في الحُلةِ الزرقاء الرقيقةِ التي كسته إياها تلك الليلةُ الصيفية، وعلى بُعد بضعة أميال كان باستطاعة المرء أن يرى النهر نفسه وكأنه شريطٌ فضيُّ اللون.

أبلى القبطانُ الباسل الذي توعَّدَته ابنتُه الصغرى توعُّدًا شديدًا وهددتَه بمُختلف أنواع الآلام والعقوبات إذا هو لم يَنتبه إلى التعليمات، بلاءً باهِرًا في اختيار غرفتَين لدورثي

ولابنته. كان جناح الغرف يقع في أحد أركان الفندق الضخم، وهو عبارة عن رَدهة كبيرة تشغل الزاوية، وتُطلُّ نوافذ أحد جانبيه على الغابة بينما تطلُّ نوافذ جانبه الآخر على الوادي. كانت الغرفة الأمامية المجاورة للرَّدهة غرفةَ دورثي، والغرفة الواقعة عند الطرف غرفة كاثرين، شريطة أن تُحسن التصرف مثلما قال والدها. وإذا أرادت دورثي في أي وقتٍ أن تَطرُد جارتها المُزعِجة، فما عليها سوى أن تستدعي القبطان، وسوف يقدِّم لها مساعدته، لكنَّ كاثرين أبدَت غضبها من عرض المساعدة هذا، وقالت إنها ستُجرِّب الغرفة لمدةِ أسبوعٍ، وإذا لم تُعجبها فسيتعين على دورثي أن ترحل.

تلا ذلك أيامٌ وليالٍ من العربدة؛ رقصات، وحفلات موسيقية، وترفيه من جميع الأنواع، وحفل راقص شديد الفخامة ليلةَ السبت، وذلك عندما وصل الرجلُ المُتعَب طوال الأسبوع والقادُم من نيويورك بعد الظهر ليجد درجة الحرارة أقل بعشرين درجة، وارتفاعَ الأرض أعلى بكثيرٍ مما كانت عليه الحالُ في مكتبه الحافل بالأعمال في المدينة. لقد عربدَت كاثرين في هذه الجولة من الإثارة، وكذلك فعلَت دورثي هي الأخرى، وإنْ كان ذلك بطريقةٍ أكثر اعتدالًا. بعد انتهاء الحفلات استمتعت الفتاتان بمُحادثةٍ مريحةٍ إحداهما مع الأخرى في قاعة الاستقبال، حيث كانت جميع النوافذ مفتوحة، بينما سطَعَ القمر فوق الوادي المضيء، والذي بدا مليئًا بمسحوق اللؤلؤ.

بعدما رقصَ السيد الشاب جيه كيه هِندِرسون ابن مدينة نيويورك مع كاثرين مرةً بعد مرةٍ في ليالي السبت، حضر فجأةً إلى الحفل الراقص يوم الأربعاء التالي، حيث رقص من جديدٍ مرارًا وتكرارًا مع الفتاة المُبهِجة نفسِها. ولما كان غريبًا بعضَ الشيء على رجلِ أعمالٍ مثله أن يقوم برحلةٍ تستغرق أربع ساعاتٍ خلال فترةِ ما بعد الظهيرة في أحد أيام منتصف الأسبوع، حتى إنه ليصل متأخرًا إلى مكتبه في صباح اليوم التالي، بدأت دورثي تتساءل إنْ كانت إحدى البِنى الخرسانية، ذات الصِّلة باسم الأمير إيفان ليرمونتوف الروسي، تتحلَّى بما يكفي من القوة للتصدي لهجوم فعَّالٍ من هذا النوع، بافتراض أنه كان سيتكرَّر باستمرار. بعد منتصف ليل الأربعاء وصلت الفتاتان إلى الرَّدهة الواقعة في زاوية الفندق. جلست دورثي على كرسيٍّ ذي ذراعين مصنوعٍ من الخيزران، بينما ألقت كاثرين بنفسها على كرسيٍّ هزاز، وعقدَت أصابعها وراء رأسها، وأخذت تحدِّق عبر النافذة المفتوحة في الأفق الضبابيِّ الممتد بلا نهاية وراء النافذة.

قالت كاثرين متنهدةً: «حسنًا، كانت هذه أمتعَ أُمسيةٍ قضيتها في حياتي!»

سألتها صديقتها قائلةً: «هل أنتِ متأكدةٌ تمامًا؟»

«بالتأكيد. ألا يجدر بي أن أعلم؟»

«إنه يجيد الرقص إذن، أليس كذلك؟»

«بطريقةٍ فاتنة!»

«أفضل من جاك لامونت؟»

«حسنٌ، بما أنكِ ذكرت جاك الآن فلا بد أن أعترف بأنه كان يرقص بطريقةٍ جديرةٍ بالإكبار.»

«لم يَدُر في خَلَدي سوى أنكِ ربما نسيتِ الأمير.»

«لا، لم أنسَه بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنِّي أعتقد أنه كان يجدر به مراسلتي.»

«يا إلهي، هذا هو السبب، أليس كذلك؟ هل استأذنكِ في أن يراسلك؟»

«يا لرب السماء، لا لم يَفعل. لم نتحدَّث قط في أمر المراسلة. كان حديثنا عن الحَجَر الرملي الأحمر العتيق في معظمه. ومع ذلك، كان من الممكن أن يكتب لي ليُخبرَني بتسلُّمه للكتاب.»

«لكنكِ أعطيتِه الكتاب في مقابل الكتاب الذي أهداكِ إياه.»

«نعم، أظن ذلك. لم تخطر هذه الفكرة ببالي.»

«يُمكن أيضًا يا كيت أن تكون الأعراف الروسية بشأن مراسلة الفتيات تختلف عن أعرافنا، أو ربما سقط من السفينة، أو لمس سلكًا كهربائيًّا مكشوفًا.»

همست كاثرين بطريقةٍ غامضة: «نعم، ثمة احتمالاتٌ كثيرة.»

«يبدو غريبًا بعضَ الشيء أن يجد السيد هِندِرسون الوقتَ للمجيء إلى هنا في مُنتصَف الأسبوع.»

سألتها كاثرين: «ما الغريبُ في هذا؟ إن السيد هندرسون ليس كاتبًا مقيدًا بساعات العمل. إنه موظفٌ رفيع المستوى في إحدى شركات التأمين الكبرى، ويتقاضى مرتبًا ضخمًا.»

«حقًّا؟ هل يتكلم مثلما كان يتكلم جاك لامونت؟»

«إنَّ حديثه أقل من حديث الأمير المسكين جاك شبهًا بمعهد تروي للتكنولوجيا، وأكثر منه شبهًا بجريدة «هوم جورنال»، وحس الفكاهة لديه أعظم كثيرًا مما يتمتع به الأمير. عندما أخبرتُه أن قَسَم رجال التأمين يجب أن يكون «يُمكنكَ المراهنةُ بحياتكَ على صدْق كلامي!» انفجر في الضحك. أما جاك، فما كان ليُدرك معنى هذا أصلًا. على أيِّ حال، لقد تأخَّر الوقتُ جدًّا، وأنا نعسانةٌ للغاية بحيث لا يُمكنني أن أشغل بالي بالفِتيان ولا بالمزاح كذلك. تُصبحين على خير!»

في اليوم التالي، حمل البريد الصباحي لدورثي رسالةً ضخمة مُزيَّنة بطوابع بريد إنجليزية. أغلقت دورثي الباب، وفتحت المظروف، ووجدَت عدة أوراق رقيقة تحمل عنوان نادي «بلووتر كلَب، بول مول».

قرأت دورثي: «أذكُر قولًا مأثورًا قديمًا مفادُه أنَّ على المرء ألَّا يقلق أبدًا من مشكلةٍ ما قبل وقوعها. فمنذ أن ودَّعتُكِ وحتى هذه الليلة التي أكتب فيها ظللتُ أتوجَّسُ خيفةً من مشكلةٍ لم تكن موجودة، مما تسبَّب لي في إزعاجٍ كبير. لقد كنتِ معي عندما تلقيتُ الرسالةَ التي تأمرني بالعودة إلى إنجلترا، ولا أدري إن كنتُ نجحتُ في إخفاء كل علامات قلقي أم لا، لكنَّ لدينا الآن في الأسطول رجلًا لا يتردَّد في فسخ قرار أيِّ محكمةٍ عسكرية؛ ولذا خشيتُ من إعادة فتح قضية «صخرة بحر البلطيق»، وهو ما كان من المُمكن أن يعني تحطيم مسيرتي المهنية. لقد حسمتُ أمري بأنه إذا ساءت الأمور تمامًا، فسأتوجَّه إلى الغرب وأصبح راعيَ بقر، لكنَّ مسافرًا تعرفتُ إليه على متن الباخرة «إنثيوزييَانا»، أخبرني ما ساءني من القول بأنَّ شخصية راعي البقر هي إلى حدٍّ بعيدٍ شخصيةٌ من الماضي لا يُقابلها المرءُ إلا في كتابات ستيوارت إدوارد وايت، وأُوين ويستر، والعديد من الرجال المشهورين الآخرين الذين ذكر أسماءهم. ومن ثمَّ فقد عبرتُ المحيط كما ترين، وأنا أشعر بقدرٍ غير قليلٍ من الكآبة؛ إذ وجدتُ وظيفتي الحالية مُهدَّدة، ومستقبلي غير مضمون.

عندما وصلتُ إلى لندن أخذتُ غرفة في هذا النادي الذي انضممتُ إلى عضويته منذ بضع سنوات، وأثبَتُّ حضوري في الحال لدى الأميرالية. وهناك عجزتُ بالرغم من اجتهادي، عن معرفةِ المطلوب مني. كان باستطاعتي بالطبع أن أذهب إلى عمي، الذي يعمل في الحكومة، وربما كان سيُبصِّرني بحقيقة الأمور، وإن لم تكن له علاقة بالبحرية، لكنني أُفضِّل تحاشي عمي ميتجرن. لقد ربَّاني مذ كنتُ صبيًّا صغيرًا، ويبدو أنه خجولٌ، بلا مبررٍ واضح، من ثمرة تربيته. إنَّ ابنه هو ذاك المُلحَق الدبلوماسي في سفارتنا ببطرسبرج الذي حدثتُكِ عنه.»

توقفَت دورثي عن القراءة قليلًا.

وقالت لنفسها: «ميتجرن، ميتجرن. لا شكَّ أني أعرف هذا الاسم!»

وضعت دورثي الرسالة، وضغطت على الزر الكهربائي، وفتحت الباب. عندما دخل الخادم قالت:

«اسألهم من فضلك في مكتب الإدارة إن كان لديهم أي مرجع مُتخصِّص في سير أعلام بريطانيا، وإذا وجدته أحضره إليَّ إذا سمحت.»

حضر الخادم بعد قليلٍ وفي يده كتابٌ أحمر اللون اتَّضح أنه «دليل أعلام» باللغة الإنجليزية طُبع من سنتَين. وعندما قلَّبت دورثي الصفحات وصلت إلى ميتجيرن.

«ميتجيرن، الدوق الثاني عشر، عُيِّن عام ١٦٨١، هيربيرت جورج آلان.» تلا هذا عددٌ من الألقاب الأخرى، كانت المعلومة هي أن الابن والوريث هو ماركيز مدينة ثاكستيد، وكان يعمل بالسلك الدبلوماسي، وأن اللورد ميتجيرن كان وزير شئون الدول التابعة للتاج البريطاني في حكومة صاحبة الجلالة؛ وأخيرًا وردت قائمةٌ بأماكن الإقامة والنوادي. وضعت دورثي الكتاب واستأنفت قراءة الرسالة.

«أعتقد أنه كان ينبغي لي أن أُخبركِ أنني عندما أصل إلى سانت بطرسبرج سأكون حريصًا على تجنُّب ابن عمي ثاكستيد بقدْرِ ما أنا حريصٌ على تحاشي أبيه في لندن. ولذا أقمت في ناديَّ، وأخذتُ أقرأ الصحف. يا إلهي، من الواضح أنها ستكون رسالة طويلة جدًّا. أرجو ألا تُمانعي في هذا. أعتقد أنكِ ربما تكونين مهتمة بمعرفة كيفية إدارة الأمور هنا.

بعد يومَين أو ثلاثة من الانتظارِ المُفعمِ بالقلق جاءت رسالةٌ حاسمةٌ من الأميرالية تأكَّدَت بها أسوأُ مخاوفي، وأدخلتْني مرةً أخرى في حالةِ القلق من وقوع المشاكل. لقد جاءتْني الأوامر بإثبات حضوري في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، في قاعة الاجتماعات رقم ٥، بمبنَى الأميرالية، وأن أُحضِر معي كلَّ التفاصيل الخاصة بإطلاق النار من المدفع رقم كذا من معدات السفينة «كونسترنيشن» في ذاك اليوم. أتعجَّبُ منذ ذلك الحين من أنني لم أدمن الخمر؛ فلدينا كلُّ ما يعين على ذلك في هذا النادي. غير أنني ذهبتُ في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي إلى حجرة الاجتماعات ووجدتُ خمسةَ رجالٍ مُجتمعين هم الأشد عبوسًا على الإطلاق بين جميع مَن دعيت إلى مواجهتهم من قبل. كان مظهرهم في المجمل أسوأ بعشرِ مراتٍ تقريبًا من المحكمة العسكرية التي واجهتُها سلفًا. كان أربعةٌ منهم غير مألوفين لي، لكنني عرفتُ الخامسَ على الفور؛ إذ رأيتُ صورته قبل ذلك كثيرًا. إنه الأميرال السير جون بِندرِجست، والمعروف في البحرية بلقب «العجوز الغضوب»، إنه رجلٌ مخيفٌ صارمٌ لا يعرف شيئًا ألبتَّة عن الرحمة. إن الرجال في البحرية يقولون إنه يبدو سيئ الطبع للغاية بسبب أسفه لأنه لم يُولد قاضيَ إعدامات. تخيَّلي وجهًا واضحَ المعالم كأنه وجه سيناتور روماني عجوزٍ متجهم؛ وجهًا قاسيًا كالرخام، باردًا مثله تمامًا، ويكاد يقترب من بياض لونه كذلك، وجهًا لم يُنقِذه مِن أن يبدو كقناع الموت إلَّا عينان ثاقبتان تتألقان فيه كأنهما قطعتان من الفولاذ. عندما ينظر المرءُ تجاهه

يستحيل عليه تمامًا أن يُصدِّق أن مثل هذه الشخصية البارزة كانت في يومٍ من الأيام مجرَّد طفلٍ يُدبِّر المكائد المُضحكة لمُدرِّسيه. الحق أنَّ الأميرال السير جون بِندِرجست يبدو وكأنه قد نبَت من الأرضِ شديدَ التجهُّمِ يرتدي زيه النظامي كاملًا، كأولئك الجنود الذين تحكي عنهم الأساطير. لقد بُوغِتُّ أشد المباغتة عندما واجهتُ رجلًا بهذه الصفات لدرجةِ أنني لم أرَ ألبتَّة صديقي القديم، بيلي ريتشاردسون، جالسًا أمام الطاولة بصفتِه واحدًا من الموظفين الثانويين في اللجنة. قال لي بيلي إن ما حوَّل شفتيَّ بدا شاحبًا عندما أدركتُ ما كنتُ مقبلًا عليه، وأظن أنه كان مُحِقًّا. عزائي أن وجهي لم يتورَّد خجلًا كما هي عادتي المُربِكة. لقد منَحني شخصٌ ما كرسيًّا، ثم بدأ رجلٌ قصيرُ القامة وجهه شبيهٌ بوجه ابنِ مِقْرَض يوجِّه إليَّ الأسئلة، وهو في ذلك يرجع بين الحين والآخر إلى ورقةٍ فولسكاب كانت أمامه. وكان الآخرون متأهبين لتدوين الإجابات.

«متى أُطلِقت نيران المدفع الجديد من على متن السفينة «كونسترنيشن» في بحر البلطيق؟»

عزيزتي الآنسة إمهيرست، لقد اعترفتُ لكِ من قبلُ أنني لستُ متوقدَ الذكاء، وفي الواقع، لم يكن هذا الاعتراف ضروريًّا بالمرة؛ فلا بد أنكِ أدركتِ هذه الحقيقة سريعًا، لكن اسمحي لي هنا أن أتباهى في سطرٍ أو سطرين بمأثرتي الوحيدة، والتي هي عبارةٌ عن دقةٍ حسابية. إنني عندما أنفِّذ التجارب العِلمية لا أُدوِّن النتائج بالحساب التقريبي؛ لقد كانت إجابتي عن سؤال الرجل ذي الوجه الشبيه بوجه أبي مِقْرَض فوريةً وكاملة.

لقد أجبتُه قائلًا: «في الساعة العاشرة وثلاثٍ وعشرين دقيقةً وسبعَ عشرةَ ثانيةً من صباح يوم الثالث من شهر مايو من هذا العام.»

بقيَ الموظفون الخمسة الكبار متبلدين تمامًا، لكنَّ شيئًا من الدهشة بدا على الكاتبَين المُختزِلَين، وهمس أحدُهما قائلًا: «هل قلتَ خمس عشرة ثانية يا سيدي؟»

قال السير جون بندرجست بصوتٍ فظٍّ أجش بدا وكأنه آتٍ مِن ضريح: «قال سبع عشرة ثانية.»

«مَن الذي صوَّب المدفع؟»

«أنا يا سيدي.»

«لماذا لم يَفعل الجنديُّ المِدفَعِيُّ هذا؟»

«لقد فعل يا سيدي، لكنَّني كنتُ أراقبه أيضًا ورفعتُ فوَّهة المدفع بمقدار ٠٫٠٠٠٣٢٧ من البوصة.»

«هل كان مِدفعِيُّكَ غير دقيقٍ إذن إلى هذا الحد؟»

«لا يا سيدي، لكنني وزنتُ الذخيرةَ من قبلُ ووجدتُ أن وزنها ناقصٌ بمقدار أونصتَين وسبع وثلاثين قَمحة.»

ينبغي ألَّا أُضجرك بالأسئلة والأجوبة كلها. إنما أكتب هذه فقط على سبيل المثال. لقد سألوني عن ارتداد المدفع، وأجزاء التشغيل فيه، وحالة العديد من الأشياء بعد إطلاق النار منه، وقد استطعت لحُسن الحظ أن أجيب في الوقت المحدَّد تمامًا عن كل سؤالٍ وجَّهوه لي. في نهاية الاستجواب طلب مني أحدُ القضاة أن أُعبِّر، بطريقتي الخاصة، عن رأيي في المدفع. وعندما طرح عليَّ هذا السؤال حَدَجَه الأميرالُ السيرُ جون ببصره؛ لأن الإجابات التي قدمتُها كانت توفِّر مجتمعة بالنسبة إلى خبير، رأيًا دقيقًا عن المدفع، وذلك بافتراض صحة تصريحاتي التي أؤكد أنها كانت صحيحة. مع ذلك، وبما أن السير جون لم يُعلِّق شفهيًّا على سؤال القاضي، قُلتُ رأيي في المدفع بقدرِ ما استطعتُ من إيجاز.

«شكرًا لك أيها المُلازم دروموند.» هكذا قال السير جون بصوته العالي العميق، وكأنما كان ينطق بحكمٍ بالعقوبة، وبهذا تمَّت شهادتي، وانفضَّت اللجنة.»

كنتُ قد خرجتُ إلى الشارع قبل أن يَلحق بي بيلي ريتشاردسون، وعندئذٍ لفتَ انتباهي إليه بضربةٍ مدوِّيةٍ على الكتف.

وصاح قائلًا: «آلان، يا فتاي، حُقَّ لك أن تفخر بما صنعت. إنه يوم سَعدك.»

سألتُه وأنا أصافحه: «كيف هذا؟»

«يا إلهي، إننا نُحقِّق في أمر هذا المدفع اللعين منذ أسابيع، والسؤال هو هل نَصنع المزيد منه أم لا. إنك تعلم مدى وضاعة العجوز الغضوب هذا وتشبُّثه برأيه. والحق يا فتاي أنك أيَّدتَ رأيه في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ عن المدفع. إنه رجلٌ وحشيٌّ مُستبدٌّ مُستأسِدٌ يودُّ بقيةُ أعضاء اللجنة لو يخالفونه إن استطاعوا، لكنك أفسدتَ خُططهم. يا إلهي، إن السير جون لم يُوجِّه قط كلمة شكرٍ واحدة لأي إنسانٍ منذ أن وُلد وحتى الساعة الحادية عشرة وسبع وعشرين دقيقةً وخمس عشرةَ ثانيةً من صباح اليوم؛ مثلما كنت ستَقول أنت.»

وفي الوقتِ الذي أكتبُ فيه هذه الرسالة يبدو أن حَدْسَ بيلي هذا قد وجدَ ما يُسوغه؛ لأن شريط التسجيل الذي أستمع إليه في النادي أعلن لِتوِّه أن أعضاء اللجنة صوَّتوا بالإجماع لصالح صناعة المدفع، وأضاف أن هذا يُعدُّ انتصارًا لرئيس اللجنة؛ الأميرال السير جون بِندِرجست، وقد تلا اسمه هذا عدةُ اختصاراتٍ تُشير إلى أوسمته وألقابه العسكرية.

عزيزتي الآنسة إمهيرست، لقد طالت هذه الرسالةُ، مثلما كنت أخشى إلى حدِّ الإفراط، وكلها كلام عني مثلما كان أول حديثٍ بيننا. لكن من ناحيةٍ أخرى، فأنتِ الشخص الوحيد، على الجانب الآخر من المحيط، الذي أفضيتُ إليه بهموم نفسي، وأنا مؤمنٌ برقةِ فؤادك الشديدةِ لدرجةٍ تجعلني واثقًا أنكِ لن تُوبِّخيني هذه المرة على تخطِّي الحدود المقبولة للمراسلة الودية. لقد أمضيتُ الأيامَ الطويلة السابقة كلَّها في اكتئابٍ شديد، ولهذا فإن ردة الفعل المفاجِئة تدفعني بقوةٍ إلى الخروج إلى «بول مول» وقذف قلنسوتي في الهواء والهتاف بأعلى صوتي؛ من الواضح جدًّا أن هذا الفعل إنما هو من بقايا طموحي السابقِ أن أكون راعي بقر. بصراحةٍ شديدة، يبدو أن القضية الروسية قد نُسيَت بالفعل، لكن اثنَين فقط لم ينسياها؛ قائدي العجوز البدين على متن السفينة «كونسترنيشن»، وعمي. لقد أجبَرَني السير جون المتعِب هذا على الإبحار عبر المحيط فقط من أجل الإدلاء بشهادتي، والتي استغرقَت خمسًا وثلاثين دقيقة تقريبًا، بينما كان بوسعه أن يتحلَّى بقليل من الصبر وينتظرَ حتى تصل السفينة «كونسترنيشن» بنفسها، أو أن يرسل إلينا برقيةً كي نجرِّب المدفع في بار هاربر. لكنني أظن أنه بعد حادثي المؤسف مع روسيا توجسَت حكومتُنا خِيفةً من احتمالية أن أُشوِّه بقعةً من بِقاع الولايات المتحدة الأمريكية، ومن احتمالية أن تُضطرَّ هي لتحمُّل العواقب. ولذا من المحتمل رغم كل شيء أنه كان من الأوفر لهم أن يستقدموني على متن الباخرة «إنثيوزيِيَانا».»

بالمناسبة، لقد علمتُ بالأمس أن الأوامر صدرت للسفينة «كونسترنيشن» بالعودة إلى مياه الوطن؛ ولذا أتوقَّع أن أرى جاك لامونت قريبًا. سوف تخرج السفينة من الخدمة في مرفأ مدينة بورتسمث، وأظن بعد ذلك أنني أنا وهو سننال حريتنا لمدة ستة أشهر. إنني أتطلع إلى أن يُعد لي جاك بعض الأطعمة الروسية الشهية على غرابتها عندما نصل إلى ورشة الحدادة الخاصة به في سانت بطرسبرج. لو تدبرتُ أمري في روسيا كما أرجو وأتوقَّع، فسأَقضي بقية إجازتي في الولايات المتحدة. أنا لم أزُر إلا القليل جدًّا في الواقع من معالم هذا البلد العظيم، ولديَّ توقٌ كبيرٌ لزيارة المزيد من معالمه. عندما يكون المرء في الخدمة على متن السفينة لا يُمكنه أن يتنزه على الشاطئ إلا نزهات قصيرة جدًّا. أرغب في زيارة شلالات نياجارا. يبدو من السخف أن يُبحر المرء على طول الساحل الأمريكي من كندا وحتى نيويورك، ولا يدخل مرةً واحدةً إلى داخل البلد بحيث يرى الشلالات العظيمة.

إن النُّظُمَ في روسيا مُعوِّقةٌ بعض الشيء، لكنني بالتأكيد سوف أعلم في غضون أسبوعين أو ثلاثة إن كنتُ سأنجَح أم لا. إذا لم يتسنَّ لي النجاح، فلا فائدة إذن من

الانتظار هناك؛ وسأحاول أن أقنع الأمير بمرافقتي إلى أمريكا. خلال الأسابيع التي سأنتظر فيها في سانت بطرسبرج سوف أواصل التأثير عليه حتى يقتنع بالتفاهة المُطبِقة التي يتصف بها أيُّ إنسانٍ لم يدرس محطةَ توليد الطاقة الكهربائية الرائعة عند شلالات نياجارا. علاوة على ذلك فهو مهتمٌّ بالنظام التعليمي للولايات المتحدة. لقد قال لي، ونحن في الطريق إلى المحطة في صباح ذلك اليوم، إن النظام التعليمي للولايات المتحدة هو الأروع في العالم من دون شك؛ وذلك لأنه وجد أن معرفةَ صديقتكِ، الآنسة كاثرين كِمْت، بعلم الكهرباء والتعدين والفلسفة الطبيعية وعددٍ كبيرٍ من الأمور الأخرى التي تُثير اهتمامه، أكبرُ من معرفة كل السيدات اللاتي قابلهنَّ من قبلُ في أوروبا مجتمِعات. إنه يعتقد أن هذا النوع من التعليم هو النوع المناسب للفتيات، أما أنا فقد أدهشني هذا كلُّه نوعًا ما؛ لأن صديقتكِ، وإن كانت ساحرة الجمال، فهي لم تَقُل أيَّ شيءٍ، أثناء معرفتي القصيرة للغاية بها، يجعلني أشك حتى في إمكانية أن تكون قد تلقَّت تعليمًا في مجال العلوم الطبيعية.

عزيزتي الآنسة إمهيرست، إنني أتطلع كل يومٍ لتلقِّي رسالة منكِ، لكنَّ الأميرالية لم تتلقَّ أيَّ رسالةٍ بعد، وهم عندما يتلقون رسالةً فسيُمرِّرونها إلى أي مكانٍ في العالم أكون فيه.»

الفصل الثامن

عندما يأتي جوني إلى أرض الوطن مع زحف الجيش

إن فندقًا صيفيًّا يزخر بمساحة ألف فدان من الغابات التي تقوم مقام فناءٍ خارجيٍّ لذلك الفندق، ليُوفر لنزلائه، حتى وإن كانت غرفه الوافرةُ كلها مشغولةً، مكانًا واحدًا على الأقل لكلٍّ منهم يستطيع أن يعدَّه ركنه المُفضَّل. ومثل هذه الغابة ذات الامتداد الفسيح لتتمكَّن بنجاحٍ من تحدِّي فنِّ البستنة. إنها تُصرُّ على أن تُترك وشأنَها، ثم إنَّ اتساعها نفسه يُقيم عائقًا اقتصاديًّا يَحُول دون وجود مَجازاتٍ مكسوةٍ بأناقةٍ بالحصباء. كان يوجد في السابق كثيرٌ من المجازات التي خضعت لفن البستنة في المنطقة المُجاوِرة للفندق مباشرةً، لكنَّ بعض هذه المجازات دفعه الطموحُ إلى النفاذ إلى قلب الغابة؛ فارتدَّت عن التحضُّر الذي يُوحي به منظرُ الحصباءِ المطروقة إلى ممرَّات بدائية في الأدغال، لكنَّها ظلَّت على أيِّ حال تُفضي بالسالكِ إلى شيءٍ من المناظرِ الخلابةِ الذائعةِ الصِّيت؛ شلالٍ، أو منبرٍ صخريٍّ منتصِب كأنه برج، أو صورة نحتتها الطبيعةُ في المنحدر الصخري تُشبه وجه إنسانٍ، أو لسانٍ صخريٍّ ناتئ فوق هوة الوادي السحيقة، وعادةً ما كان يُقام على هذا اللسان الصخريِّ منزلٌ صيفيٌّ ريفيٌّ أو سرادق تُنحتُ على خشبِهِ أسماءٌ غيرُ معروفة؛ فيُصبح الملاذَ الأخير للمَغمورين من الناس لنَيل الخلود بنصل مطواةِ جيب.

عثرت دورثي لنفسِها على جنةٍ صغيرةٍ، لا يؤدي إليها أيُّ طريقٍ ظليلٍ يُمكن رؤيته، وذلك لأنها لم تكن واضحةً بما يَكفي كي تستحقَّ أن يذكرها الدليلُ المجانيُّ الصغيرُ الذي يقدِّمه الفندق متمثلًا في نشرة دعائية من ورقٍ مصقولٍ مليءٍ برسومٍ متدرجةِ الألوان وعباراتٍ مغالية في مديح الغابة تصفُها بأنها جنة على الأرض، وكانت الأسعار لليوم أو الأسبوع مكتوبةً على الغلاف لتبيِّن شروط الاستمتاع بهذه الجنة.

كانت تعريشة دورثي خضراء اللون، معتدلة البرودة، بلورية المنظر، أما وعورة صخورها فقد ألانتها وفرةُ أوراق الأشجار. كان ثمة ينبوعٌ رائقٌ، في مكانٍ عالٍ بعيدٍ عن الأنظار بين أوراق النباتات ينساب ماؤه على سطح المنحدر الصخري رنانًا في محاولة دائمة لملء بحيرة صغيرةٍ شديدة الصفاء عند السفح، لكنها لم تكن تمتلئ قط. كانت الطحالب المحيطة بهذه البِركة مخملية جميلة، لكنها مع ذلك كانت شديدة الرطوبة بحيث لا تَصلُح أن تكون أريكةً لإنسان، إلا إذا كان هذا الإنسان شجاعًا بما يكفي للمخاطرة بالتعرض للآلام الروماتيزمية التي أعقبَت نومةَ «ريب فان وينكل» الطويلةَ في تلك المناطق نفسها، ولذا كانت دورثي دائمًا تحمل معها من الفندق أرجوحةً شبكيةً خفيفةً كالريشة تُشبه بيت العنكبوت، وكانت تُعلِّقها ببراعةٍ بين شُجيرتَين تكاد ليونتُهما اللطيفةُ تُضفي تأثيرًا روحيًّا على هذه الشبكة القادمة من عالم الخيال والمعلَّقة في وادٍ من عالم الخيال؛ وفي هذا المكان كانت الفتاة تتأرجَح في ترفٍ بين المباهج المريحة التي منحها إياها تراخٍ كان لا يزال جديدًا جدًّا عليها فلم يتحوَّل بعدُ إلى شيءٍ مُعتادٍ أو مُمِل.

كانت تأمُل دائمًا أن تقرأ كثيرًا وهي على الأرجوحة الشبكية، لكن الكتاب كان ينزلق من يدها في كثير من الأحيان ويَختفي بين الطحالب، فتستلقي على ظهرها وتنظر إلى الأقراص السماوية الزرقاء الصغيرة التي تظهر من بين متاهة الأوراق الخضراء المعلَّقة فوقها كأنها رقعة شطرنج. بعد ظهر أحد الأيام، وبعد أن خذل دورثي وسقط من يدها كتابٌ هو أحدث ما أُلِّف في الأدب القصصي، وكان كتابًا مُدوَّنًا على غلافه الورقي الذي يَحمي جلدته القماشية، وبحروفٍ واضحةٍ «دولار ونصف»، لكنه كان يُباع في متاجر التَّجزئة الكبرى بدولار وثمانية عشر سنتًا فقط، وكانت هي مُستلقيةً على ظهرها شِبه منوَّمةٍ مغناطيسيًّا بتأثير وميض أوراق النباتات الخضراء التي فوقها، في تلك اللحظة سمعَت صوتًا عذبًا يتغنَّى بأغنيةٍ مَرِحةٍ من أغاني الحرب الأهلية، وهكذا علمَت أن كاثرين كانَت تُعلن بهذا عن اقترابها منها.

عندما يعود جوني إلى أرض الوطن مع زحف الجيش،
مرحى! مرحى!
سنُرحِّب به ترحيبًا حارًّا،
مرحى! مرحى!
سوف يبتهج الرجال، ويهتف الأولاد،

وستخرج السيدات كلهن من البيوت،
وسنبتهج كلنا.
عندما يعود جوني إلى أرض الوطن مع زحف الجيش.

لكنَّ دورثي عادَت بذاكرتها إلى مرحلةٍ أبعد في تاريخ بلدها، وقلَّدت بصوتٍ خافتٍ صيحةَ الحرب عند الهنود الحُمر؛ وذلك لتُعلم القادمة أن قدومها مرحَّبٌ به، وبعد قليلٍ اندفعَت كاثرين بعنفٍ عبر الشجيرات الصغيرة الكثيفة.

وصاحت قائلةً: «ها أنتِ ذي هنا، يا آنسة كسلانة.»

«ها أنا ذي، يا آنسة نشيطة، أم هل أناديكِ آنسة الطاقة التطبيقية؟ كاثرين، لقد مشيتِ بسرعة كبيرة حتى تضرَّج وجهُكِ بالحمرة.»

«ليس هذا من الجهد، وإنما من الغيظ. لقد عانيتُ وقتًا عصيبًا للغاية يا دورثي. إنه القلق بشأن التهذيب الملائم للآباء هو الذي يُفسد الجهاز العصبي للأبناء الأمريكيِّين. تُدربينهم على الطريقة التي ينبغي أن يسلكوها، وعندما يَكبُرون يَحيدون عنها. ليس أفظع من أن يكون لديكِ والدان يَحسبان أنهما يتحليان بحس الدعابة. حمدًا للرب أن أمي لا تتحلَّى بمثل هذا!»

«إذن فوالدكِ هو الذي كان يُسيء التصرف، أليس كذلك؟»

«بلى، بالتأكيد. إنه يُعامل أخطر مسألةٍ في حياة المرأة وكأنها الشيء الأحدث من نوعه في «الحياة».»

اعتدلَت دورثي في جِلستها في الأرجوحة الشبكية.

وقالت: «أخطر مسألة؟ هذا يعني عرض زواج. يا إلهي يا كيت، هل عاد رجل التأمين هذا إلى هنا مرةً أخرى؟»

«أيُّ رجل تأمينٍ هذا؟»

«يا إلهي، كاثرين أيتها الفاتنة المتحجِّرة القلب، وهل هناك غيره؟ اجلسي هنا بجواري على الأرجوحة الشبكية، وأخبريني كل شيءٍ عن الموضوع.»

رفضَت كاثرين قائلةً: «لا، أشكرك. إن وزني أثقل من وزنك، ولا أستطيع أن أخاطر بانكسار رقبتي بانهيار قطعة القماش الرقيقة هذه. لا بد أن أحرص على نفسي من أجله.»

«إنه رجل التأمين إذن الذي تُراعين مصالحه هذا، أليس كذلك؟ هل أمَّنتِ على حياتكِ عنده؟»

«يا إلهي، إنكِ تسيئين التصرُّف كأبي تقريبًا، لكنكِ لستِ مضحكةً مثله. أظنكِ تقصدين السيد هِندِرسون. إنه رفيقٌ مُبهجٌ للغاية في الرقص، لكن الحياة يا عزيزتي دورثي، لا تتَّبع كلها إيقاعات موسيقى ستراوس لرقصات الفالس.»

«هذا صحيح دون أدنى مناقشةٍ يا كيت، وتلك الآراء تجعلكِ جديرةً بالثناء. مَن الرجلُ إذن؟»

واصلَت كاثرين كلامها في جدية: «إنَّ نفس المرء لتطمح إلى أشياءَ أسمى من الأعمدة المخصصة للكتابة عن المجتمَعات الراقية في جريدة «نيويورك صنداي»، ومن الثَّرثرة الفارغة في قاعة رقصٍ مشتعلةٍ بالإثارة.»

«هذه نقطةٌ أخرى تُحسب لكِ يا كيت، وإني لأزداد احترامًا لكِ. فهمتُ كل شيءٍ الآن. إن هذه الكلمات الجليلة التي تقولينها لتشيرُ مباشرةً إلى كتاب «الحجر الرملي الأحمر العتيق» الذي ألَّفه هيو ميلر وإلى أعمالٍ من هذه النوعية، والآن أتذكَّر أغنيتك «عندما يعود جوني إلى أرض الوطن مع زحف الجيش». أفهم من هذا أن جاك لامونت قد وصل.»

«لا، لم يفعل.»

«لقد أرسل لكِ رسالةً إذن، أليس كذلك؟»

«لم يُرسِل.»

«يا إلهي، حسنٌ، إنني أستسلم. أخبريني عن المأساة بطريقتك.»

للإجابة عن هذا السؤال سحبَت كاثرين يديها من وراء ظهرها، وناولَت صديقتها رقعة ورقٍ كانَت تُمسكها مذ دخلت عليها. رأَت دورثي شعارًا من شعارات النبالة مرسومًا في أعلى الورقة، وكان مكتوبًا في أسفلها، وبكلماتٍ رسميةٍ للغاية، ما مؤدَّاه أنَّ الأمير إيفان ليرمونتوف يُقدِّم أحرَّ تحاياه للقبطان كِمْت؛ القبطان السابق في البحرية الأمريكية، ويطلب الإذن في التواصل المحترم الرسمي مع ابنة القبطان. رفعَت دورثي عينيها عن الرسالة، فقالَت صديقتها بهدوء:

«أترين، إنهم في حاجةٍ إلى كاثرين أخرى في روسيا.»

«آملُ ألَّا تكون مثل أخرى سبقَتها؛ إنْ كان كلُّ ما قرأتُه عنها صحيحًا. كانت هذه الرسالة لأبيكِ إذن، أليس كذلك؟»

«بلى، ويبدو أنه يَعُدُّها مزحةً كبيرة. قال إنه كان سيرسل برقيةً بمُوافقته، لكن بما أن السفينة «كونسترنيشن» أبحرَت بعيدًا، فسيُحاول الوصول إليها عن طريق الإرسال التلغرافي اللاسلكي، وسيحصل على الفتى بهذه الطريقة: إنه يَقترح أن تُلتقط لي صورٌ

فوتوغرافيةٌ جديدةٌ كثيرة، وذلك كي يتمكَّن من تسليمها للمراسلين عندما يسألون عن التفاصيل. ويزعم أنه يرى بخياله عنوانًا ضخمًا مطبوعًا بالأحرف السوداء في الجرائد المسائية يقول: «أميرٌ روسيٌّ يأسِر واحدةً من أجمل بنات بلدنا»، ثم ألمح في شيءٍ من الإهانةِ إلى أنه ربما يكون الأفضل بالرغم من هذا كله عدم استخدام صورتي؛ لأنها قد لا تعزِّز الصورة المتخيَّلة عن «الابنة الجميلة» التي يتحدَّث عنها عنوان الجريدة.»

«نعم يا كيت، إنني أفهم أن مثل هذا التعامل مع موضوعٍ حيويٍّ كهذا كان أمرًا مُزعجًا للغاية.»

«مزعج؟ بالتأكيد كان كذلك! لقد زعم أنه سيُثبِّتُ هذه الرسالةَ بمسمارٍ صغيرٍ في لوحة الإعلانات في رَدهة الفندق، كي يعلم الجميعُ مدى سموِّ مكانة نزلاء فندق ماترهورن. لكنَّ أكثرَ ما يثير السخط في هذا الموقف هو أن هذه الرسالة ظلَّت قابعةً أيامًا طويلةً في منزلنا في بار هاربر. أنا متأكدةٌ تمامًا أني أوصيتُ بتمرير الرسائل إلينا، لكن، لَمَّا لمْ يصل أيُّ شيء، أرسلتُ برقيةً بالأمس إلى مُستأجري منزلنا، وها قد وصلَت الآن كومةٌ كاملةٌ من الرسائل المتأخِّرة، ومعها رسالةٌ موجزةٌ من المُستأجِر يقول فيها إنه لم يكن يعرف عنواننا. سوف تُلاحظين في آخر الرسالة أن الأمير يطلب من أبي أن يتواصل معه بإرسالِ ردٍّ إلى السفينة «كونسترنيشن» في نيويورك، والآن لقد أبحرَت السفينة إلى إنجلترا، ولا بد أن جون المسكين ظلَّ ينتظر وينتظر دون جدوى.»

«أرسلي على عنوان السفينة «كونسترنيشن» بإنجلترا.»

«لكنَّ جاك قال لي إنَّ السفينة «كونسترنيشن» خرجت من الخدمة فور وصولها، ومن المحتمل أنه سيكون قد سافر إلى روسيا.»

«لو أرسلتِ إليه على عنوان الأميرالية في لندن، فستمرر الرسالةُ إلى أي مكانٍ يكون فيه.»

«وما أدراكِ بهذا؟»

«لقد سمعتُ أن هذا هو المعمول به.»

«لكنكِ لستِ واثقةً من هذا، وأنا أريد أن أتأكَّد.»

«هل تحبينه حقًّا يا كيت؟»

«بالتأكيد أحبُّه. أنتِ تعرفين هذا حق المعرفة، ولا أريد لأي سوء فهمٍ غبيٍّ أن يقع في البداية، كذلك الذي يسمح لكاتبٍ سخيفٍ بمواصلة قصته حتى الصفحة الأربعمائة من مثل هذا الهراء»، ولمسَت بإصبع قدمِها برفقٍ ذلك المجلدَ المُلقى على الأرض تحت الأرجوحة الشبكية دون ذنب.

«إذن لماذا لا تُقرين رأي والدكِ وتُرسلون برقية؟ فلستِ أنتِ مَن سيرسلها على أيِّ حال.»

«لا يُمكنني الموافقة على هذا. سوف يبدو وكأننا متلهفون على الأمر، أليس كذلك؟»

«اسمحي لي أن أرسل أنا برقيةً إذن.»

«أنتِ؟ لِمَن؟»

«ناوليني هذا الكتاب الذي تَحتقرينه يا كيت، وسوف أكتب برقيتي على الورقة البيضاء الموجودة في أوله. وإذا وافقتِ على مضمون الرسالة، فسأذهبُ إلى الفندق وأرسلها في الحال.»

أعطتها كاثرين الكتاب، وأعارتها القلم الرصاص الفضيَّ الصغير الذي كان يصلصل وهو مُعلقٌ، مع حِلًى صغيرةٍ أخرى، في سلسلة حزامها. كتبَت دورثي رسالةً بعجلةٍ، وقطعَت الورقة، وناولتها لكاثرين التي قرأَت الآتي:

آلان دروموند، نادي بلووتر كلَب، بول مول، لندن. أخبِر لامونت أن رسالته إلى القبطان كِمْت تأخَّرَت، ولم تَصِل القبطانَ إلَّا اليوم. سوف يُرسَل إليك ردُّ القبطان كِمْت ضمن مظروفٍ على عنوان ناديك. رتِّب لتمريرِه إذا غادرتَ إنجلترا.

دورثي إمهيرست

عندما انتهت كاثرين من القراءة رفعت بصرها إلى صديقتِها، وهتفَت قائلةً: «حسنًا!» مُودِعةً تلك الكلمة الوحيدة من المعنى ما يوازي في عمقه عُمقَ البِركة الصافية التي كانت تقف عند حافتها.

صبغَت الحُمرةُ وجهَ كاثرين وكأنما الشمس الغاربةُ في تلك اللحظة كانت تتألَّق أشد تألقٍ فوقه.

«إنكما تتراسلان إذن، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«وهل هذه حالة ...»

«لا؛ بل صداقة.»

«متأكِّدةٌ أنها ليسَت أكثر من هذا؟»

هزَّت دورثي رأسها.

«دورثي، أنتِ فتاةٌ طيبة؛ أنتِ طيبةٌ بالتأكيد. إنكِ مستعدةٌ لفعل أيِّ شيءٍ كي تساعدي صديقةً في مشكلة.»

ابتسمت دورثي، وقالت:

«إن أصدقائي قليلون للغاية؛ لذا فإن أيَّ شيءٍ أستطيع أن أفعله من أجلهم، لن يكون عبئًا كبيرًا على قدراتي.»

«ومع ذلك يا دورثي أنا مُقدِّرةٌ تمامًا لما فعلتِه الآن. أنتِ لم تكوني تحبين أن يَعرف أيُّ أحدٍ أنكِ كنتِ تراسلينه، ومع ذلك لم تترَدَّدي لحظةً واحدةً عندما رأيتِني قلِقة.»

«في الواقع يا كيت، لم يكن ثمة ما أخفيه. إن ما بيننا لا يعدو كونه تبادُلَ رسائل عاديًّا جدًّا. لقد تلقيتُ منه رسالتَين فقط؛ واحدةً في بار هاربر بعد مغادرته بأيام قليلة، وأخرى أطول من سابقتها عندما وصلنا إلى الفندق، وقد أرسلها من إنجلترا.»

«هل ذهبَت الرسالةُ الأخيرةُ إلى بار هاربر هي الأخرى؟ كيف تسنَّى لكِ أن تتسلميها في حين لم نتسلم نحنُ رسائلنا؟»

«كلا، لم تذهب إلى بار هاربر. لقد أعطيتُه عنوان محاميَّ في نيويورك، وهم مرَّرُوا لي الرسالة هنا. لقد صدرت الأوامر للمُلازم دروموند بالعودة إلى وطنه، أصدرها شخصٌ يملك السلطة لفعل هذا، وقد تلقى الرسالة أثناء جلوسه معي في ليلة الحفل الراقص. لقد تورَّط في مشكلة مع روسيا. أُجري تحقيقٌ في المسألة، لكنه بُرِّئ. لقد رأيتُه قلِقًا نوعًا ما من استدعائه إلى أرض الوطن وأظهرتُ تعاطفي معه بقدرِ ما استطعت، ورجوتُ أن تئول الأمور كلها إلى الأفضل. استأذنني في أن يرسل لي رسالةً يُطلعني فيها على نتيجة التحقيق، ولما كنتُ مهتمةً بالأمر، أذنتُ له بكامل رغبتي، وأعطيته عنواني. كان كلُّ ما في الرسالة التي تلقيتُها يدور عن مشاركته في لجنةٍ عُقدت في الأميرالية. لقد كتب لي من النادي الموجود ببول مول والذي أرسلتُ هذه البرقيةَ إليه.»

ظهرَت في خد كاثرين غمَّازةٌ ماكرةٌ وهي تستمع إلى هذا الشرح الدقيق، وانثنى جانبُ ثغرها بأوهنِ أثرِ ابتسامةٍ يمكن أن يراه أحد. وبدلًا من أن تتغنَّى بكلمات القصيدة، قالتها همسًا:

«نحن عذراوان أضنانا الهوى.»

قاطعتها دورثي: «بل واحدةٌ فقط إذا سمحتِ.»

«مُلتاعتان وإنْ برغمِ أنوفنا …»

«واحدةٌ فقط.»

«لكننا بعد عَقْدَين من يومنا، لن نعود عذراوَين أضنانا الهوى.»

قالت دورثي متظاهرةً بالرزانة والخجل: «يُسعدني أن أُلاحظ أن الرسالة التي أرسلها الأميرُ إلى والدكِ قد أعادتكِ مرةً أخرى إلى السطح المستوي الذي توجد به كتابات جيلبرت وسوليفان، رغم أنه يجدر بكِ في هذا الوادي المُستوحَى من عالم الخيال أن تقتبسي من أوبرا «أيولانثي» وليس من أوبرا «بيشانس».»

«بالتأكيد يا دوت، إن هذا المكان قد يصلح لتجسيد الموضع الظليل بين الغابات الذي تتحدث عنه أوبرا «بايرِتس بينزانس»، سوى أنَّ البحر بعيد للغاية عنا. لنَعد إلى موضوعنا على أيِّ حال، أنا لا أعتقد أننا سنَحتاج أبدًا إلى إرسال هذه البرقية. أنا لا أحب فكرة إرسال البرقيات أصلًا. سوف أعود إلى الفندق، وسأُملي على أبي الطائش هذا كلماتٍ جادةً لا تقلُّ في الأسلوب الفخم الرسمي عن الرسالة التي تلقَّيناها من الأمير. سوف يكتب أبي العنوان على مظروفها ويختمه بالشمع، وإذا تكرمتِ بإرسالها مع رسالتكِ التالية للملازم دروموند، فلا شك أنها ستصل إلى جاك لامونت في النهاية.»

قفزت دورثي من الأرجوحة الشبكية إلى الأرض.

وهتفَت في لهفة: «يا إلهي، سوف أذهب معكِ إلى الفندق وأكتب رسالتي في الحال.»

ابتسمت كاثرين، وأمسكتها من ذراعها، وقالت:

«كم أنت عزيزة لديَّ يا دورثي! سوف أسابقكِ إلى الفندق حالَما نخرج من هذا الدَّغَل.»

الفصل التاسع

في روسيا

حمل مظروف الرسالة التي تلقَّتها دورثي في المرة التالية طوابع بريد روسية، وكان مؤرخًا في ورشة الحِدادة، جادَّة بولشوي بروسبيكت، سانت بطرسبرج. بعد عباراتٍ تمهيديةٍ قليلةٍ، لا حاجة إلى تدوينها هنا، واصل دروموند قائلًا:

«في اليوم التالي لوصول جاك إلى لندن، ولما لم يكن لديه ما يُجبره على البقاء في إنجلترا، بدأتُ أنا وهو رحلتنا إلى سانت بطرسبرج، ونحن نُقيم الآن فوق ورشة الحدادة الخاصة به. لسنا على الضفة الأنيقة من النهر، لكنَّ شارعنا فسيح، وإذا مشينا على أقدامنِا مسافةً قصيرةً جدًّا نستطيع أن نصل إلى جسرٍ يمكننا، بعدما نعبره، التجوُّل بين مجموعةٍ من القصور إذا أردنا ذلك. لمْ يمرَّ على وجودنا هنا إلَّا أربعةُ أيامٍ فقط، لكننا حققنا الكثير بالفعل. لقد مهَّد لي نفوذُ الأميرِ الطريقَ؛ فبالأمس كنتُ في مقابلةٍ رسميةٍ مع شخصيةٍ مُهمةٍ جدًّا في وزارة الخارجية، واليومَ قابلتُ ضابطًا ذا رتبةٍ عاليةٍ في البحرية. لقد حذَّرني الأميرُ من ذكرِ أيِّ أسماء؛ لأن الرسائل، حتى وإن كانت مرسلةً إلى إحدى الفتيات، تُفتَح أحيانًا قبل وصولها إلى الشخص الذي أُرسلَت إليه. إن هذين الموظفَين اللذين تفضَّلا بمقابلتي يتمتَّعان بقدرٍ كبيرٍ للغاية من الكياسة لدرجةٍ تجعلني أشعرُ في حضرتهما بأنني جلف بعضَ الشيء. إنَّ فرنسيتي متزعزعةٌ قليلًا، وكنتُ أخشى ألا تسعفني درجة معرفتي بهذه اللغة، لكنَّ كلاهما يتحدثان الإنجليزيةَ أفضل منِّي بكثير، ويبدو أنه قد سرَّهما نوعًا ما أنني زُرتُ سانت بطرسبرج من تلقاء نفسي لأوضحَ أنني لم أكن أقصد أيَّ فظاظةٍ بتصرُّفي الذي أقدمتُ عليه لسوء الحظ في بحر البلطيق، وقد أكَّدا لي أنهما سيبذلان وسعهما لتلطيف التوتُّر بين بلدَينا. يبدو أن مهمَّتي هنا ستنتهي مبكرًا جدًّا عمَّا توقعتُ، وبعد ذلك سأرحل على متن أسرع باخرةٍ إلى نيويورك، على أمل أن أرى

شلالات نياجرا. لكنَّني واجهتُ خيبةَ أملٍ واحدة؛ فجاك يقول إنه لن يتمكَّن بأيِّ حال من مرافقتي إلى الولايات المتحدة. لقد فشلتُ في أن أُثير فيه أقل قدرٍ من الاهتمام بمحطات توليد الكهرباء في نياجرا. إنه مُصرٌّ على أنه قد اقتربَ جدًّا من الوصول إلى اكتشافٍ في غاية الأهمية، لكنه لم يُفضِ لي بطبيعة هذا الاكتشاف. أعتقد أنه يعملُ بجِدٍّ شديد، حيث يبدو منهكًا ومُرهَقًا للغاية، لكنه هكذا دائمًا. إنه يقتحمُ بقلبه وروحه أيَّ مشكلةٍ تُواجهه، ويصل الليل بالنهار في العمل حتى يحلها.

بالأمس أفزع الشارعَ كله. كنتُ قد عدتُ لتوِّي من مبنى وزارة الخارجية، وصعدتُ إلى غرفتي بالطابَق العلوي، وفي تلك اللحظة دوَّى انفجارٌ هزَّ المبنى من القبو حتى السقف، وجعل نوافذ ورشة الحِدادة في المبنى الخاص بنا ترتجُّ وتصلُّ في الشارع. لقد نجا جاك بأعجوبة، لكنه لم يتأذَّ سوى أنَّ لحيتَه الجميلة تلك أصابتها سفعةٌ سيئةٌ للغاية. لقد حلَقَها، ولا يَملك الآن إلَّا شارِبًا، وصار يبدو كأحد رجال نيويورك تمامًا. لن تَعرفيه إذا قابلتِه في مسرح بروودواي. إن النجَّارين والزَّجَّاجين يعملون اليوم على إصلاح التلف الذي أصاب المبنى. لقد قلتُ لجاك إنه لو استمر هذا الشيءُ فسأُضطرُّ للتعامل مع فندقٍ آخر، لكنه قال إنها لن تتكرر مجددًا. يبدو أنه كان يحاول مزج مادتَين بإضافةِ مادةٍ ثالثةٍ إليهما، لكن المزج وقع بسرعة مفاجئة بحسبِ ما فهمتُ منه. لقد حاول أن يشرح لي ما حدث من تفاعل، كما يُسميه هو، لكن يبدو أنه ليسَت لديَّ المَلَكةُ العقلية لاستيعاب الكيمياء، وعلاوة على ذلك، إذا كان أحدُ انفجاراته هذه سيلقيني من السقف يومًا ما فلن يعزِّيني عندما أسقط على رصيف الشارع أن أعلم على وجه التحديد العناصرَ المختلفةَ التي ساهمَت في رفعي إلى السماء. إن جاك صبورٌ جدًّا في محاولته تعليمي، لكنه لم يستطِع مقاومة الرغبة في جعلي أشعر بالخجل بقوله إن صديقتكِ، الآنسة كاثرين كِمْت، كانت ستَفهم تفاصيل التفاعُل في الحال. إنها بالفعل، على حدِّ قوله، قد حذَّرَته من الكارثة، عندما وضعَت علامةً على فقرةٍ في كتابٍ أعطَته إياه وكانت تلك الفقرةُ تُؤذن بوقوع هذا الشيء على وجه التحديد. لا بد أنها فتاةٌ استثنائيةٌ جدًّا، وهذا يُظهر مدى حماقتي عندما لم أُدرك ألبتَّةَ روعتها هذه عندما كانت معنا.»

تلقَّت دورثي الرسالةَ التالية بعد أسبوع. كان دروموند يُحرِز نجاحاتٍ رائعةً في كلٍّ من وزارة الخارجية والأميرالية الروسية. كان جميعُ الموظفين الذين التقى بهم في غاية اللطف كما كانوا شديدي الحرص على تعزيز مصالحه. لقد كتب عن سوء الفهم

السائد في إنجلترا حول روسيا، وعبَّر عن عزمه على فعلِ ما يستطيع عندما يعود لمحو تلك الانطباعات الخاطئة.

واصل دروموند كلامه قائلًا: «بالتأكيد لا يستطيع أيُّ أمريكيٍّ أو إنجليزيٍّ أن يؤيد الإجراءات القَمْعية التي كثيرًا ما تمارسها الشرطة الروسيةُ من دون رحمة، أو يبررها. ومع ذلك، فحتى هذه من الممكن أن تكون مُبالَغًا فيها؛ لأن الشرطة مضطرةٌ للتعامل مع شعبٍ مختلفٍ تمامًا عن شعبنا. إن من الغريب نوعًا ما أنني في هذه اللحظة في مشكلةٍ طفيفة بخصوص الشرطة. أنا متأكدٌ أن هذا المكان مُراقَب، وأكاد أجزمُ كذلك أنَّه ثمةَ من يتعقَّب صديقي جاك. إنه يرتدي ملابس كملابس العُمَّال؛ ولا شك أن وَزْرته المكسوة بالسُّخام قد تُسعدُ قلبَ صديقه الكاتِب تولستوي، لكنه مشهورٌ بكونه أميرًا، وأعتقد أن السلطات تتخيَّل أنه إنما يتزلَّف بهذا إلى الطبقة العاملة التي يحتقرونها. إنني أعزو السبب في هذا كله إلى ذلك الانفجار المشئوم الذي جمَّع الشرطة حولنا وكأنها نبتَت من تحت الأرض. لقد أُجريَ تحقيقٌ رسميٌّ بالطبع، وأوضحَ جاك بالتحديد، وبما لا يدع مجالًا للشك في قلب الجميع، كيفية وقوع الخطأ الذي تسبَّب في خسارته لحيتَه ونوافذَ منزله. لا أدري بالضبط كيف أصف القلق الذي اعتراني. عندما رأيتُ هذه المدينة لأول مرةٍ لم تختلف في نظري كثيرًا عن نيويورك أو لندن، وعندما قابلتُ العديد من الرجال المهذَّبين ممَن يشغلون مناصب عليا، بدأتُ أعتقد أن سانت بطرسبرج هي برغم كل ذلك شديدة الشبه بباريس أو برلين أو روما. غير أنها مُختلفة، ويشعر المرء باختلافها على نحوٍ خفيٍّ، مثلما يشعر بأنَّ الهواء في بعض المدن الساحلية في بريطانيا مهدِّئٌ، وفي بعضها الآخر مُنعشٌ. في هذه المدن لا يلاحظُ المرءُ التأثيرَ في البداية، لكنه فيما بعد يبدأ في الشعور به، وهكذا هو الحال هنا في سانت بطرسبرج. تمر أعدادٌ كبيرةٌ من العُمَّال من شارعنا. ويبدو أنهم جميعًا يعلمون هوية الأمير، وفي الأيام الأولى التي كُنا فيها هنا، كانوا يُحيُّونه باحترامٍ عَزَوتُه إلى رتبته، رغم الملابس الملطَّخة بالشحم التي يرتديها. منذ وقوع الانفجار اعترى أولئك العُمَّالَ تغييرٌ يتعذَّر عليَّ أن أحدِّد ماهيته. إنهم لا يزالون يُحيُّون الأميرَ عندما نقابلهم في الشارع، لكنَّ في سلوكهم تعاطفًا ماكرًا من نوعٍ ما، إن جاز لي أن أصِفه بهذا؛ رابطة مودةٍ صادقةٍ تنطوي عليها طريقتُهم وإن كانوا لا ينطقون بها. جاك يقول إن هذا كلَّه إنما هو من تخيُّلاتي، لكنني لا أعتقد أن هذه هي الحقيقة. إن هؤلاء الرجال يتصوَّرون أن الأمير إيفان ليرمونتوف الذي يعيش بينهم ويلبَس مثلهم، يخترع مادةً متفجرةً ربما تُخلِّصهم من الطُّغاة الذين يجعلون حياتهم غير آمنةٍ بالمرة. كل هذا

غير مهم، لكن المهم هو التفاعل الكيميائي — كما أعتقد أن جاك سيسميه — الذي وقع بين السلطات. لا شك أن للسلطات جواسيسَ بين العُمَّال، وأنها تعلم جيدًا ما يُفكِّرون فيه وما يتحدثون به. أنا لا أعتقد أن السلطة اقتنعَت بالشرح الذي قدَّمه جاك بشأن الكارثة. لقد حاولتُ أن أقنع جاك بضرورةِ أن يكون أكثر حذرًا أثناء تجوُّله في المدينة، وحاولتُ أن أقنعه بأن يَرتدي بعد انتهائه من العمل ملابسَ تليق بمكانته، لكنه يسخر من مَخاوفي، ويؤكِّد لي أن رأيي عن سانت بطرسبرج قد انتقل من النقيض إلى النقيض؛ في البداية اعتقدتُ أنها ككل العواصم الأخرى، والآن أميل كثيرًا ناحية الاتجاه الآخر. إنه يقول إن شرطة سانت بطرسبرج لن تجرؤ على اعتقاله، لكنني لستُ واثقًا تمامًا من هذا. لقد خطر ببالي عدةُ أشياء، بعد فوات الأوان، كالمعتاد. لا بد أن روسيا تعلم، بفضل دائرة استخباراتها الممتازة، أن الأمير ليرمونتوف كان يخدم في البحرية البريطانية. وهم يَعلمون أنه عاد إلى سانت بطرسبرج، وأنه يتجنَّب أصدقاءه القدامى كلَّهم، وقد جذب انتباههم بانفجارٍ يتعذَّر تفسيرُه، ولا بد أنهم يعلمون جيدًا كذلك أنه في رُفقة الرجل الذي أطلق القذيفة على الصخرة في بحر البلطيق، وأنه هو نفسُه كان يخدم على متن الطرَّادة التي تسبَّبت في هذا الانتهاك.

أما عن شئوني أنا، فلا بد لي من القول إنها تتقدَّم ببطءٍ لكن على نحوٍ مُرضٍ؛ ومع ذلك، إذا وافق جاك على مغادرة سانت بطرسبرج، وأتى معي إلى لندن أو نيويورك، حيث يستطيع أن يواصل تجارِبَه العلميةَ كما يفعل هنا تمامًا، أو حتى أفضل، فسأُغادر في الحال، حتى وإن كنتُ بهذا سأعرِّض مستقبلي للخطر.»

بدأت الرسالة التالية، بعد فترةٍ من الزمن، على النحو التالي:

> رسالتاكِ السَّاحرتان اللتان أرسلتِهما إليَّ وصلتا هنا معًا. إنه للطفٌ بالغٌ منكِ أن تُراسلي مَنفيًّا مسكينًا وتُرفِّهي عنه في منفاه. أودُّ أن أرى هذا الوادي الصغير المنعزل الذي كنتِ تتأرجَحين فيه بأرجوحتكِ الشبكية. احترسي من رجال هِندرِك هَدسون الذين كتبَ عنهم الكاتِبُ واشنطن إيرفينج بأسلوبه المُمتع. إذا قدَّموا لكِ أيَّ مشروبٍ فإياكِ أن تَقبليه. فكِّري في حجم الفاجعة التي سيُمْنَى بها جميعُ أصدقائكِ إذا نمتِ في هذه الأرجوحةِ الشبكيةِ عشرين عامًا. إن ما أريد أن أزورَه الآن هو كاتسكيلز وليس شلالات نياجرا. أما عن خطابك الثاني الذي يحوي رسالةَ القبطان كِمْت إلى جاك، فقد سلَّمتُه إلى جاك على الفور. تُرى ما الذي كتبه القبطان اللطيف ليُحدث مثل هذا التَّحول في صديقي؟ لقد جاءني

في تلك الليلة مُحتفظًا بسلامة علقه، ومرتديًا ملابس السهرة الرسمية، وقد علَّق أوسمته عليها، وأمرني بارتداء بذلة السهرة الخاصة بي، واصطحبني في مَركَبةٍ عبرَت بنا الجسر القائم على النهر إلى أفضل مطعمٍ في سانت بطرسبرج، وهناك تناولنا عشاءً معه شامبانيا وقد شرب حينها في نَخبِ أمريكا وكلِّ ما هو أمريكي. لا أدري إن كان هذا بتأثير الحماسة التي بثَّها فيه خطابُ القبطان كِمْت، أو من أثر الشامبانيا، لكنه أعادَ النظرَ في عزمه على عدم الرجوع إلى الولايات المتحدة، وقريبًا جدًّا سننطلق أنا وهو في رحلتنا إلى الغرب.

سوف أسعد بالخروج من هذا المكان. لقد كان ثمة مَن يُلاحقنا ونحن في طريقنا إلى المطعم، أنا واثقٌ من هذا، كما أنني على الدرجة نفسها من الثقة في أن الطاولة المجاورة لنا كان يجلس عليها جاسوسان من جواسيس الشرطة، وقد تعقَّبَنا هذان الجاسوسان في سيارة أجرة حتى وصلنا إلى ورشة الحِدادة. من المهين أن أعترف بهذا، لكنَّني أعترف أنَّ أجواء هذا المكان قد أثارت سخطي بطريقةٍ ما، وسوف يُسعدني أن أوليه ظهري. إن جاك يسخر من فكرةِ أنه واقعٌ في أي خطر. إنه يَزعم أنَّ حاكم سانت بطرسبرج نفسه لا يَجرُؤ على أن يمسَّه، وأما عن رئيس الشرطة، فإن جاك يُمطر ذلك الموظفَ القويَّ بوابلٍ من السخرية. إنه يهزأ من فكرةِ أنه مُراقَب، وهو على العموم يتندَّر عليَّ إلى أقصى مدًى، ويقول إن حالتي النفسية تناسب تلميذةً في المدرسة أكثر من مناسبتها رجلًا متين البِنيةِ يزيد طولُه على ست أقدام. لكن يُعزيني أن جاك قد أصبح الآن شديد التوق إلى أمريكا مثلي. أتوقَّع أن المقابلة التي رُتِّب لي حضورها غدًا مع واحدٍ من كبار المسئولين في الحكومةِ ستحسم قضيتي نهائيًّا بطريقةٍ أو بأخرى. لقد كنتُ واثقًا من النجاح قبل وقت قصير، لكن التأخيرات المتكررة جعلتني أقلَّ تفاؤلًا الآن، رغم أن الكِياسة اللطيفة التي يتحلَّى بها هؤلاء الذين في المناصب العليا لا تزال كما هي.

عزيزتي الآنسة إمهيرست، لا أُطيق أن تقلَّ قيمتي في نظركِ عمَّا قد أستحق؛ ولذا لا بد لي من القول إنَّ ذلك الخوف الذي أنهكني إنما هو كله خوفٌ على صديقي، وليس عليَّ أنا إطلاقًا. إنني آمنٌ تمامًا في روسيا؛ لأنِّي من رعايا بريطانيا. ذلك أنَّ ابن عمي الرزينَ المحافظَ على الرسميات السيد ثاكستيد عضوٌ في السفارة البريطانية هنا، وعمي الرزين المحافظ على الرسميات واحدٌ

من أعضاء مجلس الوزراء في إنجلترا، ولا بد أنَّ هؤلاء الذين يتلقون معلوماتهم من الجواسيس في سانت بطرسبرج يَعلمون بتلك الحقائق جيدًا؛ ولهذا فأنا رجلٌ ذو حصانة. أسوأ ما قد يفعلونه أن يأمروا بخروجي من البلاد، لكن حتى هذا غير وارد. إذا حاول أيُّ شخص أن يتدخَّل في شئوني، فما عليَّ إلَّا أن أُقلِّد أبطال الروايات القصيرة؛ فأنتصب في وِقفتي حتى يظهر طولُ قامتي كاملًا، وهي كما تَعلمين، ليست بقامة قزم، وأُشبك ذراعيَّ فوق صدري الرجولي، وأصيح قائلًا: «ها ها!» وأُغنِّي الأغنية الوطنية «رُول بريتانيا» (السيادة لبريطانيا)، وعندئذٍ يضعُف الأوغادُ ويتراجعون. غير أنَّ جاك لا يتمتَّع بمثل هذه الحماية. إنه أحد رعايا روسيا، وسواء أكان أميرًا أو عاميًّا، فإن بوسع السلطات هنا أن تفعل معه ما تشاء. إنني دائمًا ما أُفكِّر في الأشياء عندما يفوتُ أوانُ التصرُّف. ليتني ألححتُ على جاك في النزول إلى اليابسة في بار هاربر، وأقنعتُه بأداء قَسم الولاء للولايات المتحدة. لقد حدَّثتُه في هذا الموضوع ونحن عائدان إلى المنزل في المَركبة، ولقد دُهشتُ عندما قال إنه يتمنَّى لو كان فكَّر فيه بنفسه عندما كُنَّا هناك.

لكن يكفي حديثًا عن هذا. أعتقد أنه ليس واقعًا في خطرٍ حقيقيٍّ رغم كل ذلك. ومع هذا، فسوف أقنعه بحزم أمتعتِه في الغد، وسنَنطلِق إلى لندن معًا؛ ولذا سوف يحملُ خِطابي القادمُ طابعَ بريدٍ بريطانيًّا، وأُؤكد لكِ أن هواء إنجلترا سيطيبُ لبريطانيٍّ دَهَمَه الليلُ يُدعَى آلان دروموند.

الفصل العاشر

كارثة غير متوقَّعة

إنَّ عادة الكدِّ التي يتعوَّدُ عليها المرءُ من الطفولةِ حتى النضجِ لا يَمحوها وابلٌ غيرُ متوقَّعٍ من الذهب. لقد كانت دورثي ممن يستيقظون مبكرًا، وفي صباح أحد الأيام، وهي تدخل إلى الرَّدهة قادمةً من غرفتها رأَت على المنضدة رسالةً عليها طوابعُ بريدٍ روسية، لكن عنوانها كان مكتوبًا بخطٍّ غيرِ مألوفٍ لها وكانت موجهةً إلى صديقتها كاثرين كِمْت. خمَّنَت دورثي أن هذه كانت أول رسالةٍ من الأمير، وتوقَّعَت أن تعرف كلَّ شيءٍ عنها خلال وقت الغداء على أقصى تقدير. لكن الصباح انقضى وانقضى العصر أيضًا دون أن تُشير كاثرين أيَّ إشارةٍ إلى الموضوع، وقد رأَت دورثي أن هذا كان غريبًا للغاية. ظلَّت كاثرين طَوال ذلك اليوم واليوم الذي تلاه تتجوَّل في صمتٍ وهدوء ورصانة، ولم تقتبس مرةً واحدةً من كتابات السيد جيلبرت الساخر. في صباح اليوم الثالث فُوجِئت دورثي، لدى خروجها من غرفتها، برؤية كاثرين واقفةً إلى جوار المنضدة وفي يدها كتابٌ أسود. كان على المنضدة طردٌ بريديٌّ كبيرٌ قادمٌ من نيويورك، كان قد فُتِحَ قبل وقت قريب، وبرزَت منه مجموعةٌ من الكتب المغلَّفة بتجليد متين من الجلد أو القماش، لكنه لا يتسم بذلك التلوين العالي الجودة الذي يميِّز الإنتاجَ الأدبي الأمريكي.

«صباح الخير يا دورثي. طائرُ الصباح يُطارد دودة العلوم.» ناولتْها المُجلد الذي كانت تحمله في يدها. وقالت: «كتاب «محاضرات في علم الكيمياء في أربعة عشر أسبوعًا» للمؤلف ستيل، كتابٌ قديم، لكنه مكتوبٌ بطريقةٍ ساحرة.» تنهدَت وواصلت كلامها قائلةً: «دورثي، أريد أن أتكلم معكِ كلامًا جادًّا.»

سألتها دورثي: «عن الكيمياء؟»

قالت كاثرين بنبرةٍ حازمة: «عن الرجال، وعن النساء أيضًا لكن بصورةٍ ثانوية.»

«موضوعٌ شائقٌ يا كيت، لكنكِ حصلتِ على الكتاب الخطأ. كان ينبغي أن تحصلي على طردٍ مليءٍ بالروايات بدلًا من هذا.»

اتخذت دورثي لنفسها مقعدًا، وكذلك فعلَت كاثرين، وأسندَت كتاب «محاضرات في علم الكيمياء في أربعة عشر أسبوعًا» على حجرها.

بدأَت كاثرين الكلام قائلةً: «ينبغي أن يكون لكلِّ رجلٍ حارسٌ يحميه.»

«من النساء؟»

«من جميع الأشياء الخادعة، التي تختلف حقيقتُها عن مظهرها.»

«يبدو هذا الكلام موجزًا وعامًّا للغاية يا كيت. ما معناه؟»

«معناه أن الرجل مخلوقٌ مُغفَّل، يسهُل خداعُه. إنه يُسرف جدًّا في الإخلاص للنساء الماكرات، اللاتي يخدعنه بطريقةٍ مخزية.»

«مَن الذي كنتِ تَخدعينه يا كيت؟»

«دورثي، أنا إنسانةٌ جبانةٌ ومُخادعة.»

ضحكت دورثي، وقالت:

«في الحقيقة يا كاثرين، أنتِ أيُّ شيءٍ آخر غير هذا. إنكِ لا تستطيعين أن تفعلي أي فعلٍ دنيءٍ أو حقيرٍ ولو بذلتِ في ذلك غاية وسعك.»

سألتها كاثرين وهي تَنحني إلى الأمام حابسةً أنفاسَها: «أتظنِّين يا دورثي أن بإمكاني أن أنصلح؟»

«تنصلحين؟ أنتِ لا تحتاجين للإصلاح. إنكِ رائعة تمامًا كما أنتِ هكذا، ولا أعرف رجلًا واحدًا جديرًا بك. هذا رأيُ امرأة؛ امرأة تعرفكِ جيدًا، ولا يَنطوي رأيي على أيِّ خِداعٍ أيضًا، رغم خطبتكِ المسهبة العنيفة ضد بنات جنسك.»

«دورثي، منذ ثلاثة أيام تقريبًا تلقيتُ رسالةً من جون لامونت.»

«نعم، رأيتُها على المنضدة، وخمَّنتُ أنها منه.»

«حقًّا؟ لقد أصبتِ في تخمينكِ تمامًا. لقد أحدثَت قراءةُ هذه الرسالة تغييرًا جذريًّا في شخصيتي. لقد أصبحتُ امرأةً أخرى يا دورثي، وأنا في غاية الخجل من نفسي. عندما أتذكَّر كيف خدعتُ ذلك الفتى الساذَجَ المسكينَ وجعلتُه يُصدِّق أني فهمتُ حرفًا واحدًا حتى مما كان يتحدَّث عنه، يملؤني هذا بالأسى على خيانتي التي اقترفتُها، لكنني عازمةٌ على إصلاح عاداتي إذا كانت الدراسةُ الجادةُ ستَفعل هذا، وعندما أراه في المرة المقبلة سوف أتحدَّث معه بكفاءةٍ وكأنني نسخةٌ أُنثويةٌ من توماس إيه إديسون.»

ضحكت دورثي من جديد.

قالت كاثرين: «والآن، هذه قسوةٌ منكِ يا دورثي. ألا ترَين أنني جادةٌ للغاية في كلامي؟ أمن المحتَّم عليَّ أن يُطارد طيشي القديمُ خطواتي في الحياة؟ عندما أتذكَّر أنني سخرتُ أمامكِ من هدفه الجاد في الحياة تجعلُني الفكرةُ أتشرنق على نفسي من الذلِّ وأحتقر ذاتي.»

«هذا هراءٌ يا كيت، لا تبالغي إلى هذا الحَد. أنا لا أتذكَّر أيَّ شيءٍ من كلامكِ يستحق أن تتراجعي عنه. إنكِ لم تَنطقي بتعليق خبيث قط طَوال حياتكِ يا كيت. لا تجعليني أدافع عنكِ ضد ما تقولينه عن نفسك. لقد قررتِ، كما فهمتُ، أن تَنغمِسي في دراسة المواضيع التي تثير اهتمامَ الرجلِ الذي ستَتزوجينه. هذا طُمُوحٌ جديرٌ بالثناء إلى أقصى درجة، وأنا واثقةٌ تمامًا أنكِ ستنجحين.»

«أنا أعلم أني لا أستحق كلَّ هذا يا دورثي، لكنني برغم ذلك أريده. إنني أحب أن يؤمن الناسُ بي، حتى وإن فقدتُ أنا إيماني بنفسي أحيانًا. أتسمحين لي أن أقرأ عليكِ جزءًا من رسالته؟»

«لا تفعلي إذا كنتِ تفضِّلين ألَّا تقرئي شيئًا.»

«بل أُفضِّل أن أقرأ يا دورثي، إذا كان هذا لا يزعجكِ، لكنكِ ستفهمين بعدما تنتهين من سماعه بأي طريقةٍ جديدةٍ أصبحتُ أنظر إلى نفسي.»

اتضح أن الرسالةَ كانت داخل صفحات كتاب الكيمياء الذي ألَّفه الراحلُ السيد ستيبل، وقد أخرجته كاثرين من هذا المجلَّد، وضمَّته لحظةً إلى صدرها بيدها المبسوطة وهي تحدِّق إلى صديقتها.

«دورثي، أول رسالة غرامية تأتيني!»

قلَّبت كاثرين الصفحات الرقيقة المتغضنةَ، وبدأَت القراءة:

> لعلكِ تذكرين تلك الحاشية التي وضعتِ عليها علامةً بالحبر الأحمر في الكتاب الذي تكرمتِ بإعطائي إياه في مجال الحَفْز الكيميائي، والتي لم تكن مُتعلقةً بموضوع الكتاب الذي أتكلم عنه، لكنها كانت مُفيدةً جدًّا لأي دارسٍ لعلم الكيمياء. لقد حقَّقوا الكثير من الإنجازات باستخدام الحفز الكيميائي في ألمانيا وأحرزوا منه ثمارًا تجاريةً مدهشة، لكن الموضوع حديثٌ جدًّا بحيث لم يسبق لي أن بحثتُه بحثًا شاملًا من قبل.

توقفَت كاثرين عن القراءة قليلًا، ونظرَت إلى الفتاة التي تُصغي إليها، ونطقَت عيناها البليغتان بتعبيرٍ هو أقربُ ما يكون إلى اليأس.

وقالت: «دورثي، ما الحفز الكيميائي هذا؟»

«لا تسأليني.» هكذا أجابتها دورثي، وهي تكتُم ضحكةً نبعت من ذلك المنظرِ المُضحِكِ لفتاةٍ جميلةٍ تضم مثل هذه الأفكار إلى صدرها.

توسَّلَت إليها كاثرين قائلةً: «هل سمعتِ يومًا عن عملية حفزٍ كيميائيٍّ يا دورثي؟ هذه واحدةٌ من العبارات التي يستخدمها.»

«لم أسمع بها قط؛ واصلي قراءة الرسالة يا كيت.»

«لقد أدركتُ في الحال أنني إذا استطعتُ أن أستخدم عملية حفزٍ كيميائيٍّ يكون لها تأثيرٌ فوريٌّ في تجميد حجر الكلس السائل الخاص بي، بدلًا من انتظار التبخُّر البطيء، فسأتمكَّن من إنتاج حجارة البناء في وقتٍ أسرع من الوقت المستغرَق في صنع القرميد. أنا واثق أنكِ، بفضل عقلكِ الذي يفوق عقلي يقظَةً، قد أدركتِ هذا عندما وضعتِ علامةً باللون الأحمر على تلك الفقرة.»

قالت كاثرين وهي تُسند ظهرها إلى الخلف وتكاد تنشج بالبكاء: «يا للهول يا دورثي، كيف عساي أن أواصل القراءة؟ ألا ترَين كم أنا جبانةٌ ومخادعة؟ لقد كان احتيالي برسم هذه العلامات العشوائية الطائشة في الكتاب سيئًا للغاية، لكن التفكير في أن هذا الخط الذي رسمتُه بالحبر الأحمر كان من الممكن أن يتلطَّخ بدمِه يَكاد يقتلني، فلقد كدتُ أتسبَّب في موت الفتى المسكين.»

«امضي في القراءة يا كاثرين، امضي، امضي!»

«في أثناء بحثي عن عاملٍ حفَّاز تبقى مادتُه دون تغييرٍ بعد التفاعل، فاتني تمامًا أن أنتبه إلى المكوِّنات الكيميائية لواحدةٍ من المواد التي كنتُ أتعامل معها، وكانت النتيجةُ انفجارًا كاد يَقتلع سقفَ الورشة، وأَرعبَ المسكينَ دروموند رعبًا شديدًا أكاد أقول إنه أنقَصَ من عمره سنة. ومع ذلك، لم يقع أذًى حقيقي، بينما تَعلمتُ أنا درسًا قيمًا؛ وهو أن أحسُبَ حسابَ جميعِ العناصر التي أستخدمها. يجب ألَّا يستحوذ عليَّ التركيزُ في الموضوعِ الذي أسعى إلى تحقيقه بحيث يجعلني أُهمل كلَّ ما عداه.» والآن يا دورثي، أريد أن أسألكِ سؤالًا شخصيًّا للغاية، وأرجو أن تجاوبيني عليه بصراحةٍ شديدةٍ مثلما أفضيتُ إليكِ بدخيلة نفسي.

«أعرف سؤالَكِ يا كيت. إن أيَّ فتاةٍ مخطوبةٍ لتتمنَّى أن ترى صديقتَها في الحالة نفسها. سوف تسألينني إن كنتُ واقعةً في حُب آلان دروموند، وها أنا ذا أُجيبكِ بكل صراحةٍ أنني لستُ كذلك.»

«هل أنتِ واثقةٌ تمامًا من هذا يا دورثي؟»

«تمامَ الثقة. إنه الرجل الوحيد الذي صادَقتُه في حياتي، باستثناء والدي، وأنا أعترف عن طيب خاطرٍ أني مهتمةٌ به اهتمام الأخت بأخيها.»

«حسنٌ، إذا كان هذا كلُّ ما في الـ...»

«هذا كلُّ ما في الأمر يا كيت. لماذا تسألين؟»

«لأن ثمة شيئًا بخصوصه في هذه الرسالة، وأنا مُستعدةٌ لقراءته عليكِ إذا علمتُ أنكِ لا تبالين بأمره.»

«حسنٌ، إنه على الأرجح، واقعٌ في غرام أخت جاك. أعتقد أن هذا سيكون ترتيبًا مناسبًا للغاية. إن جاك هو أعزُّ أصدقائه، ومن المُحتمَل أن يتمكَّن عاشقٌ مثل دروموند من إضعاف التأثير الذي تمارسُه كتاباتُ تولستوي على عقلٍ عاطفيٍّ مثل عقلها. من المحتمَل أن ينقذ المُلازمُ دروموند، بحكمته وتعقُّله، بعضَ ما تبقَّى من ممتلكاتها.»

«يا إلهي، حسنٌ، إذا كان بإمكانكِ أن تتكلَّمي بهذا القدر من اللامبالاة فإنكِ على ما يُرام يا دورثي. لا، ليس في المسألة امرأةٌ أخرى. ها هو ذا كلام جاك:

«إن قِلةَ ما يعرفه رجلٌ إنجليزيٌّ عن أبناء الأمم الأخرى ليَبعث على الذهول. ها هو ذا صديقي طويل القامة دروموند يسير غيرَ مُكترثٍ بين أخطارٍ ليست لدَيه أدنى فكرةٍ عنها. إن رجال السلطة الذين يتوهَّم أنهم ذَوُو كِياسةٍ عاليةٍ يخدعونه إلى أقصى مدًى. ليست هناك خطورةٌ بالطبع من إلقاء القبض عليه، لكنَّ عيون الشرطة تُراقبه، ولن تزيد درجةُ تصديقه بهذه الحقيقة عن درجةِ تصديقِه بأن وزيرَ الخارجية يَخدعُه بمظهره الكاذب. إن ما أخشاه هو أنه سوف يُضرب بهراوةٍ وهو في الشارع في إحدى الليالي المُظلمة، أو سيتورط في نزاعٍ غير نزيه. لقد أنقذتُه مرتَين من خطرٍ وشيكٍ لم يرَه حتى. مرةً ونحن في أحد المطاعم افتعلَت مجموعةٌ من الضباط كانوا سكارى فيما يبدو، شِجارًا، واستلُّوا سُيُوفهم عليه. لم أواجه صعوبةً كبيرةً في إخراجه من بينهم لأنه يخشى من وقوع شِجارٍ أو أيِّ شيءٍ آخر من شأنه أن يَلفت إليه انتباه ابن عمه الأبله الذي يعمل في السفارة. مرةً أخرى بينما نحن عائدان إلى المنزل قُرب مُنتصَف الليل، نشبَ فجأةً شِجارٌ زائفٌ تمامًا وطوَّقنا من كل جانب. كان دروموند أعزل، لكنَّ قبضتَيه الضخمتَين أودتا باثنين أو ثلاثةٍ

ممَن هاجموه إلى الأرض. أما أنا فقد كان معي مسدس، فأبعدتُ به بقيتهم، وهكذا نجونا. ليته يعود آمنًا إلى لندن مرةً أخرى.» ما رأيُكِ في هذا يا دورثي؟»

«أنا أوافق السيد لامونت في رأيه تمامًا. إن مهمة المُلازم دروموند في روسيا تبدو لي رحلةً حمقاء.»

«رغم كل ذلك، أنا سعيدةٌ أنكِ غير مُهتمةٍ يا دورثي. ينبغي له أن ينتبه لِما يقوله جاك؛ لأن جاك يعرف روسيا، بينما هو لا يعرفها. ومع ذلك، فلنأمُل أن يخرج سالمًا من سانت بطرسبرج. والآن يا دوت، لنتناول الإفطار، فلا بد لي من البدء في العمل.»

في صباح اليوم التالي رأَت دورثي رسالةً على المنضدة، كانت مُرسلةً لها ومكتوبةً بالخط المألوف لديها هذه المرة، وكان شعورها بالارتياح أكبرَ ربما مما كانت ستَعترف به حتى لأقرب صديقاتها إليها؛ وذلك عندما رأَت طابع البريد الإنجليزي بقيمة بنسَين ونصف البِنس على المظروف. مع ذلك، كانت محتوياته مروعةً للغاية، لم تقرأ دورثي على كاثرين كِمْت تلك الرسالةَ بالذات، وتحمَّلت وحدها ما سبَّبته من القلق.

عزيزتي الآنسة إمهيرست

أُرسل لكِ هذه الرسالةَ وأنا واقعٌ في كربٍ شديد، لم أأتمن مكتب البريد الروسي على هذه الرسالة، بل أرسلتُها مع قبطانٍ إنجليزيٍّ ليُرسلها بالبريد من لندن. منذ يومَين اختفى جاك لامونت؛ اختفى تمامًا وكأنه لم يكن موجودًا قبل ذلك قط. في حوالي الساعة العاشرة أوَّلَ أمس، خُيِّلَ إليَّ أني سمعتُه يدخل ورشتَه الموجودة تحت غرفتي. فهو يعمل فيها أحيانًا حتى بزوغ الفجر، ولأنه عندما يكون مُنهمكًا في تجاربه العلمية، لا يستسيغ أن يُقاطعه أحدٌ، حتى أنا، فإنني أواصل قراءتي حتى يصعد إلى الطابق العلوي. في حوالي الساعة الحادية عشرة ظننتُ أني سمعتُ أصواتًا خافتةً لِمُشاجرة، وصرخةً مخنوقة؛ فناديتُ عليه، لكنه لم يُجِبني. تناولتُ شمعةً ونزلتُ إلى الطابق السُّفلي، لكنِّي وجدت كل شيءٍ على حاله المُعتادة تمامًا؛ فالأبواب مغلقةٌ، ولم تُقلب منضدةٌ واحدةٌ حتى. ناديتُ بصوتٍ عالٍ، ولم يُجبْني سوى صدى صوت هذه الغرفة الشبيهة بالحظيرة. أوقدتُ مصباحَ الغاز وبحثتُ بدقةٍ أكبر، لكن دون طائل. فتحتُ البابَ، وخرجتُ إلى الشارع، لكنه كان هادئًا وخاليًا تمامًا. وهنا بدأتُ أشك في أني سمعتُ أيَّ شيءٍ على الإطلاق؛ لأن أعصابي، كما أخبرتُكِ من قبل، صارت مؤخرًا شديدة التقلُّبات. سهرتُ طوال الليل في انتظاره، لكنه لم يأتِ. في اليوم التالي ذهبتُ

إلى مبنى وزارة الخارجية، حيث تلك الزيارة التي سبق ترتيبُها، لكنني تُركتُ في إحدى غرف الانتظار ساعتَين كاملتَين، ثم قِيل لي إنَّ الوزير لن يتمكَّن من مقابلتي. ومُنيت بخيبة أملٍ مشابهةٍ في الأميرالية. تناولتُ طعامَ الغداء وحدي في المطعم الذي أتردَّد عليه أنا وجاك، لكن لم أعثر له على أثر. لم يَعُد جاك هذا الصباح، وأنا الآن في حيرةٍ من أمري، وليست لديَّ أدنى فكرةٍ عما يجب عليَّ فعله. لن يجديني نفعًا أن ألجأ إلى سفارة بلدي؛ لأن جاك روسي، ولن يكون لها سلطةٌ على قضيته. لقد عَبَثَ شخصٌ ما بآخِر رسالةٍ تلقيتُها منكِ. فالجزء المقتبَس من الجريدة الذي تحدثتِ عنه لم يكن موجودًا، وكذلك كانت إحدى أوراق الرسالة مفقودة. إني أرى هذا التدخُّل في المراسلات الخاصة لضَربٌ من العبث.

كانت هذه آخِر رسالة بعث بها آلان درموموند إلى دورثي إمهيرست.

الفصل الحادي عشر

الثلج

بدأت حرارةُ الصيف تخبو تدريجيًّا؛ أصبحت الليالي باردةً بردًا مُعتدلًا، بالرغم من تظاهر الشمس في فترة الظهيرة بأن قوَّتها لم تضعُف. بدأَت جموعُ المستمتعين بالتراخي في الجو الدافئ تترك الجبلَ وشاطئَ البحر وتعودُ تدريجيًّا إلى المدينة، ولم يأتِ مزيدٌ من الرسائل من سانت بطرسبرج إلى التلة المجاورة لنهر هِدسون. أما بخصوص فتاتَينا، فقد انسدلَ ستارٌ من الصمتِ بين أوروبا وأمريكا.

كانت الشَّقة في ذلك الحين قد جُهِّزت، وقد حلَّت بدايةُ فصل الخريف على الصديقتَين وهما ساكنتان فيها. كان تحقُّق الحلم في هذه الحالة يفتقر إلى بهجة الترقُّب. أخيرًا صارت كاثرين هي تلك الفتاة العزباء مثلما كانت تصبو، لكنَّ مباهج الحرية لم تكن إلا سرابًا مُغريًا. أخيرًا تحرَّرت دورثي تمامًا من جميع أفكار العبودية، وأصبح لديها مالٌ غير محدودٍ تستطيع أن تفعل به ما يحلو لها، لكن ماذا أفاد المال في حلِّ المشكلة التي كانت تُلازمها نهارًا وتغزو أحلامَها ليلًا؟ لقد كانت تواجه العالَم بلا مُبالاةٍ ظاهرية؛ إذ لم يكن لها الحق في الحِداد، حتى وإن علِمَت أنه مات. إنه لم يُطالب بأي شيء؛ ولم يطلب منها حُبًّا؛ ولم يُرسل لها كلمةً واحدةً غير ما يُمكن للناس جميعًا أن يقرءوه. كانت تذهب كلَّ أسبوعٍ في رحلةٍ قصيرةٍ إلى القرية القريبة من نهر هِدسون لترى تطوُّر العمل في كنيستها، وكانت كاثرين تُرافقها في البداية، لكنها أصبحت الآن تذهب بمفردها. كانت كاثرين تتحلَّى بصراحةٍ شديدةٍ تمنعها من التظاهُر بالاهتمام بشيءٍ لا تشعر من داخلها أنها مهتمةٌ به. لم تكن تستطيع أن تتحدَّث عن فن العمارة وذهنها مشغولٌ برجلٍ ما وبمصيره. في بادئ الأمر حين لم تصلها رسالة جديدة لم تكن تطيق صبرًا ولا تكفُّ عن الشكوى. كانت تقول إن رسائلها قد وصلته ولا بُد، وإلَّا لكانت أُعيدَت إليها. غير أنَّها امتلأت بخوفٍ أبكمَ فيما بعد، وتملَّكها الصمتُ، وراحَت تغوص، بطاقةٍ متجددةٍ، في بحار

كُتُبِها، والتحقت بمدرسة خاصة بالعلوم التطبيقية، وتلقَّت دروسًا، وظلَّ لونُها يزداد شحوبًا يومًا بعد يومٍ إلى أن حذَّرها مُعلِّموها من إجهاد نفسها. كانت كاثرين، بينها وبين نفسها، مُستاءةً من جمود شعور صديقتها التي كانت بين الحين والآخر تتشاوَر في هدوءٍ مع المهندس المعماري بشأن زخرفة الكنيسة، في حين أن الرجلَين قد جُرِّدا من حريتِهما، وربما من حياتهما. لقد نسجت في عقلها قصةً خياليةً عن الإخلاص والتفاني، وفي قصتها هذه ظلَّ حبيبُها يُحذِّر الرجلَ الإنجليزيَّ المُتبلدَ الحِسِّ من دون جدوى، حتى آل به الأمر في النهاية إلى أن تَورَّط في الخراب الذي جلبه عليهما معًا عِنادُ دروموند، وظُلمًا ورطَّتِ المرأةَ الهادئةَ التي تدعمها، في تَبِعةِ هذه التضحية. لقد تكلمَت مرةً أو مرتين، في نفاد صبرٍ مشوبٍ بالغضب، عن دروموند وغبائه، لكن دورثي لم تُدافع عنه ولم تُبرِّر أفعاله، وبهذا لم تقع حربٌ علنيةٌ بين الصديقتَين؛ إذ لا يمكن أن ينشبَ شِجارٌ من طرفٍ واحد.

لكن في حالةِ امرأةٍ في مثل مِزاج كاثرين كان لا بد للانفجار الأخير من أن يقع، وقد وقعَ في اليوم الذي بدأت فيه أولُ قطعةٍ من الثلج تسقط في الهواءِ الساكن، وراحَت رقاقاتٌ كبيرةٌ منه تتجاوز نوافذ الشَّقة وثبًا وتسقط بعيدًا في الأسفل فوق الشارع الموحل. كانت كاثرين تقف بجوار النافذة مُسندةً جبينها على لوح الزجاج، بتلك الطريقة نفسها التي كانت مُعتادةً عليها في غرفة الحياكة في بار هاربر، لكنَّ النقر المُتقطِّع الذي كانت تُحدِثه أصابعها على حافة النافذة بدا الآن لحنًا جنائزيًّا عن اليأس. كان الثلج المتساقط قد أظلم الغرفة، وكان ثمة مصباحٌ كهربائيٌّ متوهجٌ فوق المكتب الأنيق المصنوعِ على طراز الشِّيبندال الإنجليزي، والذي جلسَت دورثي إليه تكتب رسالةً. كان القلم ينسابُ فوق الورقة في انتظامٍ قذفَ بكاثرين في نوبة سخط؛ وفجأةً هوَت بقبضتِها على حافة النافذة في المكان الذي كانت أصابعها تنقر عليه.

وصاحَت قائلةً: «يا إلهي! كيف يُمكنكِ الجلوس هكذا كالإنسان الآليِّ والثلج يتساقط؟»

وضعَت دورثي قلمها على المكتب.

وردَّدت قول كاثرين متسائلةً: «والثلج يتساقط؟ لا أفهم شيئًا!»

«بالطبع لا تفهمين شيئًا. إنكِ لا تُفكِّرين في تيارات الهواء في سيبيريا، ولا في الرجلين اللذين عرفتِهما، وأمسكتِ بأيديهما، ووضعتِ فيهما الأصفاد، وسُقتِهما ليَسيرا فوق جليدها تحت سياطِ رجلٍ قوزاقيٍّ.»

نهضَت دورثي من مكانها بهدوءٍ، ووضعَت يدَيها على كتفَي الفتاة، فأحسَّت بجسدها يرتعد تحتهما.

وقالت بهدوء: «كاثرين.» لكن كاثرين نفضَت كتفيها في عصبيةٍ وتملَّصَت من مسكة صديقتها الودود.

وصاحت قائلةً: «لا تلمسيني. عودي إلى كتابة رسالتك. أنتِ والرجل الإنجليزي تشبهان بعضكما تمامًا؛ عديما الشعور، متحجِّرا القلب. إنه بعنادِه الأنانيِّ ورَّطَ رجلًا بريئًا في الكارثة التي سبَّبها غباؤه.»

«كاثرين، اجلسي. أريدُ أن أكلمكِ بهدوء.»

«بهدوء! بهدوء! نعم، هذا ما تقولينه. من السهل عليكِ أن تكوني هادئةً عندما لا تهتمين بشيء. لكنَّني أهتم، وأنا لا أستطيع الهدوء.»

«ما الذي ترغبين في فعله يا كاثرين؟»

«ماذا في وسعي أن أفعل؟ إنني فقيرةٌ للغايةِ وعالةٌ على غيري، لكنَّني عازمةٌ على أمرٍ واحد، وهو أن أذهبَ للعيش في بيت أبي.»

«لو كنتِ مكاني، ماذا عساكِ تَفعلين يا كاثرين؟»

«سوف أذهبُ إلى روسيا.»

«ماذا ستفعلين بعدما تصلين إلى هناك؟»

«لو كنتُ أملك ثروةً لأنفقتُها على شنِّ حملةٍ واسعةٍ من الرشوةِ والفساد في بلد الطُّغاةِ هذا حتى أُطلِق سراح رجلَين بريئَين. كنت سأكتشفُ أولًا مكانهما، ثم أستخدم كلَّ ما أملك من نفوذٍ مع السفير الأمريكي حتى أطلق سراحهما.»

«السفير الأمريكي يا كيت، لا يُمكنه أن يسعى في إطلاق سراح رجلٍ إنجليزيٍّ ولا روسيٍّ.»

«كنتُ سأفعل ذلك بطريقةٍ أو بأخرى. ما كنتُ لأجلس هنا كعصًا أو كحَجرةٍ أكتبُ رسائل إلى مهندسي المعماري.»

«هل أنتِ مُستعدةٌ للذهاب إلى روسيا بمفردك؟»

«لا، سوف أصطحب أبي معي.»

«هذه فكرةٌ مُمتازةٌ يا كيت. أنصحكِ بالتوجُّه إلى الشمال في قطار الليلة، إذا أردتِ، وقابليه، أو أرسلي إليه برقيةً كي يأتي ويقابلنا.»

اتخذت كيت لنفسها مقعدًا، وسحبَت دورثي الستائر على زجاج النافذة وأضاءت مجموعة المصابيح الكهربائية الموجودة في مُنتصَف الحجرة.

سألتها كيت بنبرةٍ ألطف من التي كانت تستخدمها منذ قليل: «هل ستأتين معي إذا توجهتُ إلى الشمال؟»

«لا أستطيع. سوف أُجري مقابلةً مع أحد الرجال في هذه الغرفة غدًا.»

صاحت كيت بسخرية: «المهندس المعماري، على ما أظن.»

«لا، بل مع رجلٍ ربما يُعطيني معلومةً عن لامونت أو دروموند.»

حدَّقَت إليها كاثرين وقد تملَّكتها الدهشة.

وقالت: «لقد كنتِ تُدبِّرين شيئًا إذن، أليس كذلك؟»

«كنتُ أحاول، لكن من الصعب أن أعرف ما يجب عليَّ فعله. لقد وصلتْني معلومةٌ تقول إن المنزل الذي كان يقيم فيه السيد لامونت والسيد دروموند أصبحَ مهجورًا الآن، ولا أحدَ يعرف أيَّ شيءٍ عن قاطنَيه السابقَين. لقد جاءتني هذه المعلومةُ بصورةٍ شِبه رسمية، لكنها لا ترشدنا كثيرًا. لقد بدأتُ التحقيقَ من خلال طُرقٍ مثيرة للريبة؛ بعبارةٍ أخرى، لقد لجأتُ إلى مساعدةِ جماعةٍ من مُؤيِّدي العَدَمية، ورغم أني عازمةٌ عزمًا أكيدًا على مرافقتكِ إلى روسيا، فلا تتفاجئي لو اعتُقلتُ في أول لحظةٍ تطأ فيها قدمي أرضَ سانت بطرسبرج.»

«دورثي، لماذا لم تخبريني؟»

«كنتُ أطمع في الحصول على بعض الأخبار الجيِّدة لكي أبلغكِ إيَّاها، لكنها لم تأتِ بعد.»

«آهٍ يا دورثي.» بهذا تأوَّهت كاثرين وهي تقاومُ الدموع التي أرادت أن تسيل من عينيها رغمًا عنها. في تلك اللحظة ربَّتت دورثي على كتفها.

وقالت: «لقد كنتِ ظالِمةً بعضَ الشيء، وسوف أُبرهن لكِ على هذا، عساكِ عندما أحاول الإصلاحَ تتوقَّفين عن القلق بشأن هذه الكارثة التي تُواجه امرأتَين وحيدتَين مسكينتَين. إنكِ تظلمين الرجل الإنجليزي، كما تَنعتينه. لقد أُلقيَ القبضُ على جاك قبل يومَين على الأقل من إلقاء القبض على دروموند. يقول جواسيس جماعة مؤيدي العَدَمية إنَّ كلَيهما مقبوضٌ عليه، الأمير أولًا، والرجل الإنجليزي بعده بعدة أيام. لقد تلقيتُ رسالةً من السيد دروموند بعد مدةٍ قصيرةٍ من وصول رسالة السيد لامونت إليكِ؛ لكنَّني لم أُطلعكِ عليها ألبتَّة، لكن الأمور الآن قد وصلت إلى حالةٍ لا يُمكِن أن تسوء بعدها أكثر من هذا، ولكِ مطلق الحرية في أن تقرئي الرسالةَ إذا أردتِ. إنها تتحدَّث عن اختفاء جاك، وعن كَرب دروموند وقلَّة حيلته في سانت بطرسبرج. ولَمَّا لم تُرسَل بعدها أيُّ رسالةٍ أخرى، تأكدتُ أنه قد قُبِضَ عليه فيما بعد. لا أدري أيهما يستحقُّ اللومَ أكثر من الآخر

على ما تَصفينه بالعناد، لكنَّني أعتقد أن علاقة الانفجار بإلقاء القبض عليهما أكبر من علاقة أي شيء آخر بذلك.»

قالت كاثرين وهي تَنتحِب: «وقد كنتُ أنا السبب في هذا.»

«لا، لا يا فتاتي الحبيبة. لا ذنبَ لأحدٍ سوى طاغية روسيا. اعلَمي أن أفراد جماعة مؤيدي العَدَمية يؤكِّدون أنه لم يُرسَل أيٌّ من هذَين الرجلَين إلى سيبيريا. إنهم يعتقدون أنهما في سجن «سانت بيتر آند سانت بول» لقد جاءتْني هذه المعلومةُ اليومَ في الرسالة التي كنتُ أكتب الرد عليها منذ لحظات. لهذا يا كاثرين، أعتقد أنكِ ظلمتِ الرجل الإنجليزي. لو كان أُلقي القبضُ عليه أولًا لربما كان هناك أساسٌ لِمَا تتهمينه به، لكن من الواضح أنهم أعطوه الفرصة للهرب. لقد وصله التحذير عندما اختفى صاحبُه، وكان أمامه عدةُ أيامٍ يخرج فيها من سانت بطرسبرج، لكنه صمد في مكانه.»

«أنا آسفةٌ يا دورثي. إنني حمقاء سخيفة، واليومَ، عندما رأيتُ الثلج؛ آهٍ، انفعلتُ إلى أقصى مدًى.»

«أعتقد أن لا أحد من الرجلين في الثلج، والآن سأقول شيئًا آخر، وبعدها لن أتكلم في الموضوع مرةً أخرى أبدًا. تقولين إنني لم أكن مُهتمَّة، وبالطبع أنتِ مُحقةٌ تمامًا؛ لأنني اعترفتُ لكِ بأنني غير مهتمة. لكن فقط تخيَّلي، تخيَّلي، أنني كنتُ اهتممتُ بالأمر. من الممكن أن تطلق الحكومةُ الروسيةُ سراحَ الأمير في أيِّ لحظة، وليس ثمَّة ما يُقال غير هذا. لن يحظى بأي تعويض، وسيتحمَّل ولا بد تَبِعات الجنسية التي يَحملها. أما إذا كانت الحكومة الروسيةُ قد ألقت القبض على الرجل الإنجليزي؛ إذا وضعوه في سجن «سانت بيتر آند سانت بول» فإنهم لا يَجرءون على الإفراج عنه، إلا إذا كانوا يَرغبون في أن يُواجِهوا حربًا. لا تملكُ الحكومةُ الروسيةُ أن تفعل شيئًا في حالته سوى الإنكار، والمُطالبة بإثبات، وطمس كل فرصةٍ قد تؤدِّي يومًا إلى ظهور الحقيقة. لقد هلكَ آلان دروموند؛ إنهم لا يَجرءون على إطلاق سراحه. والآن فكِّري لحظةً إلى أيِّ مدًى ستكون حالتي أسوأ من حالتكِ، لو أنني ... لو أنني ...» ارتجفَ صوتُها وضَعُفَ قليلًا، ثم استعادت السيطرةَ على نفسها بإغلاق قبضتَيها بإحكام، وأنهَت جملتها قائلةً: «لو أنني أعرتُ الأمر اهتمامي.»

نهضَت كاثرين من مكانها سريعًا، وقالت لاهثةً: «يا إلهي، دورثي، دورثي، دورثي!»

«لا، لا، لا تتسرَّعي في الوصول إلى أيِّ استنتاجٍ خاطئ. إنَّ كلتينا مُنهارة ثائرة الأعصاب اليوم. لا تُسيئي فهمي. أنا لا أكترث لشيءٍ، لا أكترث لشيءٍ، سوى أنني أكره الحكم الاستبدادي، وأنا أشعر بالأسى على ضحاياه.»

«دورثي، دورثي!»

«نحتاج إلى رجلٍ عاقلٍ في المنزل يا كيت. أرسلي برقيةً إلى أبيكِ لكي يأتي ويتحدَّث معنا. يجب أن أنهي رسالتي إلى جماعة العَدَميِّين.»

قالت كاثرين وهي تُقبِّلها: «دورثي!»

الفصل الثاني عشر

تروجزموندوف المُفزِعة

رافقَ الخادمُ عضوَ جماعة مؤيدي العَدَمية إلى قاعة الاستقبال الأنيقة في الشقة، حيث وجدَ دورثي إمهيرست تنتظره بمُفردها، مثلما اشترط. كان يَرتدي ثيابًا تشبه بذلةً نظاميةً بحريةً ويَحمل في يده قلنسوةً مُستدقَّة الرأس، ووقفَ هناك مرتبكًا وكأنه غير مُعتادٍ على الأماكن الفخمة. كان وجهه برونزي اللون من أثر التعرُّض للشمس والعاصفة، ورغم أن عمره بدا أكثر من الثلاثين بقليل فحسب كان شعرُهُ البالغُ القِصَر أشيب. وكانت عيناه زرقاوين فاتحتي الزرقة، ولو كان في الدنيا رجلٌ تدلُّ تعابيرُ وجهه على استقامةٍ راسخةٍ لكان هو ذلك البحَّار. لم يكن فيه أدنى شَبَهٍ مِمَّا تتصوره دورثي عن مُتآمرٍ خطير.

«تفضَّل بالجلوس.» هكذا قالت دورثي، فجلسَ جِلسةَ القَلِق.

بدأت دورثي كلامها قائلةً: «أظن أن جونسون ليس اسمك الحقيقي.»

«إنه الاسم الذي أُدعى به في أمريكا يا سيدتي.»

«هل تُمانع في أن أسألك بعض الأسئلة؟»

«لا يا سيدتي، لكن إذا سألِتني عن أيِّ شيءٍ غيرِ مسموحٍ لي بالإجابة عنه فلن أجيبك.»

«منذ متى وأنتَ في الولايات المتحدة؟»

«منذ بضعةِ أشهرٍ فقط يا سيدتي.»

«كيف تسنَّى لك أن تتحدَّث الإنجليزيةَ بطلاقةٍ هكذا؟»

«في شبابي كنتُ أعمل على متن سفينةٍ شراعيةٍ تذرع المياه جَيئةً وذهابًا بين مدينتَي هيلسينجفورز ونيويورك.»

«هل أنتَ روسيٌّ؟»

«أنا فنلنديٌّ يا سيدتي.»

«هل كنتَ بحَّارًا طَوال حياتك؟»

«نعم يا سيدتي. لمدةٍ من الوقت كنتُ موظفًا غير مهمٍّ على متن سفينةٍ حربيةٍ في الأسطول الروسي، إلى أن اكتشفوا أني من مؤيدي العَدَمية، وعندها زُجَّ بي إلى السجن. لقد هربتُ في شهر مايو الفائت، وأتيتُ إلى نيويورك.»

«ماذا تعمل منذ وصولك إلى هنا؟»

«لقد كنتُ محظوظًا للغاية حيث أصبحتُ وكيلًا للقبطان على متن اليخت التوربيني «ذا وُولرس»، الذي يملكُه السيد ستوكويل.»

«يا إلهي، أتقصد المليونير الكبير الذي أفلسَ مصرِفُه منذ شهر؟»

«نعم يا سيدتي.»

«لكن ألا يزال يَحتفظ بيخت؟»

«لا يا سيدتي. أعتقد أنه لن يصعد على متن هذا اليخت أبدًا، رغم أنه ربما يكون أغلى يختٍ في مياه هذه المنطقة. لقد قيل لي إنَّ سعره يتراوَح بين نصف المليون والمليون. لقد أنشأته شركة ثورنيكروفت، على هيئة طرَّادة، وهو يَحتوي على محركاتٍ توربينية من ماركة بارسون. بعد الإفلاس صُرِفَ القبطان والطاقم من الخدمة، وأنا الآن على متن اليخت بمثابةِ حارسٍ حتى يحين موعد بيعه، لكن ليس ثمةَ سوقٌ كبيرةٌ ليختٍ مثل «ذا وُولرس»، وقد أُخبِرتُ أنهم سيُخرِجون ما فيها من تجهيزاتٍ، وسيبيعونها على أنها طرَّادة لإحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية.»

«حسنٌ يا سيد جونسون، لا بد أنك رجلٌ يُعتمَد عليه، ما دامت المحكمةُ قد أناطت بك مسئولية الحفاظ على ملكيةٍ قيمةٍ للغايةِ كهذه.»

«أعتقد أنهم توسَّموا فيَّ الأمانةَ يا سيدتي.»

«إذن لماذا تأتي إليَّ طالبًا عشرةَ آلاف دولار في مقابل رسالةٍ تقول أنتَ إنها مُرسَلةٌ إليَّ، وهي في الحقيقة ملكي؟»

استحالَ وجه الرجل إلى اللون البُني الضارب إلى الحُمرة، وراحَ ينقل قلنسوته من إحدى يديه إلى الأخرى في ارتباك.

«سيدتي، أنا لا أعمل هذا لحسابي الخاص. إنما أنا أمين سر جمعية التحرير الروسية. لقد أجرت الجمعيةُ، من خلال فرعها في سانت بطرسبرج، بعضَ التحريات بالنيابة عنكِ.»

«نعم، وقد دَفعتُ لهم سِعرًا جيدًا جدًّا في مقابل هذا.»

أحنى جونسون رأسه.

وقال: «إنَّ هدفنا يا سيدتي هو كبحُ الحكم الاستبدادي. ولهذا نحن في حاجةٍ مستمرةٍ إلى المال. إنَّ الفقراء هم الذين يتبرعون لصندوقنا، وليس أصحاب الملايين. لقد اكتشفنا أنكِ امرأةٌ غنيةٌ لن تعجز عن دفع المبلغ المطلوب، ولهذا طلبوا هذا المبلغ. صدِّقيني يا سيدتي، أنا أنفِّذ أمر رفاقي. لقد حاولتُ أن أقنعهم بأن يتركوا تحديد الأجر لكرمكِ أنتِ، لكنهم رفضوا. إذا كنتِ ترين طلبهم غيرَ معقولٍ، فلا عليكِ سوى أن تقولي هذا، وسوف أعود وأخبرهم بقرارك.»

«هل أحضرتَ الرسالة معك؟»

«نعم يا سيدتي.»

«هل عليَّ أن أوافق على شروطك قبل أن أراها؟»

«نعم يا سيدتي.»

«هل قرأتها؟»

«نعم يا سيدتي.»

«هل تعتقد أنها تُساوي عشرة آلاف دولار؟»

رفعَ البحَّار عينيه ونظرَ في السقف المزخرف بضع دقائق قبل أن يجيب.

ثم قال في النهاية: «هذا سؤالٌ لا يُمكنني الإجابةُ عنه، إنه يعتمد بصورةٍ كليةٍ على مكانة المُرسِل عندك.»

«أجِبْني عن سؤالٍ آخر. مَن الذي وقَّعَ الرسالة؟»

«لا يوجد توقيع يا سيدتي. لقد عُثِرَ عليها في المنزل الذي كان الشابان يقيمان فيه. لقد فتَّشَ رجالُنا كلَّ شبرٍ في المنزل سِرًّا، ويعتقدون أن كاتب الرسالةِ قُبِضَ عليه قبل أن يُتمَّها. لا يوجد عليها عنوان، ولا شيء يُفصِح عن هوية المعني بهذه الرسالة، باستثناء العبارة التي تبدأ بقوله: «عزيزتي دورثي».»

أسندَت الفتاة ظهرها إلى الخلف وهي جالسةٌ في كرسيها، وتنفَّسَت نفسًا طويلًا. وقالت بتهور: «ليسَت لي.» ثم وهي تَنحني إلى الأمام، صاحَت فجأةً:

«موافقةٌ على شُروطك. أعطني الرسالة.»

تردَّد الرجل، وحاول أن يبحث داخل جيبه في ارتباك.

ثم قال برزانةٍ مُتكلَّفة: «لقد طُلِبَ منِّي أن أحصل على تعهدٍ مكتوبٍ منكِ.»

قالت: «أعطِها لي، أعطِها لي. أنا لا أُخلِف وعدي.»

ناولها الرجلُ الرسالة.

قرأت دورثي وكان الخط مألوفًا لديها: «عزيزتي دورثي، لعلكِ تدركين حالتي المزاجية الرائعة إذ ترينني أتجرأ على افتتاح رسالتي بمثل هذه المقدمة. لقد كنتُ أُقلق نفسي والآخرين على غير طائلٍ بالمرة. لقد تلقيتُ رسالةً من جاك هذا الصباح، واعتراني شكٌّ كبيرٌ لدرجةِ أني ظللتُ بضع دقائق مُرتابًا من ألَّا تكون الكتابة سوى تقليدٍ لخطه. إنه فتًى مُندفعٌ للغاية، ولا يستطيع أن يفكِّر سوى في أمرٍ واحدٍ في لحظةٍ معينة، وهو ما يُفسِّر نجاحه في مجال الاختراع. لقد وصلَته برقيةٌ تقول إنَّ أخته كانت مريضة، فغادر في الحال ليَزورها. لقد سمحتُ لخوفي على سلامته بأن يشوه تفكيري تمامًا، لدرجةِ أني شككت في البداية مثلما أخبرتُكِ في أن تكون الرسالةُ مزيَّفة. ولذلك أرسلتُ برقيةً إلى عِزبته، وتلقيتُ رَدًّا عاجلًا جاءَ فيه أن صحةَ أخته قد تحسَّنَت كثيرًا، وأنه بالفعل في طريقه للعودة، وسيَصل إليَّ في الحادية عشرة من مساء اليوم. هذا هو ما يَحدث إذن عندما يُصابُ رجلٌ بالغٌ بنوبة هستيريا. لقد استنتجتُ أكثر النتائج كآبةً عندما لم يُسمَح لي بدخول وزارة الخارجية والأميرالية. غير أنني تلقيتُ بالأمس تفسيرًا لكلِّ هذا. لقد اكتملَت المهمةُ أخيرًا، وأُطلِعتُ على نُسخ من الرسائل التي مُرِّرَت إلى رؤسائي في الوطن. لا يوجد ما هو أبعث على الرضا من هذا. غدًا سوف أسافر أنا وجاك إلى إنجلترا.

عزيزتي دورثي (ها هي ذي مُحاولتي الثانية لكتابة هذه العبارة)، أنا لستُ ثريًّا، لكنكِ لستِ ثرية أيضًا برغم ثروتكِ الصغيرة في بار هاربر؛ ولذا فنحن مُتساويان في هذا الأمر، مع أنكِ في الواقع تفوقينني إلى حدٍّ بعيدٍ في كل شيءٍ آخر. إنني أحصل على خمسمائة جنيهٍ إسترليني كل عام؛ أي ما يقل قليلًا عن ألفَين وخمسمائة دولار أمريكي، أَوصَى لي بها والدي. هذا بمَعزلٍ عن مهنتي. أنا واثقٌ تمامًا أنني سأنجح في البحرية الآن بعدما أرسلَت الحكومةُ الروسيةُ تلك الرسائلَ، ولذا فحالما تأكَّدتُ من هذا، قررتُ أن أُرسل لكِ رسالةً أتقدَّم فيها إليكِ بالزواج. هَلا تعذرينني على تلهُّفي وتُسكِّنينه بإرسال برقيةٍ إليَّ في نادي «بلووتر كِلَب» في بول موول، وعليها كلمة «نعم» أو كلمة «مُتردِّدة»؟ لن أمنحَكِ امتيازَ إرسال برقيةٍ بكلمة «لا». وأرجوكِ أن تمنحيني الفرصة لأترافَع عن قضيتي بنفسي، إذا استخدمتِ الكلمة الأطول من بين هذه الكلمات. مَعذرةً، إنني أسمع وقْعَ خطوات جاك على الدَّرَج. إنه يصعدُ بخطًى خفيةٍ للغاية، كي يُفاجئني، لكنني أنا الذي سأُفاجئ…»

عند هذا الحد انتهى الكلام. طوَت دورثي الرسالة، ووضعتها في دُرج مكتبها الذي كانت تجلس أمامه.

«هل أكتب الشيكَ باسمكَ أم باسم الجمعية؟»

«باسم الجمعيةِ إذا تكرمتِ يا سيدتي.»

«سأُحرِّره بضِعف المبلغ المطلوب. أنا أيضًا مؤمنةٌ بالحرية.»

«يا إلهي، هذا كرمٌ أشعر أننا لا نستحقُّه يا سيدتي. بعد كلِّ ما فعلتِه من أجلنا أتمنى لو أنني أعطيتُكِ الرسالةَ دون أيِّ شروط.»

قالت دورثي وهي منحنيةٌ تكتب: «أنا واثقةٌ تمامًا من صِدق أمنيتك.» وناولَته الشيك، ونهضَ لكي ينصرف.

«فلتَعُد إلى الجلوس من فضلك. أريد أن أتكلم معك أكثر. هل يعتقد رجالكم في سانت بطرسبرج أن صديقيَّ لم يُرسَلا إلى سيبيريا؟ هل أنتم واثقون من هذا؟»

«حسنٌ يا سيدتي، إنَّ لديهم وسيلةً لمعرفة مَن يُنْفَون، وهم متأكِّدون أن الشابَّين لم يكونا ضمن المجموعات التي أُرسلَت إلى هناك مؤخرًا. إنهم يظنون أنهما في قلعة «سانت بيتر آند سانت بول»، على الأقل هذا هو ما يقولونه.»

«إنَّ كلامك يُوحي بأنك تشكُّ في هذا.»

«أنا فعلًا أشكُّ في هذا.»

«فهل أُرسلا إلى سيبيريا رغم كل ذلك؟»

«يا للهول، يا سيدتي! ثمة أماكن أسوأ من سيبيريا. في سيبيريا يوجد أملٌ للنجاة؛ أما في تروجزموندوف المُروِّعة فليس ثمةَ أمل.»

«ما هي تروجزموندوف؟»

«إنها «صخرة في بحر البلطيق» منعزلةٌ وكئيبةٌ يا سيدتي، إنها السجن الذي لا تتحرَّر الضحيةُ منه إلا بالموت.»

نهضَت دورثي من مكانها وهي تَرتجِف، وحدَّقت إليه، وقد غاضَ الدمُ من شفتيها.

««صخرةٌ في بحر البلطيق!» هي سجن، وليست قلعةً إذن؟»

«إنها قلعةٌ وسجنٌ في الوقت نفسه يا سيدتي. لو خاطرت روسيا يومًا بالقبض على أجنبيٍّ فإن تروجزموندوف هو المكان الذي سيُرسَل إليه. إنهم يُغرقون الضحايا هناك؛ يُغرقونهم داخل زنازينهم. يوجد ينبوعُ ماءٍ في الصخرة، وهو يجري مثل غديرٍ جميلٍ خلال صفِّ الزنازين، لكنْ ثمة رافعةٌ بالخارج إذا سُحِبَت يتوقَّف خروجُ الماء من الزنازين، ويَغرقُ جميعُ المساجين بداخلها. تُوضَع الجثثُ واحدةً تلو الأخرى على أنبوبٍ مائلٍ أملسَ مصنوعٍ من حجَرٍ رمليٍّ مصقول، وفي هذا الأنبوبِ تتدفَّقُ مياهُ ذلك الغديرِ

فتنزلقُ الجثثُ إلى الخارج، وتهوي مسافةَ مائتي قدمٍ داخل بحر البلطيق. لا يهمُّ في أيِّ حالةٍ تكون تلك الجثةُ عندما يُعثَر عليها، ولا مدى حداثة وقتِ تنفيذ الإعدام، فما هي إلَّا جثةُ غريقٍ في بحر البلطيق. ولا توجد آثارُ إصابةٍ بعيارٍ ناريٍّ ولا آثارُ خَنْق، ثم إنَّ تيارات الماء تَحملهم بعيدًا عن الصخرة بسرعةٍ.»

«كيف تسنَّى لكَ معرفةُ كل هذا الذي يبدو أنه محجوبٌ عن علمِ الدنيا كلها؟»

«أعرفُ ذلك يا سيدتي لأسبابٍ وجيهةٍ للغاية. لقد حُكِمَ عليَّ هذه السنةَ تحديدًا بالسجن في قلعة تروجزموندوف. ففي أثناء عملي وأنا شابٌّ بين مدينتَي هيلسينجفورز ونيويورك، حصلتُ على الجنسية الأمريكية في نيويورك؛ لأنني كنتُ واحدًا من أعضاء طاقم سفينةٍ أمريكية. عندما أكرهوني بصورةٍ غير قانونيةٍ على الخدمة العسكرية في مدينة هيلسينجفورز وأجبروني على الالتحاق بالبحرية الروسية، تعاملتُ مع هذا الموقف الصعب وحاولتُ أن أُحقِّق منه أقصى استفادةٍ مُمكنة، ولأنني كنتُ بحَّارًا خبيرًا أحسَنوا معاملتي إلى حدٍّ ما، وترقيتُ في العمل، لكنهم في النهاية اكتشفوا أني كنتُ أتراسل مع إحدى الجمعيات العَدَمية في لندن، وعندما قُبض عليَّ طالبتُ بالحصول على حقوق مواطنٍ أمريكي. لكن هذا تسبَّب في هلاكي. لقد أُرسلتُ، من دون محاكمةٍ، إلى قلعة تروجزموندوف في شهر أبريل من هذا العام. عندما وصلتُ إلى هناك كنتُ من الحماقة بمكانٍ بحيث هدَّدتُهم، وقلتُ إنَّ رفاقي لديهم طرقُهم لإخبار حكومة الولايات المتحدة، وإنَّ سفينةً حربيةً واحدةً سوف تؤدب سجَّاني الصخرة.

إنَّ الزنازين المنحوتةَ داخل الصخرة حالكةُ الظلمة؛ ولذا عجزتُ تمامًا عن حساب الوقت. قد تحسبين أنه كان بإمكاننا أن نُميِّز الليل من النهار من خلال مواعيد إحضار وجباتنا، لكن الحال لم يكن هكذا. لقد أحضر لي السَّجَّانُ رغيفًا كبيرًا من الخبز الأسود، وقال إنه يجب أن يكفيني مدة أربعة أيام. وضعَ الرغيف على إفريزٍ صخريٍّ يرتفع عن الأرض بحوالي ثلاث أقدام، ويُستخدَم منضدةً للطعام وسريرًا للنوم كذلك. عند حفر الزنزانة تُرِكَ ذلك الإفريزُ دون أن يمسَّه أحد، وتُرِكَ في مواجهته كذلك مقعدٌ صخريٌّ طويلٌ بارزٌ من الأرض. الحق أنَّ العُمَّال الذين نحتوا هذه الغرفةَ كانوا بارعين جدًّا لدرجةِ أنهم نحتوا وسادةً صخريةً مستديرةً في أحد طرفي الإفريز.»

«لا أدري عدد الأيام التي مرَّت عليَّ داخل السجن عندما وقعَ الانفجار. لقد هزَّ الصخرةَ بأكملها، وتساءلتُ في نفسي عما حدث. بعد ذلك مباشرةً تقريبًا بدا أن انفجارًا آخر قد وقع، لم يكن مزعجًا بدرجةٍ كبيرة، فظننتُ أنه ربما كان صدًى للانفجار الأول.

بعد حوالي ساعةٍ فُتِحَ باب زنزانتي، ودخل السجَّان ومعه رجلٌ آخر يَحمل مصباحًا في يده. كنتُ قد تناولتُ جزءًا من رغيفي الأسود الثالث؛ ولذا لا بد أنه مرَّ عليَّ تسعة أو عشرة أيام داخل السجن. أخرجَ السجَّانُ الرغيفَ من الزنزانة، وعندما عادَ سألتُه ماذا حدث. أجابني السجَّانُ بكلماتٍ فَظَّةٍ مؤداها أن سفينتِي الحربية الأمريكية أطلقَت النار على الصخرة، وأَّن حاميةَ الصخرة ردَّت على الهجوم، وعندئذٍ رحلت السفينةُ وقد أصابها الشلل.»

كانت دورثي تُنصتُ باهتمامٍ شديدٍ إلى هذا الكلام، لكنها في تلك اللحظة قاطعَته قائلةً:

«لقد كانت سفينةً حربيةً إنجليزيةً هي التي أطلقَت القذيفة، ولم تقترب القذيفةُ الروسيةُ من السفينة أكثرَ من نصف ميل.»

حدَّق البحَّار إليها بعينَين مشدوهتَين.

قالت دورثي موضحةً: «لقد كنتُ أُجري بعض التحقيقات. من فضلك واصل حديثك.»

«لم أسمع قط أنها كانت سفينةً إنجليزية. لقد سخر السجَّان منِّي، وقال إنه سيجعلني ألحقُ بالسفينة الأمريكية، بحسبِ ما تخيَّلها هو، على ما أظن. لقد خشيتُ أن يكون أخذ الخبز من أجل تجويعي حتى الموت، وندمتُ لأني لم أتناول المزيدَ منه في وجبتي الأخيرة. استلقيتُ على الإفريز الصخري، وسُرعان ما استغرقتُ في النوم. لكنني استيقظتُ على صوت الماء الذي يَرتطم بالصخور من حولي. كانت الزنزانة ساكنةً تمامًا. كنتُ قبل ذلك دائمًا ما أستمتع بصحبةِ جدول ماءٍ صغيرٍ يجري على امتداد جانب الزنزانة الأبعد عن الباب. لقد انقطعَت أنغامُ جريانه في تلك اللحظة، وعندما وثبتُ واقفًا وجدتُ نفسي مغموسًا حتى خاصرتي في ماءٍ شديد البرودة. وعلى الفور استنتجتُ ما تُستخدم فيه الرافعاتُ الموجودةُ خارجَ الزنزانة في الممر الذي كنتُ قد رأيتُه في ضوءِ المصباح يوم دخولي إلى ذلك المكان، وحينها عرفتُ السبب في أنَّ باب السجن لم يكن يحتوي على واحدةٍ من تلك الحواجز الشبكية التي تُمكِّن السجَّانَ الذي في الممر من النظر داخل الزنزانة في أي وقتٍ من الليل أو النهار. لقد أخبرني السجناءُ أن الشك الذي يعتري السجينَ عندما لا يعرف مطلقًا متى قد تتجسَّس عليه العيونُ يزيد من رعب الموقف، لكن الأبواب المانعة لتسرب الماء في قلعة تروجزموندوف خاليةٌ من تلك الميزة، وإنما صُممَت من أجل غايةٍ خبيثةٍ جدًّا.

إن القناة الموجودة في الأرض والتي يتدفَّق الماء خلالها عندما تكون الزنزانة فارغةً، والأنبوب الموجود في السقف والذي يسيل الماء منه عندما تكون الزنزانة ممتلئةً، يوفران قدرًا كبيرًا من التهوية، بصرف النظر عن مدى إحكام غلق الباب. أخذَ الماءُ يرتفعُ ببطءٍ شديدٍ حتى وصلَ إلى المَخرج العُلوي، وعندئذٍ بقي مستواه ثابتًا. لقد طفوتُ فوق القمة بسهولةٍ بالغة، ولم أبذل سوى مجهودٍ قليلٍ جدًّا كان ضروريًّا لإبقائي في هذا الموضع. لو رفعتُ رأسي وأنا في هذا الموضع لاصطدم جبيني بالسقف. من الجائز أن الزنزانة المجاورة لزنزانتي، والمنخفضة عنها، كانت فارغة. لقد سمعتُ الماءَ ينصب داخلها مثل شلالٍ صغير. كانت الزنزانة التالية بعدها، وفي الواقع جميع الزنازين الواقعة في هذا الاتجاه، تُغمَر بالماء مثل زنزانتي. بالطبع لم تكن مشكلةً بالنسبة إليَّ أن أظل طافيًا؛ كانت الخطورة الوحيدة التي أخشاها هي أن جسمي قد يتخدَّر، من أثر البرودة الشديدة للماء، بدرجةٍ يصعب التعافي منها. لكنَّني رغم ذلك، كنتُ معتادًا على مثل هذه الصعوبات قبل الآن، وذلك في الشمال المتجمِّد. أخيرًا توقَّف الهديرُ اللطيف الذي يُحدثه شلال المياه، وأدركتُ أن زنزانتي كانت تفرغ نفسها. عندما وصلتُ إلى الإفريز مرةً أخرى، أخذتُ أمدِّد أطرافي إلى الخلف والأمام بأقوى ما استطعت، وبأهدأ ما استطعت؛ لأنني لم أُرِد لأي صوتٍ أن يدلَّ بأدنى درجة على أنني لا أزال على قيد الحياة، هذا لو كان لأي صوتٍ أن يَنفذ بالفعل إلى الممر، وهو أمرٌ غير وارد. قبل خروج آخر قطرةِ ماءٍ من الزنزانة مباشرةً بقيتُ ممددًا بالكامل على الأرض، على أمل أن يكون لديَّ من الثبات ما يَكفي للبقاء هادئًا تمامًا عندما يأتي الرجال ومعهم المصباح. لم يكن ثمَّة ما يَضطرني للخوف. انفتح الباب، ورفعني أحدُ الرجال من عَقِبَيَّ، وباستخدام ساقيَّ وكأنهما عمودا عربةِ يدٍ سحَبَني عَبْرَ الممر إلى المكان الذي ينبثق منه جدولُ الماء من الزنزانة الأخيرة، وقذف بي في هذا السيل. مرَّت عليَّ لحظةٌ مفاجئةٌ وجيزةٌ من الظلام، ثم انطلقتُ، بقدميَّ أولًا، في الفضاء، وظللتُ أهوي وأهوي في الهواء مثلما يهوي المطمار، حتى وصلتُ إلى ذراعَي أمي.»

«إلى ماذا؟» بهاتين الكلمتَين صاحت دورثي وقد شحبَ لونها وانقطعَت أنفاسها؛ إذ توهَّمت أن سرد هذه الآلام قد شوَّش تفكيرَ الرجل.

«بحر البلطيق يا سيدتي هو أم كل فنلنديٍّ. إنه يُطعمه في الحياة، ويحمله إلى حيث يريد، وكل فنلنديٍّ حقيقيٍّ يتمنَّى أن يموت بين ذراعَيه. لقد شعرتُ به دافئًا تقريبًا بعد ما مررتُ به، وكان طعمُ الملح على شفتيَّ طيبًا. كانت ليلةً جميلةً مُضاءةً بالنجوم من ليالي شهر مايو، وأخذتُ أعوم حول الصخرة؛ لأنني كنتُ أعلم أنه في خليجٍ صغيرٍ في الجانب

الشرقي، يوجد مَخفيًّا عن مرأى البحر كله، قاربُ صيدٍ فنلنديٌّ صغيرٌ يستطيع أن يصمد لأيِّ عاصفة، وكان في الماء في تلك اللحظة رجلٌ يعرف كيف يتعامل معه. يَنبغي إنزال السجناء على الجانبِ الشرقي والاستفادة من التكوين الطبيعي لهذه الصخرة الشديدةِ التحدُّر، حتى إذا تسلَّق رجلٌ ما الدَّرَجَ المتعرج الشديد الانحدار الذي يؤدي إلى الجزء المأهول من الصخرة فإنه يظل مَخفيًّا عن مَرأى أي مركبٍ فوق سطح الماء حتى ولو كان على بُعد أربعمائة أو خمسمائة ياردة. لا شيءَ مما يُرى من خارج الصخرةِ يعطي أيَّ أمارةٍ على وجود أحدٍ يسكنها. أعتقد أنهم يحتفظون بقارب الصيد من أجل حالات الطوارئ؛ لأنَّ مدير القلعة ربما يحتاج للاتصال بمَن على الشاطئ عند الضرورة. لقد خشيتُ من احتمال أن يكون مُوثقًا بإحكامٍ شديدٍ بحيث لا أستطيع فكَّه. غير أنَّ الموقع المنعزل قد جعلهم مُهمِلين، ولم يكن القارب مربوطًا إلا بحبالٍ في بعض الأطواق المثبَّتة في الصخرة، كان الغرضُ من ذلك هو حمايته من أن تخدش الصخورُ جوانبَه، وليس منع أي أحدٍ من سرقته. دفعتُه خارجًا عبر الفتحة، وأسرعتُ بدخوله، وطفوتُ مع التيار السريع، ولم أرغَب في رفعِ أي شراع حتى ابتعدتُ تمامًا عن مَرمى المدافع. ما إن ابتعدتُ عن الصخرة حتى نشرتُ الأشرعة، وعند الفجر كنتُ بمنأى عن أنظار مَن على البر. لقد أبحرتُ باتجاه ستوكهولم، ولمَّا لم يكن يوجد علامةٌ أو اسمٌ على القارب يدل على أنه مِلكٌ للحكومة الروسية، لم أجد صعوبةً كبيرةً في بيعه. لقد أخبرتُ السلطات بشيءٍ حقيقيٍّ تمامًا؛ وهو أني بحَّارٌ فنلنديٌّ هاربٌ من طاغيةِ بلدي، وأني أتوق إلى الوصول إلى أمريكا. ولأن مثل هذه الوقائع تَحدُث فعليًّا كل أسبوعٍ على طول الساحل السويدي لم يتعرض لي أحد، وحصلتُ من بيع القارب على ما يكفي من المال لشراء ثيابٍ جيدة، وأبحرتُ إلى إنجلترا، ومنها إلى نيويورك في الدرجة الأولى على متن باخرةٍ عادية.

كان بإمكاني بالطبع أن أُسافر بسهولةٍ شديدةٍ في زيٍّ بحَّارٍ من ستوكهولم، لكنني كنتُ قد سئمتُ من كوني بحَّارًا عاديًّا، وتوقعتُ أنني إذا لبستُ ثيابًا محترمةً، فسوف أحصل على وظيفةٍ أفضل من التي يمكن أن أحصل عليها لو لم أفعل ذلك. لقد ثبتَت صحةُ توقُّعي؛ لأنني عندما عبرتُ المحيطَ تعرَّفتُ إلى السيد ستوكويل، وقد عيَّنني وكيلًا للقبطان في يخته. هكذا هربتُ من قلعة تروجزموندوف يا سيدتي، وأعتقد أنه لم يكن لأحد أن يفعلها سوى فنلنديٍّ.»

قالت دورثي: «أتفق معك تمامًا. أتعتقد أن هذَين الرجلين اللذَين كنتُ أحقِّق بشأنهما قد أُرسلا إلى قلعة تروجزموندوف؟»

«قد لا يكون الروسيُّ هناك يا سيدتي، لكن الإنجليزي هناك بالتأكيد.»

«هل المدفع على الجانب الغربي من الصخرة؟»

«لا أعرف يا سيدتي. لم أرَ الجانب الغربي في ضوء النهار قط. ولم أُلاحظ أيَّ شيءٍ على الجانب الشرقي وأنا أتسلَّق الدَّرَجَ يدل على أنه كان يوجد أيُّ مدفعٍ على الإطلاق فوق قلعة تروجزموندوف.»

«أظنك لم تتحصَّل على الفرصةِ لمعرفة عدد حُرَّاس الصخرة، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدتي. لا أعتقد أن الحامية كبيرة. إنَّ المكان مُنعزل إلى حدٍّ بعيد بحيث لا يحتاج إلى الكثير من الرجال لحراسته. إنَّ السجناء لا يخرجون أبدًا من أجل التريُّض، وكما أخبرتُكِ، لا يُقدَّم لهم الطعامُ إلا مرةً كل أربعة أيام.»

«إلى أي مدًى يُمكن أن تبلغ ضخامةُ طاقم يخت «ذا وولرس»؟»

«يا إلهي، بقدرِ ما تشائين يا سيدتي. إنَّ اليخت في الواقع باخرةٌ من بواخر المحيط.»

«هل توجد أيُّ منصةٍ لرسو السفن عند الجانب الشرقي من الصخرة؟»

«في الواقع لا يا سيدتي. لقد توقَّفت الباخرةُ بعيدًا، وأُنزِلتُ إلى الخليج الصغير الذي ذكرتُه لكِ، عند قاعدة الدَّرَج.»

«لن يكون من الممكن وضعُ باخرةٍ مثل «ذا وولرس» بمحاذاة الصخرةِ إذن، أليس كذلك؟»

«سيكون هذا ممكنًا أثناء هدوء الرياح والأمواج، لكنه سيكون خطيرًا جدًّا رغم ذلك.»

«هل تستطيع العثور على هذه الصخرة إذا كنتَ تقود سفينةً تبحر في بحر البلطيق؟»

«يا إلهي، نعم يا سيدتي.»

«لو أُنزِل عشرون أو ثلاثون رجلًا من ذوي الإرادة الماضية على الدَّرَج، هل تتوقع أن يتمكَّنوا من القبض على الحامية؟»

«نعم، إذا أُنزلوا سِرًّا، لكنَّ جنديًّا أو اثنين فوق القمة معهما أسلحةٌ آليةٌ يستطيعان أن يدافعا عن الدَّرَج ضد هجوم جيشٍ كامل، ما دامت ذخيرتهما لم تنفد.»

«لكن لو أُطلِقَت قذيفةٌ من الباخرة، ألا تتمكَّن السَّريةُ المهاجمةُ من الدخول أثناء ارتباك صفوف المدافعين؟»

«هذا ممكنٌ يا سيدتي، لكنَّ باخرةً خاصةً تُطلق القذائف، أو في الواقع، تُنزل سريةً عدائيةً، فإنها تُعرِّض نفسها للوقوع في قبضة القراصنة.»

«لن تهتمَّ بخَوض التجربة إذن، أليس كذلك؟»

«أنا؟ يا إلهي، سيكون مِن دواعي سروري أن أخوضها، إذا سمحتِ لي باختيار الطاقم. يمكنني أن أضع على متنها الأسلحة الصغيرة والذخيرة المطلوبة، لكنَّني لستُ واثقًا تمامًا بشأن المدفع.»

«جيدٌ جدًّا. لستُ في حاجةٍ لإخبارك بأن تكون في غاية الحذر بشأن مَن تأتمنهم. في الوقت الحاضر، أُريد منكَ أن تتواصَل مع الموظَّف المخوَّل له بيع اليخت. أتوقَّع حضور رجلٍ في الغد ربما يُشترى اليخت باسمه، وأرجو أن يَقبل أن يكون قبطانًا له.»

«هل هو قادرٌ على تولي هذا المنصب يا سيدتي؟ هل هو بحَّار؟»

«لقد كان على مدى سنواتٍ عدة قبطانًا في أسطول الولايات المتحدة. إنني أعرض عليك منصب وكيل القبطان، لكنني سأُعطيكَ أجر القبطان، علاوة على مُكافأةٍ كبيرةٍ إذا أخلصَت في تنفيذ خُططي، سواء نجحَت أم لا. أريد منكَ أن تأتيَ إلى هنا غدًا في مثل هذا الوقت، مع الشخص المخوَّل له بَيع اليخت أو تأجيره. يُمكنك القول إنني غير مُتأكِّدةٍ هل أشتري أم أستأجِر. يجب أن أستشير القبطان كِمْت في هذه المسألة.»

«أشكركِ يا سيدتي، سأكُون هنا غدًا في مثل هذا الوقت.»

الفصل الثالث عشر

في الشَّرك

بدأ الأميرُ إيفان ليرمونتوف يَعُد الانفجارَ واحدًا من أكثر الأشياء الميمونة التي وقعَت في ورشته على الإطلاق. لقد رأى أن وقوع الانفجار في وقتٍ مُبكرٍ جدًّا بعد وصوله إلى سانت بطرسبرج كان حَدَثًا سعيدًا بشكلٍ بارزٍ؛ إذ منَحَه ذلك الوقتَ لاتباع النزعة الجديدة في التفكير والتي كان عقلُه من قبل منحرفًا بعيدًا عنها، وذلك بتأثير معلومةٍ كتلك التي كشفَت له عنها النتيجةُ غيرُ المتوقَّعة لتجربته العِلمية. كانت المادةُ التي استخدمها لتحفيز التفاعل الكيميائي مادةً جديدةً كان قد قرأ عنها من قبل في مجلةٍ عِلمية، واشترى كميةً قليلةً منها من لندن. إذا كان مقدارٌ صغيرٌ جدًّا قد تسبَّبَ في نتائجَ بهذا القدر من الضخامة، فقد بدأ يرى أن أي رجلٍ يحمل في جيب صدريته مادةً تبدو في ظاهرها بريئةً ربما يكون قادرًا على تدمير مرفأٍ بَحريٍّ كامل، وذلك إذا اقترن الماء والحجر أحدهما بالآخر. كان ثمة احتمالٌ أيضًا بأنَّ دَمْجَ كميةٍ صغيرةٍ من تلك المادة المسماة بالأُوزاك مع الماء الصافي، ربما يُكوِّن عاملَ اختزالٍ لحجرِ الجير، وربما لمعادن أخرى أيضًا، وهو ما سيعمل بطريقةٍ أسرع للغاية مما لو كان السائلُ مشبَّعًا بغاز حمض الكربونيك فحسب. لقد سعى لشراء بعض الأوزاك من السيد كروجر، الكيميائي الموجود عند رصيف الميناء الإنجليزي، لكن ذلك الرجل الطيب لم يَسمع عن هذه المادة قَط، واقتنعَ بعد يومٍ من البحث أنه لن يَجدها في سانت بطرسبرج؛ لذلكَ حثَّ الأميرُ السيدَ كروجر على طلبِ نصفِ رطلٍ منها من لندن أو باريس، وقد وجدها في تلك المدينة الثانية. انتظر الأميرُ وصولَ هذه الطلبية بأقصى ما كان يستطيع من الصبر وظلَّ يزور السيدَ كروجر المسكينَ كل يومٍ على أمل أن يَحصُل عليها.

وفي عصر أحد الأيام سعِد الأميرُ بسماعه خبرَ وصول الصندوق، رغم أن محتوياته لم تُفرغ بعد.

قال الكيميائي: «سوف أرسله إلى منزلك الليلة. يُوجد عددٌ من الأدوية في الصندوق تخص صديقك القديم البروفيسور الجامعي بوتكين، وهو أكثر تلهفًا على تسلُّم إرساليته منك إلى تسلُّم إرساليتك. عجبًا، ها هو ذا.» وما إنْ نطق بكلمته حتى دخلَ السيد الموقَّر بوتكين نفسه إلى المحل.

صافحَ البروفيسور بحرارة ليرمونتوف الذي كان من طلابه المفضَّلين دومًا، وقد علم البروفيسور أنه كان يزور إنجلترا وأمريكا منذ عهدٍ قريب.

سأله الرجلُ العجوزُ: «ألا يُمكنك أن تتناول العشاء معي هذا المساء في الساعة الخامسة والنصف؟ سوف يأتي ثلاثة أصدقاء أو أربعة، وسيُسعدني أن أعرِّفهم عليك.»

قال الأمير بتردُّد: «في الحقيقة سيدي البروفيسور، ثمة صديقٌ مُقيمٌ معي، ولا أُحب فقط أن أتركه بمفردِه.»

قال البروفيسور: «أحضِره معك، أحضِره معك، لكن احرص في جميع الأحوال على أن تأتي أنت. سوف أنتظرك. اعتذِر لصديقِك إذا كان لا يرغب في أن يتحمَّل ما قد يراه مناقشةً جافة؛ لأننا لن نتحدث في شيءٍ سوى الكيمياء والسياسة.»

وعده الأميرُ بأن يحضر سواءٌ جاءَ صديقُه أم لا. وهنا قاطعهما الكيميائي، وقال للبروفيسور إنه سيرسل له لوازمَه في غضون ساعتَين.

وقال للأمير: «وبخصوص طردك، فسأرسله لك في الوقت نفسه تقريبًا. لقد كنتُ مشغولًا جدًّا، ولا يُمكنني الوثوق في أي أحدٍ غيري ليفرِّغ محتويات هذا الصندوق.»

«لستَ مضطرًّا لتجشُّمِ عناء إرساله، وعلى أيِّ حالٍ فإنني لا أرغب في المخاطرة بأن يسلِّمه رسولُك إلى عنوانٍ خطأ. أنا لا أُطيق الانتظارَ طويلًا بحيث أضطرُّ لتكرار الطلبية من جديد. سوف أتعشَّى مع البروفيسور الليلة؛ ولذا سوف أمرُّ بك وآخذ الطرد بنفسي.»

قال الكيميائي: «ربما يكون من الأنسب أن أُرسل طردك إلى منزل البروفيسور بوتكين، أليس كذلك؟»

قال الأمير بحسم: «نعم. سوف أمر لأخذه في الخامسة تقريبًا.»

ضحكَ البروفيسور.

وقال: «نحن، أصحابَ التجاربِ العلمية، لا يثق بعضنا في بعض أبدًا.» وهكذا تصافَحا وانصرَفا.

عند عودة ليرمونتوف إلى ورشته، صعدَ الدَّرَج وثبًا، وحيًّا صديقَه المُلازم.

وقال: «اسمع يا دروموند، سوف أتعشى الليلةَ مع البروفيسور الجامعي بوتكين، الذي كان يُدرِّس لي الكيمياء قديمًا. إنَّ موعده في الخامسة والنصف، ومعي دعوةٌ لك. سوف يحضر العديدُ من العلماء، ولن يكون بينهم نساء. هل ستأتي؟»

قال الرجل الإنجليزي: «أُفضِّل كثيرًا ألَّا آتي. إنني أعمل بعجَلةٍ وهِمَّةٍ في هذه الكتب، وأدرُس خطةً استراتيجيةً؛ أضعُ خُططًا لهجومٍ على مدينة كراونستات الساحلية.»

«حسنٌ، استمع إلى نصيحتي يا آلان ولا تترك أيًّا من تلك الخطط حيث يمكن لشرطة سانت بطرسبرج أن تجدها. إنَّ ممارسةَ مثلِ هذا النوعِ من الدراسةِ في لندن أكثرُ أمنًا من ممارستِه هنا. سوف يسرُّهم حضورُك جدًّا يا دروموند، وسيسعد الرجلُ العجوز بمقابلتك. لست مُضطرًّا للقلق بشأن ملابس السهرة؛ بساطةُ العَيش وسُمُو الفِكر، أتفهَّم قصدي؟! لن أرتدي سوى ياقةٍ نظيفةٍ ورابطة عنق جديدة، بقدرِ ما يَكفي للمناسبة.»

«أُفضِّل ألَّا أذهب يا جاك، إذا لم يكن عندك مانع. لو ذهبتُ إلى هناك فستُحاولون جميعًا أن تتحدَّثوا بالإنجليزية أو الفرنسية، وعندئذٍ سأشعر أنني أعكِّر صفو الصحبة. علاوة على هذا، فأنا لا أعرف أيَّ شيءٍ عن العلوم الطبيعية، وأحاول أن أتعلَّم شيئًا ما عن فن التخطيط. متى تتوقَّع أن تعود؟»

«سأعودُ مبكرًا نوعًا ما؛ في العاشرة أو بعدها بنصف ساعة.»

«جيد، سوف أنتظرك.»

في الساعة الخامسة ذهبَ جاك إلى محل الكيميائي وتسلَّم طردَه. عندما فتحه وجدَ مادة الأوزاك في قِنِّينتَين بِسداداتٍ زجاجيةٍ، سِعةُ كل زجاجة منهما أربع أونصات، فأخذهما ووضعهما في جيبه.

«هَلا تُعطيني ثلاثَ محاقن رشَّاشة، وليكن حجمها أكبر حجمٍ لديك، واحدة مطاطية، وأخرى زجاجية، وواحدة معدنية. لستُ متأكدًا لكن هذه المادة ستُفسد إحداها بالتأكيد، وأنا لا أريد أن أقضي بقية حياتي في الركض إلى متجَرك.»

بعدما حصلَ الأميرُ على المحاقن قفزَ إلى عربة الأجرة، وانطلقَ به السائقُ إلى منزل البروفيسور.

قال الأمير للسائق: «تستطيع أن تمرَّ عليَّ في الساعة العاشرة.»

كان هناك ثلاثةٌ آخرون بالإضافة إليه هو والبروفيسور، وكانوا جميعًا مُهتمِّين بمعرفة آخِر أخبار العلوم الطبيعية في نيويورك ولندن.

افترق الأصحابُ في العاشرة والربع. استقلَّ ليرمونتوف عربة الأجرة، وانطلق السائقُ مُحدثًا جلبةً في الشارع. لم يَقُل الأميرُ أي شيءٍ عن اكتشافه طوال مدة المناقشة، وعندما خلا إلى نفسه في تلك اللحظة عادَ عقلُه إلى المادة الموجودة في جيبه، وأسعده أن السائق كان يعدو سريعًا بجواده؛ إذ ربما يُمكِّنه هذا من الوصول إلى ورشته سريعًا. فجأةً لاحظ أنهما كانا يندفعان بسرعةٍ في شارعٍ يؤدي إلى النهر.

صاحَ الأمير مُخاطبًا السائق: «لو سمحت، لقد أخذتَ منعطفًا خاطئًا. هذا شارعٌ مُغلق. لا يوجد رصيفُ ميناء ولا جسرٌ هنا. فلتعُد بِنا.»

قال السائقُ دون أن يَلتفت: «أدركتُ هذا الآن. سوف أستديرُ بالعربة عند نهاية الشارع حيث المكان أوسع هناك.»

استدارَ السائقُ بالفعل، لكنه لم يَعُد إلى الشارع مرةً أخرى، بل اندفعَ بسرعةٍ عَبْرَ مدخلٍ مقوَّس مفتوحٍ أوصلهما إلى فِناءٍ مبنًى ضخمٍ يقع في مواجهة نهر نيفا. ما إن أصبحَت العربةُ في الداخل حتى صدر عن البوابة رنين الانغلاق.

سأله الأميرُ بغضب: «والآن، ما الذي تَعنيه بفِعلك هذا بحق السماء؟»

لم يُجِب السائقُ بشيء، ثم خرجَ من أحد الأبواب الواقعة في جهة اليمين ضابطٌ طويلُ القامةِ يرتدي بِزةً نظاميةً، وقال:

«إنها الأوامر، يا سمو الأمير، الأوامر. لا ذنبَ للحُوذِيِّ في هذا. هل تتفضَّل سموك بمرافقتي إلى الداخل؟»

سأله النبيلُ الغاضِبُ قائلًا: «ومَن تكون أنتَ أصلًا؟»

«أنا شخصٌ مطلوبٌ منه أن يؤدِّي مهمة بَغيضة، لكن تستطيع سموك أن تجعلها أيسر كثيرًا إذا أعرتَ طلباتي اهتمامك.»

«هل أنا رهنُ الاعتقال؟»

«لمْ أقل هذا أيها الأمير إيفان.»

«إذن أطلبُ منك أن تفتح البوابة حتى أتمكَّن من العودة إلى بيتي، حيث ينتظرني عملٌ أهم من الحديث مع شخصٍ غريبٍ يرفض الإفصاحَ عن هويته.»

«أرجو أن تُسامحني يا سمو الأمير ليرمونتوف. إنني أتصرَّف، مثلما تصرَّفَ الحُوذيُّ، تحت الإكراه. لسنا بصدد الحديث عن هويتي. إنني أطلبُ منك للمرةِ الثانية أن تأتي معي.»

«إذن، للمرةِ الثانية أسألك، هل أنا رهنُ الاعتقال؟ إذا كان الأمر كذلك، فأرني مذكرة الاعتقال، وعندها سآتي معك دون اعتراضٍ على شيء، ولكن أيًّا كان مَن أصدر مذكرة الاعتقال هذه فقد تجاوز حدود سلطته.»

«لم أرَ أيَّ مذكرة اعتقالٍ يا سمو الأمير، وأظن أنك تخلط بين حقوقك وحقوق مواطنين مقيمين في بلادٍ معينة كنتَ تزورُها مؤخرًا.»

«ليس لديك مذكرة اعتقالٍ إذن، أليس كذلك؟»

«ليس معي مذكرة اعتقال. إنني أتصرف تبعًا لأوامر رئيسي، ولا أجرؤ على مناقشتها. أرجو أن تتبعني دون مزيد تفاوضٍ هو في الحقيقةِ مُحرِجٌ لي ولا يُجديك نفعًا. لقد أُمرتُ بمعاملتك بكل احترام، لكني برغم ذلك مُنحتُ صلاحيةَ استخدام القوة. حتى إنني مأمورٌ بالاكتفاء بتأكيدٍ لفظيٍّ منك على أنك لستَ مُسلَّحًا، وتَعلم سموك تمام المعرفة أنَّ مثل هذا التساهُل نادرًا ما يُنفَّذ في سانت بطرسبرج.»

«حسنٌ يا سيدي، حتى لو فشلَ تأكيدي الشفويُّ في تجريدي من سلاحي، فإن لُطفكَ سينجح في هذا. أنا أحمل مُسدسًا. هل تُريد الحصول عليه؟»

«إذا تعطَّفتَ سموك بإعطائي إياه.»

أمسكَ الأميرُ السلاحَ، وجعل عِقبَه للأمام، وناول الضابطَ إياه، فتناوله بتحيةٍ مهذَّبة.

قال الأمير: «ألا تعرف شيئًا عن السبب وراء هذا التصرُّف؟»

«لا شيءَ مطلقًا يا سمو الأمير.»

«إلى أين ستأخُذُني؟»

«إذا تمشيتَ معي سموك أقل من ثلاث دقائق فستعرف المكان.»

ضحكَ الأميرُ، وقال:

«يا إلهي، حسنٌ إذن. هل لي أن أكتب رسالةً قصيرةً إلى صديقٍ ساهرٍ ينتظرني؟»

«يُؤسفني أن أُبلغ سموَّك أن التواصُل بجميع أنواعه غير مصرَّحٍ به.»

ترجَّل الأميرُ من العربة، وسار مع مُرشدِه في خطٍّ مائلٍ عبْرَ فِناءٍ خافت الإضاءة للغاية، ودخلَ ذلك الجُزءَ من المبنى المستطيل الشكل الواقع في مواجهة نهر نيفا، ومرَّ بمحاذاة قاعةٍ بداخلها مِنْفَثَةُ غازٍ مُشتعلة، ثم سارَ خارجًا مرةً أخرى، وخطا مباشرةً على مِعْبَرٍ خشبيٍّ نقله إلى متن سفينةٍ بخارية. كان على الطابَق السُّفلي من السفينة ممرٌّ ممتدٌّ إلى وسطها، وعبْرَ ذاك الممرِّ اصطحبَ المرشدُ سجينَه، وفتحَ بابَ حجرةٍ خاصةٍ تتوهجُ بداخلها أضواءُ الشموع، ويشغل جزءًا منها سريرٌ مُريحٌ رُتِّبَ وأُعِدَّ من أجل الإقامة.

«أعتقد يا سمو الأمير أنك ستجد هنا كلَّ ما تحتاج إليه. إذا احتجتَ إلى أي شيءٍ آخر، فإن ضغطةً على الجرس الكهربائي سوف تستدعي لك أحد الخدم، وسوف يُحضِر لك ما تريد.»

«ألن أقابل ذلك الشخص المسئول عن اعتقالي؟»

«لا أعلم شيئًا عن هذا يا سمو الأمير. إن مهمَّتي تنتهي بإحضارك إلى هنا. لا بد لي أن أسألك إن كان بحوزتك أي سلاحٍ آخر؟»

«لا، ليس معي أي سلاح.»

«هل ستُعاهدني على ألَّا تُحاول الهرب؟»

«سوف أهرب إذا استطعتُ بالتأكيد.»

«شكرًا لسموك.» هكذا أجاب الضابطُ في تهذيبٍ شديدٍ وكأن ليرمونتوف قد عاهده على ألا يهرب. استدعى الضابطُ وهو واقفٌ في الظلام جنديًّا طويل القامة خشنَ الملامح يحمل في يده بندقيةً من طراز مَسْكِيت في طرفها حَربة. وقفَ الجنديُّ بجوار باب الحجرة.

سأل الأميرُ: «هل ثمة أيُّ شيءٍ آخر؟»

«لا يوجد شيءٌ آخر يا سمو الأمير، لا شيءَ سوى تُصبِح على خير.»

«يا للهول! بالمناسبة، لقد نسيتُ أن أدفعَ للحوذي. ليس ذنبه بالطبع أنه أحضرني إلى هنا.»

«يُسعدني أن أُرسله إليك، ومرةً أخرى، تُصبح على خير.»

قال الأمير: «تُصبح على خير.»

أغلقَ الأمير بابَ حجرته، وأخرجَ مذكِّرته، وكتبَ رسالتَين سريعًا؛ واحدةً لدروموند والأخرى للقيصر. عندما جاء الحوذي أدخله إلى الحجرة وأغلقَ الباب.

قال الأمير بصوتٍ عالٍ يستطيع الحارس أن يسمعه لو أراد: «تفضَّل، بكم أنا مَدينٌ لك؟»

أخبره الحوذي بأجرته.

صاحَ الأمير بصوتٍ عالٍ: «هذا كثيرٌ جدًّا، أيها النذل»، لكنه في أثناء صياحه بهذا وضع ثلاث قطعٍ ذهبيةٍ مع الرسالتَين في يدِ السائقِ، وهمسَ قائلًا:

«أوصِل هاتَين بأمان، وسوف أعطيكَ عشرة أضعاف المال الذي معك إذا مررتَ على منزل الأمير ليرمونتوف في العنوان المكتوب على هذه الرسالة.»

حيَّاه الرجلُ وشكره وانصرف؛ وبعد قليلٍ سمعَ جلجلةَ جرسٍ، تلاها ارتجاجٌ مُتواصلٌ لمُحرِّكٍ ما. لم يكن ثمة نافذةٌ في الحجرة الخاصة، ولم يستطِع أن يُميِّز إن كانت السفينة

البخارية تبحر باتجاه شمال النهر أم جنوبه. خمَّن الأميرُ أنها تبحر باتجاه الشمال، وتوهَّم أن تكون وجهته هي سليسلبيرج؛ السجن المحصَّن الواقع على جزيرةٍ عند منبع نهر نيفا. قرَّر الأمير أن يتوجَّه إلى سطح السفينة ويحلَّ مشكلة الوجهة هذه، لكن الجندي الواقف عند الباب أنزلَ بندقيته وسدَّ الممر.

«لا شك أنه مسموحٌ لي بالسير على سطح السفينة، أليس كذلك؟»

«لا يُمكنك المرور دون أمرٍ من القبطان.»

«حسنٌ، أرسِل لي القبطان إذن.»

قال الجندي: «لا أجرؤ على ترك الباب.»

ضغطَ ليرمونتوف على الجرس، وجاءَ أحد الخدم في الحال ليعرف ما المطلوب.

«من فضلك اطلب من القبطان أن يأتيَ إلى هنا.»

انصرفَ الخادم، وبعد قليلٍ عاد مع رجلٍ مُلتحٍ له بشرةٌ برونزية اللون بدت الغرفةُ في حضوره صغيرة.

«لقد أرسلتَ في طلب القبطان، وها أنا ذا هنا.»

قال الأميرُ بمرح: «وأنا أيضًا هنا. اسمي ليرمونتوف. لعلك سمعتَ عني، أليس كذلك؟»

هزَّ القبطانُ رأسَه الأهلَب.

«أنا أحدُ أمراء روسيا، ونتيجةً لخطأٍ ما وجدتُ نفسي راكبًا في سفينتك بدلًا من قضاء الليلة في منزلي. إلى أين تأخذني أيها القبطان؟»

«أنا ممنوعٌ من إجابة أسئلتك.»

«وهل أنا مَمنوعٌ أيضًا من الذهاب إلى سطح السفينة؟»

«لقد قال الجنرال إنه غير مسموحٍ لكَ بمُغادَرة الحجرة؛ لأنكَ رفضتَ التعهُّد بعدم الهرب.»

«كيف لي أن أهرب من باخرةٍ تمخَر النهر أيها القبطان؟»

«من السهل أن تقفز إلى النهر، وربما تسبح إلى الشاطئ.»

«إنه جنرالٌ إذن، أليس كذلك؟ حسنٌ أيها القبطان، سوف أتعهَّد لك بألَّا أحاول السباحة في نهر نيفا في ليلةٍ قارسة البرودةِ كهذه.»

قال القبطان: «لا يُمكنني أن أسمح لك بالوجود على سطح السفينة الآن، لكن عندما نصل إلى خليج فنلندا تستطيع أن تسير على سطح السفينة برُفقة الحارس.»

صاحَ ليرمونتوف: «خليج فنلندا! أنت تُبحر باتجاه جنوب النهر إذن، أليس كذلك؟»

نظرَ إليه القبطان الضخمُ باستياءٍ شديدٍ مُغيِّمٍ على وجهه، حيث أحسَّ أنه استُدرِجَ للإفصاح عن معلوماتٍ كان ينبغي له أن يحتفظ بها لنفسه.

«لست ذاهبًا باتجاه الشمال إلى سليسلبيرج إذن، أليس كذلك؟»

«لقد أخبرتُ سموك أنني غير مسموحٍ لي بالإجابة عن أسئلتك. لكنَّ الجنرال أعطاني رسالةً أُوصلها إليك، وربما تحتوي على كلِّ ما تريد أن تعرفه.»

«الجنرال أعطاك رسالة، فعلًا؟ إذن لماذا لا تُعطيها لي؟»

«لقد أمرني ألَّا أُزعجك الليلة، وأن أقدِّمها لك مع الإفطار في الغد.»

«يا إلهي، هل سنظل نبحر طوال الليل؟»

«نعم يا سمو الأمير.»

«هل منعك الجنرال من إعطائي الرسالة الليلة؟»

«لا يا سمو الأمير؛ لقد قال فقط: «لا تُزعج سموه الليلة، لكن أعطِه هذه في الصباح».»

«في هذه الحالة أعطني الرسالة الآن.»

أخرجَ القبطانُ مظروفًا من جيبه وقدَّمه للأمير. لم يكن فيه سوى الرسالتَين القصيرتَين اللتين كتبهما ليرمونتوف لدروموند والقيصر.

الفصل الرابع عشر

رحلةٌ إلى المجهول

بعدما انصرفَ القبطان، أوصدَ ليرمونتوف البابَ وأحكمَ إغلاقه بالمزلاج، ثم جلسَ على حافة سريره يتأمَّل الوضع. سمعَ الأميرُ أجراسًا بعيدةً ترن على الشاطئ في مكانٍ ما، وعندما نظر إلى ساعته وجدَ أنها لم تتجاوز الحادية عشرة. لقد بدا أمرًا لا يُصدَّق كيف أنه منذ ساعةٍ إلا ربعًا غادر منزل صديقه الذي أحسنَ وِفادته، وهو الآن يشقُّ طريقَه في اضطرابٍ واهتياجٍ على متن باخرةٍ مجهولةٍ تتَّجه به إلى وجهةٍ مجهولة. بدا من المحال أن يَحدث الكثير في خمسٍ وأربعين دقيقة. تساءل الأميرُ في نفسه عما كان يفعله دروموند الآن، وعما سيفعله حين يعرف أنَّ صديقه مفقود.

غير أنَّ التفكير في الأمر لمْ يُثمر حلًّا للغز؛ لذا، ولأنه شابٌّ عمليٌّ، طرحَ الموضوع من ذهنه، وأخذَ معطفه الثقيل، الذي كان قد ألقاه على السرير، وعلَّقه على المِشجَب المُثبَّت في الباب. حين فعل ذلك لَمَسَت يدُه أنبوبًا في أحد جيوب المعطف، وللحظةٍ توهَّمَ أنه مسدسه، لكنه اكتشفَ أنها المحقنة المعدنية التي اشتراها تلك الليلة من الكيميائي. جعلَ هذا أفكارَه تَنعطِف فجأةً إلى اتجاهٍ آخر. أخرجَ الأميرُ من أحد الجيوب الداخلية زجاجةً من زجاجتَي الأوزاك، وراحَ يفحصها تحت ضوء الشمعة، وتمنَّى لو يكون معه قطعة من الحجر ليُجري بها تجاربه. بعد ذلك أعاد الأدوات إلى جيب معطفِه وهو يتثاءب، وخلعَ حذاءه العالي الساق، وألقى بنفسه على السرير، وشعرَ بالامتنان لأنه لم يكن سريرًا عاديًّا مُبيَّتًا في جدار السفينة، وإنما مِهادٌ واسعٌ مُريح. في تلك اللحظة تبدَّت كاثرين لعينَيه المُغلقتَين، وراحا، يطوفان معًا في أرض الأحلام يدًا في يد.

عندما استيقظَ كان الظلامُ دامسًا في الغرفة. كانت الشموع، التي غفل عن إطفائها، قد احترقت عن آخرها. تبيَّن له من الحركة القصيرة المتشنجة للباخرة أنه إنما كان على متن مَركبٍ صغير، وأن هذا المركب الصغير كان في عُرض البحر. لقد اعتقد أنه استيقظ

على صوتٍ ضجيج، وتأكَّد له هذا عندما سمعَ طرقًا على باب حجرته جعله يقفز من مكانه ويفتح مزلاج الباب. كان الخادم واقفًا هناك، لكنه لم يرَ الحارس بسبب الضوء الخافت في الممر. علم الأمير أنهم كانوا في وقت الفجر.

«يود القبطانُ، يا سمو الأمير، أن يعلم إن كنتَ ستُفطر معه أم ستتناول وجبتك في الغرفة؟»

«أبلِغْ تحيَّاتي للقبطان، وقُل له إنه يُسعدني كثيرًا أن أتناول الإفطار معه.»

«سيكون جاهزًا في غضون ربع ساعة يا سمو الأمير.»

«جيد جدًّا. فلتأتِني في ذلك الحين؛ لأنني لا أعرفُ طريقي في السفينة.»

اغتسل الأمير، وسوَّى ملابسه المتغضنة بقدرِ ما استطاع، وارتدى حذاءه العالي الساق. بينما هو منهمكٌ في ذلك العمل الأخير انفتح الباب، ودخلَ القبطان الضخمُ بنفسه، وكان مرتديًا بذلةً لامعة من المشمع.

حيَّاه القبطانُ بالفنلندية: «هِيفا بايْفا (عِمْ صباحًا) يا سمو الأمير. هل ستتمشى على سطح السفينة قبل تناول الإفطار؟»

أجاب الأمير: «طابَ يومك، ومن خلال تحيتك أرى أنك فنلنديٌّ.»

ردَّ القبطان: «أنا من أبناء مدينة أُوبو الأصليين، وكما تقول سموك، فنلنديٌّ، لكنَّني مُختلفٌ عن كثيرٍ من أبناء بلدي؛ لأنني مواطنٌ روسيٌّ صالحٌ أيضًا.»

«في الواقع، لا يوجد الكثير من المواطنين الروسيِّين الصالحين، وها هو ذا أحدهم يتمنَّى لو أنه سمع أنك مواطنٌ فنلنديٌّ صالح فحسب.»

أجابَ القبطان، بنبرةٍ تقترب من الفظاظة: «إنني أقول إنني مواطنٌ رُوسي صالح لكي أتفادى أي خطأ.»

«أصبتَ أيها القبطان، وحيث إنني مواطنٌ رُوسيٌّ صالح أنا أيضًا، ربما يستطيع المواطن الروسي الصالح رقمُ واحد أن يُخبرني إلى أي مكانٍ في العالم يأخذ المواطنَ الروسي الصالح رقمَ اثنين، وهو رجلٌ لم يرتكب أيَّ جريمةٍ، ولا يرغب، في هذه اللحظة، أن يذهب في رحلةٍ رغم إرادته.»

«ربما نكون نحن الاثنين صالحَين، لكن اليومَ ليس كذلك، يا سمو الأمير. لقد ظلَّت تُمطر في الليل، ولا تزال تُمطر رذاذًا. أنصحك بارتداء معطفك.»

«أشكرك أيها القبطان، سوف أفعل.»

تناول القبطانُ المعطفَ من على مشجبه بطريقةٍ ودودةٍ للغاية، ونفضه، وأمسكه ليُطوِّق به صاحبه. أدخل ليرمونتوف ذراعه اليمنى ثم اليسرى داخل الأكمام، وعدَّل المعطف على كتفَيه، وأغلقَ أزراره كلها حتى رقبته.

وقال: «أشكرك مرةً أخرى أيها القبطان. تفضَّل وسوف أتبعك.»

خرجَ الاثنان إلى سطح السفينة حيث الصباح غائمٌ كئيب. لم يكن في مَرمى البصر أيُّ أرضٍ أو أيُّ سفينةٍ من أي نوع. وشكَّل الأُفُقُ حولَ السفينة دائرةً قريبةً صغيرة. كانت السُّحُبُ دانيةً، تجري أمامَ الرياح، وتصبُّ بين الحين والآخر زخاتٍ قليلةً من المطر الذي بدا أنه يضغط جدران الأفق على السفينة أكثر فأكثر. لم تكن حركةُ البحر شديدةً إلى الدرجة التي يجوز معها وصفه بالهائج، بل متلاطم الأمواج ومضطرب فحسب، وكانت أمواجه قصيرة فما كانت لتُشكِّل مصدر إزعاجٍ لسفينةٍ أكبر من سفينتهم. اتَّضح أن السفينة البخارية لم تكن إلَّا زورقًا صغيرًا قبيحَ المنظر رديءَ المُستوى، أشبه بسفينةِ شحنٍ غير نظاميةٍ منه بسفينة حكومية. كان ثمَّة ضابطٌ بحريٌّ، من الواضح أنه وكيل القبطان، يقف فوق منصَّة قبطان السفينة، ويُمسك حاجز المنصة بيديه القويتَين، ويُحدِّق إلى الأمام في الرذاذ الأبيض الرقيق الذي كادَت كثافته تَقترب من كثافة الضباب. لم يُتِح سطحُ التنزه على متن السفينة مجالًا كبيرًا للمشي، لكنَّ القبطانَ والسجين راحا يتمشَّيان جَيئةً وذهابًا في المساحة الضيقة، ويتحدَّثان بلطفٍ وكأنهما صديقان مقرَّبان. رغم هذا كان ثمة نوعٌ ما من التحفُّظ الحَذِر في كلام القبطان؛ نوعٌ ما من المكر الحَذِر الذي يتسم به الرجلُ المتردد عندما يكون في حضرةِ مَن هو أكثر منه ذكاءً. تذكَّر القبطانُ الصريحُ أنه أُخِذَ على حين غِرةٍ في الليلة الماضية، عندما أفشى سِرَّه دون قصدٍ وتفوَّه بالكلام عن الخليج الفنلندي، وذلك بعدما رفضَ أن يُخبر الأميرَ طواعيةً عن وجهةِ الباخرة. لاحظ ليرمونتوف هذا الإحجامَ عن الخوضِ في لُجَّةِ الحديث الحر؛ ولذا بدلًا من أن يُطمئن القبطانَ بأنه سيتوقَّف عن توجيه المزيد من الأسئلة إليه، اكتفى بأن أخذَ على عاتقه عِبءَ الاسترسال في الكلام، وراحَ يُحدِّث القبطانَ عن بعض عجائب لندن ونيويورك.

تقدَّمَ الخادمُ بخُطًى وقورةٍ نحو القبطان، وأعلن أنَّ الفطور جاهز، وبذلك تبِعه الرجلان إلى رَدهةٍ لا يزيد حجمُها كثيرًا عن حجم الغرفة الخاصة التي قضى فيها ليرمونتوف ليلته الفائتة، لكنها لا تتمتَّع بالأثاث الوثير الموجود في غرفته. كان على المائدة فطورٌ وافر، يتكون بصورةٍ أساسيةٍ من السمك والبطاطس المطهوة بالبخار، والخبز الأسود والشاي الشديد التركيز. راحَ القبطانُ يشرب فنجانًا تلو فنجانٍ من هذا المشروب

المغلي، ويبدو أنه كان يزدادُ رقةً بجرع المزيد منه وكأنما كان نبيذًا. وبالفعل نسي القبطان بمرور الوقت أنَّ جليسه كان سجينًا؛ إذ قال ببراءةٍ شديدةٍ للخادم الواقف لتلبية طلباتهما:

«هل أكل المساكينُ الموجودون بالأسفل أيَّ شيء؟»

أجاب الخادم: «لم تصدر أوامرك بهذا يا سيدي.»

«يا إلهي، حسنٌ، أعطِهم شيئًا؛ شيئًا ساخنًا. ربما تكون وجبتهم الأخيرة»، ثم وهو يلتفت وجد الأميرَ يُحدِّق فيه، فطلبَ بفظاظةٍ فنجانًا آخر من الشاي، وأوضحَ:

«ثلاثة من أعضاء طاقم السفينة شربوا الكثير من الفودكا في سانت بطرسبرج ليلة أمس.»

أومأ الأميرُ برأسه دونَ اكتراثٍ وكأنه صدَّقَ، وقدَّم علبة سجائره المفتوحةَ للقبطان، لكن القبطان هزَّ رأسه رافضًا.

وقال بصوتٍ أجش: «أنا أُدخِّن الغليون.»

نهضَ القبطان من مكانه مُمسكًا غليونه المشتعل، وسارا معًا على سطح السفينة من جديد. لم يَعُد الأميرُ يرى الحارسَ الطويلَ القامة الذي كان يحرسه في الليلة الماضية؛ لذا ومن دون استئذانٍ تأكَّدَ أن حركته صارَت غيرَ مقيَّدة، بعدما أصبحوا الآن في عُرض البحر؛ فراحَ يذرع سطح السفينة جَيئةً وذهابًا يدخِّن السجائر. عندما دقَّ أحدُ الأجراسِ صعدَ القبطانُ إلى منصة القبطان على متن السفينة ونزل وكيلُ القبطان.

فجأةً لاحَت من بين الضباب الممتد أمامَهم سفينةُ شحنٍ بريطانيةٌ سوداءُ كبيرةٌ تشق طريقَها نحو سانت بطرسبرج، كما توقَّع الأمير. كانت الباخرتان، الكبيرةُ والصغيرة، قريبتَين جدًّا إحداهما من الأخرى، حتى إنَّ الاثنتَين اضطرَّتا للانحراف عن مساريهما قليلًا؛ عندئذٍ اتجه القبطان إلى منصة القبطان وبدا للحظةٍ غيرَ واثقٍ ممَّا عليه أن يفعله مع السجين. كان عددٌ من الرجال مستندين على جانب السفينة البريطانية الممتد فوق سطحها العلوي، وكان من الممكن جدًّا لأي شخصٍ يقف على إحدى السفينتَين أن يُعطي رسالةً للواقفين على الأخرى. أدركَ الأميرُ ورطةَ القبطان، فنظرَ إليه وابتسم، لكنه لم يُحاول أن يستفيد من مأزقه. صاحَ شخصٌ ما على متن السفينة البريطانية ولوَّح بمنديلٍ في يده، عندئذٍ لوَّح الأميرُ بسيجارِه في الهواء، واختفت السفينة الضخمةُ في ضباب الشرق.

أخذَ ليرمونتوف يتجوَّل على سطح السفينة ويُفكِّر بجديةٍ شديدةٍ في وضعه، متسائلًا في نفسه عن الوجهة التي ينوون أخذه إليها. إنْ كان سيُوضَع في السجن، فلا بد أن يكون هذا في أحد أماكن الاحتجاز الواقعة على ساحل فنلندا، وقد بدا هذا غريبًا؛ لأنه كان

يعلم أنَّ الحصون هناك مليئةٌ بالفعل بسكان هذه البلاد المتمردة المستائين. كان انطباعه الأول أنهم سيأخذونه إلى المَنفى، وكان يتوقَّع أن يُنزلوه في أحد موانئ السويد أو ألمانيا، لكنَّ عِبارةً عارضة صدرَت من القبطان في أثناء تناولهما وجبة الإفطار أشارت إلى وجود سجناء آخرين على متن السفينة لا يَحظون بالمعاملة المُرضية التي يحظى هو بها. لكن لماذا يُؤخَذ إلى خارج روسيا تمامًا، أو حتى يُبعَدُ عن سانت بطرسبرج التي يعلم عِلمَ اليقين أنها لم تكن تعاني قلَّةَ عدد السجون؟! خلقَت فيه مواصلةُ الباخرةِ رحلَتَها في عُرض البحر من جديدٍ الأملَ في أن تكون ستوكهولم هي الهدف المنشود. لو أنهم أنزلوه بها فإن هذا لن يعني سوى قليلٍ من الإزعاج المؤقت، وراحَ يأمل أنه بمجرد أن يصل إلى الشاطئ سيكتبُ برقيةً ظاهرةَ البراءة للغاية بحيث تتغلَّب على المصاعب وتصل إلى صديقه، وتُطلع دروموند على مكان إقامته على الأقل. أثار التفكيرُ في دروموند كلَّ مخاوفه القديمة من أن يكون الإنجليزي هو الضحية المقصودة في الحقيقة، وأن تكون هذه الرحلة البحرية القسريةُ مجرَّدَ وسيلةٍ ملائمةٍ لإزاحته من الطريق.

بعد الغداء بدأ رذاذٌ ضعيفٌ يتساقط لكنه ما لبِثَ أن أصبح وابِلًا متواصلَ الانهمار، مما دفعَ ليرمونتوف إلى دخول غرفته، ولمَّا لم يكن في تلك الغرفة نافذةٌ ولا مصباحٌ كهربائي، أشعل الأميرُ عود ثقابٍ وأضاءَ به واحدةً من الشموع الموضوعة حديثًا على حوض غسل الوجه. دفع الأميرُ الزِّر الإلكتروني مُستدعيًا الخادم، وبعدما أعطاه بعضَ المال سأله إن كان يوجد على متن السفينة شيءٌ كالحَجَر أو ما شابه، يكونون قد حملوه معهم لحفظ توازن السفينة، أو لأي غرضٍ آخر. قال الخادم إنه سيبحث، وأخيرًا عادَ ومعه حَجَر يُستخدَم لصقلِ السكاكين في مطبخ السفينة. بعدما أغلقَ ليرمونتوف بابَ غرفته بالمزلاج بدأ يُجري تجربةً عِلمية، ونسيَ على الفور أنه سجين. ملأَ الأميرُ حوض غسل الوجه بالماء، وبعدما فتحَ إحدى الزجاجتَين ذواتي السِّدادات الزجاجية، أخرجَ برأس سكينه جزءًا ضئيلًا جدًّا من المادة الموجودة بداخل الزجاجة، وأذابها في الماء دون تأثيرٍ واضح. بعدما أوقفَ حَجَرَ الشَّحْذِ على أحد طرفيه، ملأَ المحقنة الزجاجية، ووجَّه رذاذًا متطايرًا خفيفًا إلى الحَجَر. ذابَ الحجرُ أمام عينَيه مثلما تذوبُ قلعةٌ رمليةٌ على الشاطئ عندما تمسها أمواجُ المَد.

صاحَ الأميرُ قائلًا: «بَركتك أيها القديس بيتر الروسي! فعلتُها أخيرًا! لا بد أن أكتب لكاثرين عن هذا.»

بعدما استدعى ليرمونتوف الخادمَ مرةً أخرى ليزيل هذا السائلَ، ويُحضرَ له مِلء دلوٍ من الماء النقي، حاولَ أن يستخرج بعضَ المعلومات من ذلك الشاب المهذَّب.

«هل زرتَ مدينة ستوكهولم من قبل؟»

«لا يا سمو الأمير.»

«ولا أيًّا من موانئ ألمانيا؟»

«لا يا سمو الأمير.»

«هل تعلم إلى أين نتجه الآن؟»

«لا يا سمو الأمير.»

«ولا متى سنصل إلى وِجهتنا؟»

«لا يا سمو الأمير.»

«لديكم بعضُ المساجين على متن السفينة، أليس كذلك؟»

«ثلاثة بحارةٍ سكِّيرين يا سمو الأمير.»

«نعم، هذا ما قاله القبطان. لكن لو حُكِمَ بالموت على كل بحَّارٍ سكران فستتوقَّف تجارةُ العالم سريعًا.»

«هذه باخرةٌ حكوميةٌ يا سمو الأمير، وإذا عصى أحدُ البحَّارةِ الأوامر هنا، فإنه يُعَدُّ مُتمردًا. أما على متن السفن التجارية فلا يَزيد الأمرُ على وضعه في السجن.»

«فَهِمت. والآن هل تريد أن تجني بعضَ القطع الذهبية؟»

«لقد كنتَ في غاية السخاء معي بالفعل يا سمو الأمير.» هكذا كان الرد غير الواضح الذي أجابَ به الخادم، الذي لمعَت عيناه برغم هذا عندما ذُكِرَ الذهب.

«حسنٌ، ها هو ذا ما يكفي منه لِجعل جيبك يُجلجل، وها هما تان رسالتان عليك أن تحاول إيصالهما عندما تعود إلى سانت بطرسبرج.»

«نعم يا سمو الأمير.»

«هل ستبذل وسعك؟»

«نعم يا سمو الأمير.»

«حسنٌ، لو نجحتَ في هذه المهمة فسأَهبكَ ثروةً عندما يُطلق سراحي.»

«أشكرك يا سمو الأمير.»

في تلك الليلة عند تناول العَشاء فتحَ القبطانُ زجاجة فودكا، وتحدَّث بلُطفٍ في مواضيع كثيرة، دون أن يُشير إلى موضوع الحرية المُهم. كان يشرب باقتصادٍ من الفودكا،

وقد خابَ أملُ ليرمونتوف لَمَّا عجزَ مفعولُها تمامًا عن إطلاق لسان القبطان بالكلام، ومن ثمَّ فقد أوى الأمير إلى الفِراش لليلة الثانية على متن الباخرة وهو لا يدري شيئًا عن مصيره.

عندما استيقظَ في صباح اليوم التالي وجدَ أنَّ المحركات توقَّفَت، ولَمَّا كانت السفينةُ ساكنةً فقد استنتجَ أنها وصلَت إلى الميناء. سمعَ زمجرةً مُتقطِّعةً صادرةً من أحدِ مُحرِّكاتِ الجازولين الصغيرة، وصريرًا صادرًا من رافعةٍ لمْ تُزيَّت جيدًا، وخمَّنَ أنَّ السفينة كانت تُفرغ حمولتها على الشاطئ.

قال الأمير في نفسه: «والآن، لو وجدتُ حارسي السابق واقفًا عند الباب فسيَقتادُونني إلى السجن. إذا لم يكن هناك، فسيُطلقُون سراحي.»

قفزَ الأميرُ من فِراشه، وجذَبَ المزلاج إلى الخلف، وفتَح الباب. لم يكن هناك أحد. بعد دقائقَ معدودةٍ كان على سطح السفينة، ووجَد أنها كانت راسيةً في حِمى صخرةٍ كبيرة، ذكَّرته هذه الصخرة بجبل القديس ميشيل في نورماندي، باستثناء أنَّ ارتفاعها كان يزيد على ارتفاعه بمرةٍ ونصف تقريبًا، وكانت أطول منه ثلاث مرات، ولم يكن فوقَها أيُّ مبانٍ من أي نوع، وكذلك لم يكن بها بالطبع، أدنى أثرٍ لسُكنى أحدٍ من الناس.

كان الصباحُ جميلًا؛ أشرقت الشمسُ لتوها، وراحت تَغمر الصخرة المتجهِّمةَ بضوءٍ وردي. باستثناء هذه الصخرة لم يكن ثمة أثرٌ لأيِّ بقعةٍ من اليابسة على امتداد البصر. كان إلى جوارِ الباخرةِ قاربٌ شراعيٌّ له صاريان، لكنه كان مزوَّدًا أيضًا بالأوتاد والمجاديف، لاستخدامها في التجديف. كانت الأشرعةُ ملفوفةً، ومن الواضح أنه أُحضِرَ إلى جوار الباخرة بواسطة المَجاديف. كانت الرافعةُ تدلي داخل هذا القارب صناديقَ وحقائبَ وما إلى ذلك، مما كان يُخزِّنه ثلاثةُ أو أربعةُ رجال. كان وكيلُ القبطان يُشرف على نقل هذه الحمولة، وكان القبطان واقفًا يستند بظهره إلى غرفة الركَّاب، يُسلِّمُ أوراقًا مُعيَّنةً واحدةً تلو الأخرى لشابٍّ راحَ يُوقِّع داخل دفترٍ كلما تسلَّم وثيقةً منها، وقد استنتجَ ليرمونتوف أنها وثائق الشحن. عندما اكتملت هذه الصفقةُ حيَّا الشابُّ القبطانَ، ونزلَ من على جانبِ السفينة إلى القارب الشراعي.

قال ليرمونتوف: «صباح الخير أيها القبطان. لقد رسَت السفينة كما أرى.»

«لا، لمْ ترسُ بعد. نحن فقط نَنتظِر انقطاع الرياح. البحرُ عميقٌ للغاية، وليسَ فيه مرفأٌ في هذه البقعة.»

«إلى أين تذهب كلُّ هذه البضائع؟»

أومأَ القبطانُ برأسه إلى الصخرة، وحدَّقَ إليها ليرمونتوف مرةً أخرى، مصوِّبًا عينيه من قمَّتها إلى قاعدتها ولم يرَ أيَّ أثرٍ من آثار التمدن.

«إذن سوف ترسو أنت مؤقتًا في حِمى هذه الصخرة، وسيأخذ القاربُ الصغيرُ المؤنَ إلى الشاطئ، أليس كذلك؟»

قال القبطان: «بالضبط.»

«أظن أنَّ المكان المأهول بالناس في الجانب الآخر. أيُّ شيءٍ هو؛ منارة؟»

قال القبطان: «لا توجد منارة.»

«نوعٌ من خفر السواحل إذن؟»

«نعم، تقريبًا. إنهم يحرسون شيئًا ما. والآن يا سمو الأمير، أرى أنَّ معطفك على ظهرك. هل تركتَ أيَّ شيءٍ في غرفتك؟»

ضحكَ الأميرُ، وقال:

«لا أيها القبطان، لقد نسيتُ أن أُحضِر حقيبة سفرٍ كبيرةً معي.»

«إذن لا بد لي من توديعك هنا.»

«ماذا، هل ستُلقي بي إلى هذه الحصاة العائمة في المحيط؟»

«سوف يَعتنون بك جيدًا يا سمو الأمير.»

«ما هذا المكان؟»

«إنها تُدعى تروجزموندوف يا سمو الأمير، وهذا الماء من حولك هو بحر البلطيق.»

«هل هي منطقةٌ روسية؟»

أجابَ القبطان وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «روسيةٌ جدًّا جدًّا. تفضَّل من هذا الاتجاه، إذا سمحت سموك. ثمَّة سلمٌ مصنوعٌ من الحبل، وهو لا يثبتُ تحت أقدام ساكني اليابسة أحيانًا؛ ولذا خُذ حذرك.»

«يا إلهي، أنا معتادٌ على السلالم المصنوعة من الحبال. هِيفاسْتي (مع السلامة) أيها القبطان.»

«هِيفاستي يا سمو الأمير.»

وبعد هذا الوداع الفنلندي المتبادَل نزل الأميرُ على السلَّم المتأرجح.

الفصل الخامس عشر

منزلٌ في البحر المتدفِّق

في هذه المرة فقط اختفى تعبيرُ المزاح من وجه القبطان كِمْت، وجلس هذا الرجل اللطيفُ في قاعة الاستقبال الأنيقة في الشقةِ مِثالًا حيًّا للحيرة. كانت دورثي قد قصَّت عليه قصة العَدَمي، وقالت إنها تنوي شراء اليخت، وعرضت عليه بإيجازٍ ما تنوي أن تَفعله به عندما يُصبح مِلكها. والآن جلسَت صامتةً أمام القبطان اللطيف، بينما وقفت كاثرين إلى جوار النافذة، وأسهَبَت في الكلام كثيرًا، كانت أحيانًا تصيرُ ساخِطةً، وبين الفينة والفينة تُعبِّر عن رأيٍ لها في والدها بلغةٍ لا تخلو من الخشونة، كما هو الامتياز المُباركُ الذي تتمتَّع به كلُّ فتاةٍ تُولَد في أرض الأحرار، بينما تقبَّل الوالدُ اللومَ بلُطفه ورحابة صدره المعهودين.

«فتاتَيَّ العزيزتين، يجب عليكما حقًّا أن تُصغيا إلى صوت العقل. إنَّ ما تنويان فعله مُنافٍ للعقل تمامًا حتى إنه لا يقبل المناقشة. يا إلهي، إنها حملة قرصنة، هذه هي حقيقتُها. إنكما أيتها الفتاتان في مثل جنون ووكر حاكمِ نيكاراجوا. هل تتخيَّلان أنَّ قبطانًا متقاعِدًا من البحرية الأمريكية سوف يتولى قيادة سفينة قرصنةٍ وضعُها القانونيُّ أسوأ كثيرًا من وضع السفينة «آلاباما»؛ لأننا كنا حينها في حرب، لكننا الآن في فترةِ سِلم. هل حقًّا تقترحان عليَّ أن أهاجم منطقةً خاضعةً لسلطان دولةٍ صديقة! يا إلهي!» هكذا صاحَ القبطان، واندفعَ منه نفَسٌ قويٌّ مفاجِئ؛ إذ كانت ذخيرته اللُّغوية قد نفدَت عن آخِرها في تلك اللحظة.

قالت كاثرين في إصرار: «لا أحدَ سيعرف أيَّ شيءٍ عن الأمر.»

«لا أحدَ سيَعرف؟ في وجود طاقم من الرجال يذهبون من هنا من نيويورك، ويعودون إلى نيويورك؟ لا أحدَ سيعرف؟ يا إلهي، سوف تَمتلئ الجرائد بالخبر قبل أن يُمضي رجالُكِ ساعةً واحدةً على الشاطئ. ثم إنكم لن تعثروا على الصخرة أبدًا من الأساس.»

سألته ابنته قائلةً: «ما الضرر إذن في محاولة البحث عنها؟ علاوةً على ذلك، فإن جونسون يعرف مكانها تمامًا.»

«جونسون، جونسون! إنكِ بالتأكيد لستِ من السخافة بمكانٍ بحيث تَنطلي عليكِ قصة جونسون الزائفة تلك، أليس كذلك؟»

«أنا أُصدِّق كلَّ حرفٍ تفوَّه به. لقد ظهرَ من تعابيرِ وجه الرجل أنه كان يقول الحقيقة.»

«لكنك يا عزيزتي كيت لم تريه على الإطلاق، كما أفهم من القصة. لقد كان بمُفرده هنا معكِ يا دورثي، أليس كذلك؟»

ابتسمت دورثي في حزنٍ، وقالت:

«لقد أخبرتُ كيت بكل شيءٍ عن المُقابلة، وحدَّثتُها عن انطباعي الشخصي عن مظهر الرجل.»

«أنتِ أعقلُ بكثيرٍ من أن تثقي فيما قاله بأي صورةٍ من الصور بالتأكيد، أليس كذلك؟»

أجابت دورثي: «لكنني صَدَّقتُه رغم ذلك.»

«يا إلهي! انتبِها إليَّ. إن خطأً في شيءٍ واحدٍ يعني الخطأ في كلِّ شيء. سوف أتحدَّث فقط عن نقطةٍ واحدة. إنه يتحدَّث عن ينبوعٍ يَنهمِر منه الماءُ ويسير عبر الزنازين هناك في الصخرة. غير أنَّ هذا مستحيل. لأنه أينما يوجد ينبوعٌ فإنه يأتي من منبعٍ أعلى منه.»

قاطعته كاثرين: «يوجد الكثير من الينابيع في أعالي الجبال. أعرفُ واحدًا في جبل واشنطن الذي هو أعلى عشرَ مراتٍ من صخرةِ بحر البلطيق.»

«فعلًا يا كاثرين، فعلًا، لكن رغم هذا فإن هناك بحيرة جوفية أو فوق الأرض، وهي التي تزوِّد ينبوع الجبل الأبيض الذي تتحدَّثين عنه بالماء، ولا بد أن توجد هذه البحيرة في مكانٍ أعلى من مكان الينبوع. يا إلهي، أيتها الفتاة، يجب عليكِ أن تدرسي عِلم الأرصاد الجوية المائية كما تدرسين الكيمياء. إنَّ ما نتحدَّث عنه صخرةٌ ناتئةٌ في وسط المحيط ...»

ردَّت كيت بجِدَّة: «إنها في بحر البلطيق، قُرب الساحل الروسي. وأنا واثقةٌ تمامًا أنه يوجد جبالٌ في فنلندا بها تلك البحيرةُ التي تزوِّد الينبوع بالمياه.»

«كم تبعد هذه الصخرة عن الساحل الفنلندي إذن؟»

قالت كيت بسرعةٍ كسرعةِ سهمٍ منطلقٍ من قوس: «ميلان ونصف.»

قالت دورثي تُعدِّل الإجابة: «أيها القبطان، نحن لا نَعلم مدى بُعدها عن الساحل.»

«لن أصدِّق أن هذا الشيءَ موجودٌ بأيِّ حال.»

«يا إلهي، بلى إنها موجودةٌ يا أبي. كيف تقول هذا؟ ألا تعلم أن المُلازم دروموند أطلقَ قذيفةً عليها؟»

«كيف تَعرفين أنها الصخرة نفسها؟»

«لأنَّ الصخرة ردَّت بإطلاق النار عليه. لا يُمكن أن توجد اثنتان مثل هذه في بحر البلطيق.»

قال القبطان وصبرُه يكاد ينفد: «لا، ولا واحدة أيضًا.»

قالت دورثي بنبرةٍ مُهدئةٍ للغاية، وكأنما أرادت أن تُلطف ثورة الغضب التي توشك أن تندلع: «أيها القبطان كِمْت، أنتَ ترى أنَّ الزعم بوجود ينبوع مياه يُثبِت أنَّ جونسون إنما كان يختلق الأكاذيب. أنا أترقَّب وصوله إلى هنا في ظرف ساعةٍ من الآن، وسوف أتيح لك فرصةَ استجوابه على انفراد. أعتقد أنك بعدما تقابل الرجل وتسمع منه سوف تُصدِّقه. إنَّ ما يجعلني متأكدةً تمامًا من صدْق كلامه هو أنه تحدَّث عن السفينة الأجنبية التي أطلقَت القذائف على الصخرة، وهو أمرٌ أعلم أنا أنه حقيقي، ولم يكن من المُمكن له أن يعلم أيَّ شيءٍ عنه.»

«من المحتمَل جدًّا أن يكون عَلِمَ جميع التفاصيل من الجرائد يا دورثي. لقد كانت تغصُّ بالكلام عن الموضوع في ذلك الوقت، وعندما تذكَّر ذلك فكَّرَ في أن يُقوِّيَ قصتَه بـ...»

قاطعته كاثرين بحَنَق شديد:

«بإضافةِ شيءٍ يُحتمَل أن يكون صحيحًا إلى قصةٍ هي من نواحٍ أخرى مكشوفةٌ وغير مُقنِعة.»

«فِعلًا يا كيت؛ هذا ما كنتُ سأقوله أنا تمامًا. لكن لنعُد إلى الخُطة نفسها. لنُسلِّم بوجود الصخرة، ولنسلِّم بصحةِ ما رواه جونسون، ولنُسلِّم بكل شيءٍ، لنسلِّم حتى بأنَّ الشابين مسجونان هناك، وهو ما لا نملك أدنى دليلٍ عليه، فإنه ليس بإمكاننا أن نستوليَ على هذا المكان ونحن على متن يختٍ ضعيفٍ صُنِعَ للترفيه ...»

قالت كاثرين: «إنه مبنيٌّ على هيئة الطرَّادة.»

«حتى لو كان مبنيًّا على هيئةِ البارجةِ فلن تُتاح لنا أيُّ فرصةٍ للسيطرة عليه. يا إلهي، باستطاعة هذه الصخرة أن تَهزم أسطولًا نظاميًّا. سوف تكون مغامرتنا ببساطةٍ نسخةً بحريةً من «غارة جيمسون» وسوف تجعل الدنيا كلها تضحك علينا عندما يسمع الناسُ بها.»

«لقد قال جونسون إنَّ باستطاعته أن يستوليَ عليها بنصفِ دستةٍ من الرجال.»

قالت دورثي تُصحِّح المعلومة: «لا يا كيت، لقد قال عكسَ ذلك تمامًا؛ قال إن رجلين أو ثلاثة من ذوي العزيمة لو وقفوا على قمة الصخرة ومعهم بنادق آلية يستطيعون أن يَهزموا جيشًا. أنا التي اقترحتُ أن نقذف الصخرة، ثم نُسرع باتجاه المدخل في خضم ارتباك الجنود.»

رفعَ القبطان كِمْت يديه مُعبرًا عن يأسه.

«يا إله السماء، دورثي إمهيرست، التي طالَما رأيتُ أنها ألطف وأرق وأجمل فتاة؛ يا لدهشتي وأنا أسمعكِ وأنتِ تقترحين في هدوءٍ أن نُلقي قذيفةً على جمعٍ من الرجال الأبرياء الذين يُدافعون عن منطقتهم ضد هجومٍ غيرِ مرخَّصٍ به بالمرة! إنكِ تقولين نلقي قذيفةً وكأنكِ تتحدثين عن إلقاء قطعة نقد نحاسيةٍ لشحاذ! يا إلهي، إنني أشيخ. ماذا سيحل بهذا الجيل الصغير؟ حسنٌ، إنني أستسلم. دورثي، عزيزتي، مهما حدث من أمرٍ لأولئك الروس التعساء، فلن أتعافى أبدًا من صدمةِ قذيفتك. إنَّ الأمر مُستحيلٌ مائةً بالمائة. ألا تستطيعين رؤيةَ هذا حين تفكِّرين في التفاصيل؟ كيف ستحصلين على القذائف أو مدفع إلقاء القذائف؟ إنها لا تُباع في أول محلٍّ خردوات تجدينه في جادة «سِكث آفانيو».»

قالت كيت في حسم: «جونسون يقول إنَّ بإمكانه أن يحضرها.»

«يا إلهي، اللعنة على جونسون! دورثي، أستميحك المعذرة، لكن حقًّا، إن ابنتي هذه إضافة إلى جونسون الذي أتيتِ به هذا أكثر مِن طاقة تحمُّلي.»

سألَته ابنتُه: «إذن ماذا نفعل؟ نقعد هنا مَكتوفي الأيدي؟»

«سيكون هذا أفضل كثيرًا مما تقترحونه. يجب أن تفعلوا شيئًا حكيمًا. يجب ألَّا تورطوا دولتَين صديقتَين في الحرب. لا شك أنَّ الولايات المتحدة سوف تتنصَّل تمامًا من فِعْلتكم، وتجردني من الثقة لو كنتُ من الطيش بمكانٍ بحيث أوافق على الاشتراك في هذه المطاردة التي لا جدوى منها، لكنني لستُ كذلك؛ غير أنه من ناحيةٍ أخرى، لو أن اثنتَين من فتياتنا شرعتا في مثل هذه الحملة، فليس بإمكان أيِّ رجلٍ أن يتنبأ بالصخب العام الذي قد يحدث. يا إلهي، إنَّ الجرائد عندما تُمسك بقضيةٍ لا يستطيع المرءُ مطلقًا أن يعرف أين سينهونها. لا شك أيتها الفتاتان أنه سيتوجَّب حبسكما، ولا شك كذلك أن الشعب الأمريكي لن يسمح بهذا.»

قالت كاثرين بالعامية: «لن يسمحوا بهذا طبعًا.»

«حسنٌ إذن، إذا لم يسمحوا بسجنكما، فستنشب حرب.»

قالت دورثي، وقد عادت من جديدٍ للحديث بألطف نبرةٍ لديها؛ إذ كانت الأصوات قد بدأَت ترتفع مرةً أخرى: «لحظة من فضلك يا قبطان كِمْت. لقد تحدَّثتَ عن فعلِ شيءٍ حكيم. أنت تعرف الوضع. فبمَ تُشير علينا؟»

أخذَ القبطانُ نفسًا عميقًا، وأسندَ ظهره للخلف وهو جالسٌ في كرسيه.

قالت كاثرين: «تفضَّل يا أبي، الأمرُ متروكٌ لك. لنسمعَ اقتراحك، وبعدها ستعلم مدى سهولة انتقادِه.»

قال القبطان في تردُّد: «حسنٌ، سلكُنا الدبلوماسي موجود ...»

صاحت كاثرين في نبرة انتصار: «عديم الجدوى تمامًا؛ إنَّ أحد الرجلين روسي، والآخر إنجليزي. ليس الأمر أنَّ السلك الدبلوماسي لا يستطيع فعلَ شيءٍ فحسب، بل إنه حتى يُحاول.»

قال القبطان بقليل من الثقة: «لكن، مع أنَّ الرجلَين أجنبيان، فإن الفتاتَين أمريكيتان.»

قالت كيت: «إننا لا يُعتَد بنا؛ فليس لنا حق في الاقتراع. فضلًا عن هذا، دورثي جربَت السلك الدبلوماسي، ولم تَحصُل حتى على معلومةٍ دقيقةٍ منه. والآن يا أبي، الخطأ الثالث يُخرجك من اللعبة.»

«بل الخطأ في أربع كُراتٍ هو الذي يُخرج من اللعبة يا كيت، كما أني لمْ أُخطئ هدفي سوى مرتَين فقط. والآن أيتها الفتاتان، سأقول لكما ما سوف أفعله أنا. فلتأتيا أنتما الاثنتان معي إلى واشنطن. سوف نسعى لمقابلة الرئيس سرًّا. سوف يتَّصل هو بالقيصر سرًّا كذلك بعيدًا عن كل قنوات الاتصال المُعتادة. وسيبدأ القيصر في عملية إحضار هذين الشابين؛ مما سيكون أكثر فعاليةً وسرعةً من أيِّ حملةٍ مُهلِكةٍ على يخت.»

قالت دورثي: «أعتقد أن هذه خطة ممتازة.»

صاحَ القبطان بحماسة: «إنها مُمتازة بالتأكيد. ألا تريان مدى النفوذ الذي يتمتَّع به الرئيس؟ يا إلهي، لقد وضعوا رجلًا إنجليزيًّا في السجن، وعندما يُرسل الرئيسُ رسالةً بهذه المعلومة إلى القيصر فسيَخشى أن يرفض، لعلمه أن المناشدة التالية ستكون من أمريكا لإنجلترا، وعندما نُضيف فتاتَين أمريكيتين إلى هذا الخلاف السياسي، يا إلهي، أيُّ أملٍ سيبقى للقيصر؟»

قالت دورثي: «لديَّ بعضُ الملاحظات على هذا الموضوع الذي أثرتَه يا قبطان. لا يستطيع الرئيسُ إطلاقَ سراح السيد دروموند؛ لأن القيصر وحكومته كلها سيضطرون

لإنكار معرفتهم بأي شيءٍ عنه. فحتى الرئيس لا يستطيع أن يضمن بقاءَ الرجل الإنجليزي صامتًا إذا أُطلق سراحُه. وسيكون القيصر على علمٍ بهذا، لكن لا شك أن خطتك ستُحضر الأميرَ إيفان ليرمونتوف. كلُّ ما على الرئيس أن يفعله هو أن يُخبر القيصر أنَّ الأمير خطيبُ فتاةٍ أمريكية، وسيُسمَح لليرمونتوف بالخروج.»

قال القبطان معترضًا: «لكن، بما أن الأمير يعلم أن الرجل الإنجليزي في السجن، كيف سيتأكَّدون من صمتِ جون، ودروموند أعز أصدقائه؟»

«لا يمكن أن يكون على علمٍ بهذا؛ لأن الأمير قُبض عليه قبل عدةِ أيامٍ من إلقاء القبض على دروموند.»

قال القبطان: «من المُحتمَل أن يكونوا قد ألقوهما في زنزانةٍ واحدة»، لكن دورثي هزَّت رأسها.

وقالت: «لو كان في نيتهم فِعلُ هذا لألقوا عليهما القبضَ معًا من دون شك. أنا متأكدةٌ أنَّ أحدهما لا يعرف مصيرَ الآخر؛ ولذا يستطيع القيصرُ بكل سهولةٍ أن يُطلق سراح ليرمونتوف، ومن المؤكَّد أن يفعل هذا عندما يسمع كلمةً من الرئيس. فضلًا عن هذا، فأنا واثقةٌ أن جاك ليس في قلعة تروجزموندوف، بقدر ثقتي في أن دروموند فيها. جونسون قال إنها سجنٌ للأجانب.»

صاحَ القبطان مُطلِقًا تنهيدةً عميقة: «يا إلهي! دورثي، إذا رجعنا مرةً أخرى إلى جونسون ...» ولوَّح بيده وهزَّ رأسه.

فتحت الخادمةُ البابَ وقالت وهي تنظر إلى دورثي:

«السيد باترسون والسيد جونسون.»

قالت دورثي وهي تنهض من مكانها: «أدخليهما إلى الغرفة الصباحية. قبطان كِمْت، إنه للطفٌ بالغٌ منك أن استمعتَ بصبرٍ كبيرٍ إلى خطةٍ لا يُمكنك بحالٍ من الأحوال أن توافق عليها.»

قالت الابنةُ بسخرية: «بصبر!»

«والآن أريد منك أن تُسديَ إليَّ معروفًا آخر.»

توجَّهَت دورثي إلى المكتب وتناولت ورقة.

«ها هو ذا شيكٌ بتوقيعي على بياض. أرجو منكَ أن تَشتريَ اليخت «ذا وولرس» على حاله التي هو عليها الآن تمامًا، واعقِد أفضل صفقةٍ يمكنك عقدها من أجلي. الرجال أفضل كثيرًا من النساء في التفاوض على مثل هذه الأمور.»

«لكنك من غير ريبٍ، عزيزتي دورثي، لن تُصرِّي على شراء هذا اليخت، أليس كذلك؟»

قالت كاثرين: «إنه مالُها هي يا أبي.»

«اصمتي.» هكذا قال القبطان، وهو ينهض من مكانه، وكان يتحدَّث لأول مرةٍ بصرامةٍ حقيقية؛ وحينها تحلَّت كاثرين بما يكفي من الحكمة لتطيع أمر والدها برغم أنها كانت قد تجاوزت الحادية والعشرين من عمرها.

قالت دورثي برقة: «بلى، أنا عازمةٌ على ذلك تمامًا يا قبطان.»

«لكن، ألا ترين يا فتاتي العزيزة مدى خداع هذا الرجل جونسون إياكِ؟ إنه من دون عمل. لقد سلبَ منكِ بالفعل عشرين ألف دولار بخداعه.»

«لا، لقد طلبَ عشرة آلاف فقط يا قبطان، وأنا التي تطوَّعتُ بمضاعفة المبلغ.»

«رغم ذلك، لقد حاول إقناعكِ أن هذين الشابين مسجونان في تلك الصخرة. لقد فعل ذلك من أجل غرضٍ ماكرٍ جدًّا، ويبدو أن غرَضَه يُوشك أن ينجح. إنه يعلم أنه سيأخذ أجرًا جيدًا، وقد وعدتِه بمكافأةٍ أيضًا. إذا نجحَ هو وطاقمُ القبطان كِد الذي معه هذا، في جعلك تركبين على متن هذا اليخت، فلن تنزلي على الشاطئ إلا بعدما تُعطيه كلَّ مليمٍ لديك. هذا هو هدفه. إنه يعلم أنكِ خارجةٌ في رحلةٍ لارتكاب جريمة، هذا هو الوصف المناسب يا دورثي، لا فائدةَ من تلطيفِ عباراتنا، ستكونين بلا حولٍ تمامًا بين يدَيه. بالطبع لا يُمكنني السماح لابنتي كيت بالذَّهاب في مثل هذه الحملة.»

صاحت كيت وتعبيرُ عينَيها ينمُّ عن تمرد: «لقد تجاوزتُ سنَّ الحادية والعشرين.»

«لا أنوي أن يذهب أيٌّ منكما يا كاثرين.»

صاحت كاثرين وفي صوتها رعشةُ غضبٍ تتصاعد: «دورثي، لن أخضع لهذا، لن أُنحَّى جانبًا كأنني طفلة. مَن ذا يهمه الأمر أكثر مني؟ وبالنسبة إلى الاستيلاء على الصخرة، فسأنسفها بالديناميت بنفسي، وسأعيدُ منها إلى أرض الوطن أكبرَ جزءٍ يمكن لليخت أن يحمله، وسأنصبه على جزيرةِ بيدلو بجوار تمثال إلهة الحرية وأقول: «ها هو ذا تمثال الحرية، وها هو ذا تمثال الاستبداد»!»

عنَّفها أبوها قائلًا: «كاثرين، لم أتخيَّل قبل ذلك قط أن بنتًا من بناتي يمكن أن تنطق بمثل هذا الهراء.»

أسرعت كاثرين بالرد قائلةً: «موروثٌ أبويٌّ، يا أبي.»

قاطعتهما دورثي قائلةً: «إنَّ خطتكَ بخصوص مقابلة الرئيس يا قبطان كِمْت ممتازةٌ فيما يتعلَّق بالأمير ليرمونتوف، لكن لا يمكن أن تنقذ المُلازم دروموند. والآن، ثمة شيئان

بإمكانك أن تفعلهما لي سيجعلانني مَدينة لك دائمًا، مثلما أنا في الواقع مَدينةٌ لك بالفعل، وأولهما هو أن تَشتريَ لي اليخت. الثاني هو أن تُكوِّن رأيك الخاص في المدعو جونسون، وإذا لم تَثِق به فعيِّن لي نصف عدد الطاقم واحرص على أن تختارَهم من الأمريكيِّين.»

قال القبطان بصوتٍ أجش: «أول فكرةٍ حكيمةٍ أسمعُها منذ دخلتُ هذه الشقة.»

«إنَّ الأمريكيين لن يسمحوا للفنلندي باحتجازي من أجل الحصول على فدية، ويُمكنكَ أن تثق في هذا.»

نظر القُبطان الشهم نظرةً مكروبةً إلى الفتاة الرزينة العاقدة العزم، ثم لما شعر بعين ابنتِه ترمقه، التفت إليها.

«أنا ذاهبةٌ يا أبي.» هكذا قالت بتصميمٍ مساوٍ لتصميمه، وأدركَ هو من جهته متى تَنصاع ابنته لحدود الخطر. صدرت عن القبطان ضحكةٌ خالية من البهجة.

وقال: «كلُّ ما أستطيع أن أقوله هو أنَّني أشعر بالامتنان لأنكما لمْ تُقرِّرا اختطاف القيصر. بالطبع ستذهبين يا كيت، وأنا أيضًا.»

الفصل السادس عشر

الزنزانة رقم تسعة

عندما حُلَّ حبلُ القارب الشراعي، وأُبعِدَ بعيدًا عن جانب الباخرة، كان على متنه ثمانيةُ رجال. ستةٌ منهم كانوا يُمسكون بالمجاديف، بينما تولَّى الدفة ذلك الكاتِب الشاب الذي وقَّع في الدفتر بالحصول على الوثائق التي أعطاه القبطان إياها، وقد أشار إلى ليرمونتوف بالجلوس على مقعدٍ إلى جواره. كانت الصناديقُ والحقائبُ مُكدَّسةً في الجزء الأمامي كله من القارب، وفي المنطقة الواقعة جهةَ مؤخِّرة القارب أيضًا.

سأل الأمير: «ما اسمُ هذا المكان؟» لكنَّ الشابَّ المُمسكَ بالدفةِ لمْ يُجب.

ربطَ ثلاثةٌ من الرجال القاربَ في حلقاتٍ حديديةٍ مُثبتةٍ في رصيف المرفأ الصغيرِ الواقعِ عند بداية الدَّرَج، ثم أخرجُوا مَجاديفهم من الماء وأدخلوها إلى القارب. ألقى كلٌّ منهم حقيبةً على كتفه، ورَقِيَ سِتَّ درجاتٍ على الدَّرَجِ ثم وقفَ يَنتظِر. أشار الكاتِبُ إلى ليرمونتوف بأن يَتبعه، فخطا ليرمونتوف على الرصيف الصخري ورفعَ عينَيه إلى الدَّرَجِ الوعر المحفور بين الجزيرةِ الرئيسية وإفريزٍ صخريٍّ ناتئٍ شديدِ الانحدار. كانت درجاتُ الدَّرَج ضيقةً جدًّا، ومن ثمَّ تَعيَّن على المَوكبِ أن يصعدوا واحدًا تلو الآخر؛ ثلاثةُ رجالٍ يَحملُون الحقائب، ثم الأمير والكاتِب، وجاء خلفهم ثلاثةُ رجال آخرين يَحملُون الصناديق. أحصى ليرمونتوف مائتَين وسبعًا وثلاثين درجة، أدَّت به إلى مُنبسَطٍ مرتفِع، كان هذا المنبسطُ ناتئًا مِن مَدخَلٍ منحوتٍ في الصخر الحي، لكنه كان محجوبًا عن مرأى البحر كله. كانت شمسُ الشروق تسطع في هذا المَدخل، لكنها لم تكن تتخلَّل بالقدر الكافي إلى الحجرةِ الكبيرة التي كانت جدرانها وسقفها وأرضيتها من الصخر الأصم. كان في طرف الغرفة البَعيد رجلٌ مُرتدٍ بذلةً نظاميةً يجلس خلف منضدةٍ طويلةٍ يتوهَّج فوقها مصباحٌ نفطيٌّ ذو كُمَّةٍ خضراء. كان على يمينه مجمرةٌ مستديرةٌ واسعةٌ بها جمرٌ مُتوهِّج، على الطراز

المشرقي، وكان الضابط يضع كلتا يديه فوقها ويفرك إحداهما بالأخرى. بالرغم من ذلك، كانت الغُرفة تبثُّ في جسم مَن يدخلُها قشعريرة البرد وكأنها قبو، وسمعَ ليرمونتوف خريرَ ماءٍ مُتواصِلًا مكتومًا.

تقدَّم الكاتِبُ إلى الأمام وأدَّى التحية العسكرية، ثم قدَّم للمدير الجالس هناك الأوراقَ والأظرفَ التي أعطاه القبطان إياها. اختار الضابطُ فَرْخَ ورقٍ أزرقَ، وراحَ يتفحَّصه قليلًا تحت ضوء المصباح.

وقال: «أين الآخرون؟»

«لقد أنزلنا المُؤنَ أولًا يا حضرة المدير؛ وسيعود القاربُ بعد ذلك من أجلِ الآخَرين.»

أومأ المديرُ برأسِه، ودقَّ جرسًا براحة يده المفتوحة. عندئذٍ دخل رجلٌ ضخمُ البنية يحمل مجموعةً من المفاتيح في حزامه، وتبعه رجلٌ آخرُ يحمل مِصباحًا مُضاءً.

قال المديرُ للسجانَين: «رقم تسعة.»

سأله ليرمونتوف: «معذرةً يا سيدي، هل أنا سجين؟»

أطلقَ المديرُ صوتًا أقربَ إلى قُباع الخنزير منه إلى كلام البشر. لمْ يُجِب، لكنه رفعَ عينيه إلى السائل، ورأى الأخيرُ أنَّ وجهه الهزيلَ الذي يكاد يُشبه وجهَ هيكلٍ عظميٍّ على قيد الحياة كان باهتًا شديدَ الشحوب.

أعاد المديرُ كلامه: «رقم تسعة.» وعندئذٍ وضعَ السجَّان إحدى يديه على إحدى كتفَي ليرمونتوف ووضعَ الرجل الذي يحمل المصباحَ كذلك إحدى يدَيه على كتفه الأخرى، وأخذاه بعيدًا. سار الثلاثةُ معًا في ممرٍّ طويل، وراحَ المصباحُ المتمايلُ يُلقي بأشعته الصفراء على المزاليج الحديدية للأبواب المتعاقبة واحدًا تلو الآخر، إلى أن توقَّف السجَّانُ أخيرًا، وفتحَ ستةَ مزاليج، وأدخلَ مفتاحًا، وفتحَ قُفلَ الباب، ثم فتحَ الباب ببطء. أظهرَ ضوءُ المصباح أنه كان مصنوعًا على هيئة أبواب الخزنات، لكنه كان يفتح إلى الداخل على عكس باب الخزنة. ما إن وُورِبَ البابُ حتى سمعَ ليرمونتوف صوَت ماءٍ يتدفَّق، وعندما دخلَ الثلاثةُ رأى جدولَ ماءٍ صغيرًا سريعَ التدفُّق يتلألأُ في أشعةِ المصباح عند الطرَف البعيد من الزنزانة. ورأى كذلك رفًّا صخريًّا ناتئًا ومقعدًا حجريًّا في مواجهة الرف. وضعَ السجَّانُ يديه على رغيفٍ أسود، بينما رفعَ الآخرُ المصباح.

قال السجَّان: «سوف يكفيك هذا أربعةَ أيام.»

«حسنٌ يا بني، أعتقد من خلال مظهره الذي يسدُّ الشهية، أنه سيكفيني أكثر من ذلك بكثير.»

لمْ يردَّ السجَّانُ بشيء، وإنما انصرفَ هو والرجل الذي يحمل المصباح، وجرَّا الباب وراءهما ببطء. سمعَ ليرمونتوف المزاليج وهي تُقحَم في أماكنها، والمفتاح وهو يُدار؛ ثم خيَّم الصمتُ على كل شيءٍ باستثناء خرير الماء. وقفَ ليرمونتوف دون حراكٍ في وسط الزنزانة، ودفعَ بيديه عميقًا في جيوب معطفه، ورغم ثخانة ذاك الثوب سرَت في بدنه رِعدةٌ صغيرة.

وقال مغمغمًا: «حسنًا يا جاك، إنَّ هذا نوعٌ جديدٌ من المعاملة، كما يقولون في الغرب. يمكنني أن أتخيَّل أن يفقد الرجلُ صوابه هنا، لولا وجود جدول الماء هذا. لمْ أعرف مُطلقًا معنى الظُّلمة قبل هذا. حسنٌ، لنَكتشِف حجمَ مملكتنا.»

تلمَّس ليرمونتوف طريقَه إلى الجدار، لكنه تعثَّر في المقعد الصخري، الذي نسيَ أنه موجود، وانطلق مترنحًا باتجاه المنضدة، وسقطَ منه رغيفُ الأربعة أيام متدحرجًا على الأرض. مدَّ يده في إثر الرغيف ليمسكه لكن من دون جدوى، كان يخشى من احتمال أن يسقط في جدول الماء ويضيع منه، لكنه لم يستطِع العثور عليه، وفي تلك اللحظة أفسحَت نيتُه السابقةُ في معرفة مقاييس الزنزانة الطريقَ أمام رغبته في العثور على ذلك الرغيف. نزلَ ليرمونتوف على الأرض وأخذَ يسير على يديه وركبتيه، وراحَ يتحسَّس الأرضيةَ الحجريةَ بوصةً بوصةً على مدى نصف ساعة، بحسب تقديره، لكنه لمْ يَلمس الخبزَ ولا مرة واحدة.

قال في نفسه مُغمغمًا: «يا لقلَّة حيلة الإنسان في الظلام، رغم كل ذلك، يَجب أن أفعل هذا بطريقةٍ منظَّمة، ولأبدأ من عند حافة جدول الماء.»

بلغَ ليرمونتوف حافة غدير الماء حبوًا على أطرافه الأربعة، وراحَ يتحسَّس طريقه على امتداد الحافة إلى أن اصطدم رأسه بالجدار المقابل. استدار، وتَموضَع في مكانٍ خمَّنَ أنه أقربُ إلى الباب بمقدار ثلاث أقدام، وراحَ من جديدٍ يجوز خلال الغرفة، واشتدَّت حماستُه للغاية في البحثِ لدرجة أنه نسيَ في تلك اللحظة مدى شناعة وضعه، كحاله تمامًا عندما كان يَنخرِط في تجربةٍ علميةٍ كيميائيةٍ فيختفي من ذهنه كلُّ ما عَداها، وهكذا بعد عدةِ مراتٍ من الذَّهاب والإياب في الغرفة تذكَّر من جديدٍ وجودَ المقعد الصخري عندما نطحه برأسه في اللحظة التي عَلِمَ فيها أنه لا يزال بعيدًا عن الجدار بمِقدار عدةِ أقدام. أخذَ ليرمونتوف يحك رأسه ويُغمغمُ بعباراتِ ذَمٍّ للمقعد الذي لا يُمكن تحريكُه، ثم زحفَ حوله مرتَين، واستأنفَ رحلاته القصيرة في عرض الغرفة. في النهاية وصل إلى الجدار الذي كان يضمُّ الباب، وراحَ في تلك اللحظة، وبحماسةٍ مُرهقةٍ إلى حدِّ اللُّهاث، يحكُّ كتفَه

في الجدار إلى أن وصَل إلى الركن المقابل. أدركَ ليرمونتوف أنه لَمَس فعليًّا بركبتَيه ويدَيه كلَّ بوصةٍ مربَّعةٍ من مساحة الأرضية، ورغم ذلك ما مِن خبز.

صاحَ ليرمونتوف وهو يَنهضُ على قدميه ويتمطَّى: «والآن، هذه كارثة. ومع ذلك، فإنَّ الإنسان لا يموتُ من الجوع في أربعة أيام. لقد ألقيتُ خبزي في الماء. من الواضح أنَّ جدول الماء قد ازدرده. فماذا يمنع المرءَ من الهروب عن طريق جدول الماء هذا؟ ومع ذلك، فما جدوى الهرب إن تمكَّن منه؟ سوف يَخرج للعوم في بحر البلطيق، ولو تمكَّن من السباحة حول الصخرة، فلن يكون ثمة خيار لديه سوى الطَّرق على الباب الأمامي والتوسُّلِ لهم كي يسمحوا له بالدخول مرةً أخرى. كلا، يا إلهي، إنَّ القارب موجود، لكن يُحتمَل أنهم يحرسونه ليلًا ونهارًا، ولن يكون لرجلٍ في الماء أملٌ في التغلبِ على رجلٍ داخلَ القارب. ربما تُوجد حواجز شبكية بين الزنازين. لا بد أنها موجودة بالطبع. لن يترك أحدٌ قاع جدول الماء سالكًا أمام أيِّ أحدٍ يُريد اجتيازه؛ إذن لتمكَّن السجناء من زيارة بعضهم بعضًا في زنازينهم، وهذا غير مَسموحٍ به في أيِّ سجنٍ مُحترَم. ليت شعري هل يُوجد أيُّ أحدٍ بجواري في أيٍّ من الجانبَين. إنَّ وجود شبكة حديدية لن يَمنع الصوت. سوف أجرِّب.» وذهبَ مرةً أخرى إلى حافة جدول الماء، وراح يَصرخ عدةَ مراتٍ بأعلى صوتٍ لديه، لكن لم يُجِب على صراخه سوى صدى صوتٍ كئيبٍ، كأنه قادمٌ من جوف قبو.

«أظن أنَّ الزنازين المُجاورة لي فارغة. لا أملَ في وجود صحبةٍ أَستمتِع بها هنا. تُرى هل أتَوا بالمساكين الآخرين من الباخرة أم لم يَفعلُوا بعد! سوف أجلس على المقعد وأُنصت.»

كان بإمكانه أن يجد المقعد والرفَّ على الفور تقريبًا إذا تلمَّس طريقه حول الحائط، لكنه قرَّر أن يستخدم حاسة تحديد الاتجاه لديه؛ وذلك كي يَضع نفسه في مُواجهةٍ مباشرةٍ مع الظلام الذي حوله.

قال: «لا داعيَ للعجلة. ربما أبقى مدةً طويلةً هنا.»

كان يَحتفظ في ذهنه بصورةٍ للزنزانة، لكنه لمَّا استمع إلى المياه في تلك اللحظةِ بدا أنها قد غيَّرَت اتجاهها، ووجدَ أنه يتعيَّن عليه أن يُعيد ترتيب هذه الصورة الذهنية، وأن يُجري مجموعةً مُختلفةً من الحسابات كي تُلائم الوضع الجديد. عندئذٍ راح يمشي إلى الأمام جارًّا قدميه ببطءٍ ومادًّا يديه أمامَه، لكنه وصَل إلى الجدار، وليس إلى المقعد. من جديدٍ راحَ يُنظِّم طريقه، ومن جديدٍ حاوَلَ، ومن جديدٍ أخفق.

قال مُغمغمًا: «هذا مُربِك. كم يُحيرُ الظلامُ المرءَ! لأولِ مرةٍ في حياتي أُقدِّرُ الرحمةَ الكامنة في أمر الرب حقَّ قدْرها، وذلك حين قال: «ليكُن نورًا».»

وقفَ ليرمونتوف متحيرًا بضع دقائق، ولمَّا غاصَ عميقًا في التفكير، نفَّذَت يداه عمليةً بصورةٍ آليةٍ بصفتهما خادمتَي عاداته. لقد أخرجتا مِن جيبِه عُلبة سجائرِه، واختارتا لُفافةَ تبغٍ، ووضعتاها بين شفتَيه، وبحثَتا في جيبٍ آخر، وأخرجتا عُلبة ثقاب، وأشعلتا نارًا. أفزع إشعالُ عود الثقاب ليرمونتوف وكأنما كان انفجارًا؛ فضحكَ من ذلك، وعندما رفعَ عود الثقاب فوق رأسه رأى عند قدمَيه رغيفَ الخبز الأسود. لقد بدا الأمر وكأنَّما لوى أحدٌ ما الغرفةَ فجعل أحدَ طرفيها مكانَ الآخر. كان الباب في المكان الذي ظنَّ أن جدول الماء فيه، وهكذا علمَ أن الصوت لا يُرشِد رجلًا معصوبَ العينين إلى الاتجاهات الصحيحة. بدأ عود الثقاب يتضاءل، فأشعَل سيجارتَه في توتُّر.

«لماذا لمْ أفكِّر في أعواد الثقاب، وكم هو مُؤسِفٌ أنني لمْ أملأ جيوبي بها في ليلة حفل عشاء البروفيسور تلك! إنه لأمرٌ مدهشٌ أن أعواد الثقاب تُباع في تلك اللحظة في السويد بسِعر نصف بنسٍ لكل مائتَين وخمسين عودًا!»

على هُدى الوميض الصادر من طرَف سيجارته ذهبَ إلى المقعد وجلسَ عليه. لقد اندهشَ إذ لم يجد نفسه مُكتئبًا بقدرٍ يَتلاءم مع الوضع. إنه لمْ يُشعر بأدنى قدْرٍ من القنوط. ثمَّة شيءٌ كان سيحدث لصالحه؛ كان واثقًا من هذا كلَّ الثقةِ. لقد كان أمرًا في غاية السخافة أنه في روسيا حتى المواطن المُوالي للدولة، والذي لمْ يَرتكِب أيَّ عملٍ مُخالفٍ للقانون في حياته، والذي هو أحدُ نبلاء الإمبراطورية، وأحدُ أصدقاء القيصر، من المُمكن أن يُسجَنَ طويلًا من دون محاكمة، وحتى من دون أن تُوجَّه له تُهمة. لم يكن ليرمونتوف يَعرف له أعداءً، وكان له العديد من الأصدقاء، ورغم ذلك فقد استشعرَ قلقًا غامِضًا عندما تذكَّر أن تاريخ حياته كان يسيرُ على وتيرةٍ معيَّنةٍ تجعل أصدقاءه لا يَفتقدُونه. لقد ظلَّ على مدى أكثر من عامٍ يتنقَّل بين إنجلترا والبحر وأمريكا، وكان مُنهمكًا جدًّا في أبحاثه لدرجةِ أنه لمْ يُرسِل أيَّ رسائل شخصية تستحق الذكر، ولو سُئل أيُّ صديقٍ من أصدقائه عن مكانه فلربما أجابَ قائلًا:

«يا إلهي، ليرمونتوف في مدينة ألمانيةٍ ما حيث إحدى الجامعات، أو في إنجلترا، أو مسافرٌ في مكانٍ آخر. إنني لمْ أرَه ولمْ أعرف عنه شيئًا منذ شهور. ربما يكون هائمًا في إحدى البراري أو مُستغرقًا في إحدى التجارب العِلمية.»

قاطعَ هذه التأملاتِ الحزينةَ صوتُ رنينِ المزاليج. حسبَ ليرمونتوف في البداية أن باب زنزانته هو الذي كان يُفتَح، لكنه أدركَ بعد دقيقةٍ أنه كان باب الزنزانة التالية الواقعة في الاتجاه المعاكس لتيار جدول الماء. لم يكن الصوتُ، بالتأكيد، ليَنفذَ عبرَ الجدار الشديد السماكة، لكنه أتى من الفتحة التي كانت قمتُها تتخذ شكلَ قوسٍ يمر ماءُ الجدول من تحته. من خلال الأصوات استنتجَ أن عِدةَ سجناء كانوا يُودَعون زنزانةً واحدة، وتساءل إن كان يَرغب في وجود مرافقٍ أم لا. إنَّ الأمر كله مرهونٌ بالظروف. لو أنَّ زملاء الحبس كرهوا بعضَهم بعضًا، فربما يتَّضح أن قُربهم القسريَّ هذا كان أمرًا بغيضًا.

سمعَ ليرمونتوف أحدَهم يقول: «نحن جائعون. أحضِروا لنا طعامًا.»

ضحكَ السجَّان، وقال:

«سوف أعطيكم شيئًا تشربونَه أولًا.»

صاحت ثلاثةُ أصواتٍ قائلةً: «هذا صحيح. فودكا، فودكا!»

عندئذٍ صدرَ عن الباب رنينُ الإغلاق مرةً أخرى، وسمعَ ليرمونتوف أصواتَ تهامُس السجناء باللغة الروسية، لكنه لمْ يَستطِع تمييزَ ما كانوا يقولون. بدا أن أحد السجناء الجُدد كان يتلمَّس طريقه في الزنزانة وارتطم بالمقعد الحجري، كما فعل ليرمونتوف من قبل. أخذ الرجل في الزنزانة المجاورة يتفوَّه بشتائم بذيئة، وأدركَ ليرمونتوف من خلالِ ما استطاع أن يسمعه من نُتف حديثهم أنهم كانوا أُناسًا من طبقةٍ وضيعة، فلم يجد لديه رغبة في التقرب إليهم، فلم يُنادِ عليهم كما كان ينوي أن يفعل. وفي تلك اللحظة أحسَّ أنه افتقدَ شيئًا كان قد ألِفه؛ فظنَّ أن ما كان يُريده هو لفافة تبغ؛ لأن اللفافة التي كان قد أشعلها استُهلِكت حتى وصلت إلى شفتيه، لكنه أدركَ أن خرير جدول الماء هو الذي توقَّف.

قال: «يا إلهي، إنهم يستطيعون أن يُوقفوا جريانه. هذا مثيرٌ للاهتمام. يجب أن أبحث وأعلم إن كانت الزنازين متصلةً أم لا. رغم أن هذا غير مُتوقَّع.»

زحفَ ليرمونتوف على يدَيه وركبتَيه إلى أن وصل إلى قاع الجدول، الذي كان في تلك اللحظة رطبًا، لكن فارغًا. جثا ليرمونتوف في مجرى الجدول، وشقَّ طريقه إلى الزنزانة الجنوبية، وكما توقَّع، وصل إلى قضبان حديدية متينة. بعد انحنائه بهذه الطريقة كان قد ضحَّى بعودِ ثقابٍ ثانٍ، وقدَّر المسافةَ التي بين الزنزانتَين بما يقارب عشر أقدامٍ من الصخر الأصم، ورأى كذلك أنه يوجد وراء القضبان الحديدية العمودية مجموعةٌ أخرى أفقية، ثم أخرى عمودية، ثم رابعةٌ أُفقية.

بينما هو في هذا الوضع أفزعه صراخٌ مُدَوٍّ قادمٌ من الخلف. رجعَ القهقرى وخرجَ من النفق واعتدلَ واقفًا من جديد. لقد سمعَ أصواتَ أُناسٍ يخُوضون في الماء. بدأ الصارخُ يُهذِر كالممسوس، ويقطع هذيانَه بالصراخ. كان رجلٌ آخر يُطلق الشتائم بعنف، وثالثٌ يَستغيث بالقديسِين. جثا ليرمونتوف سريعًا في جدول الماء، لكن في اتجاه الزنزانة الشمالية هذه المرة، وأشعل عودَ ثقابٍ ثالث. لقد رأى أن دِرعًا فولاذية، ذكَّره شكلُها بالمصراع الرقيقِ الموجود بين عدسات الكاميرا، كانت قد أُقحمت عَبْرَ النفق وراءَ المجموعة الثانية من القضبان الممتدة بالعرض، وكحالِ أيِّ مهندسٍ لمْ يستطِع إلا أن يُعجَب بمهارة الخبير التنفيذي الذي صنعَ هذه الأداة الشيطانية؛ لأنه برغم ضغط الماء من الجانب الآخر، لمْ تكد نقطةُ ماءٍ واحدةٌ تنزُّ من خلال الدرع. حاول ليرمونتوف أن يصل إلى هذه الدرع، لكن لم يستطِع. كانت أبعدَ مِن متناول أصابعه، حتى مع مدِّ ذراعِه عبْرَ مجموعتي القُضبان الحديدية، غير أنه إذا كان قد تمكَّن مِن مدِّ يده لهذه المسافة، ومجموعةُ القضبان الأولى تعوق كتفَه، فقد كان يعلم أنَّ يده كانت ستَعجز عن خَرقِ الدرع الفولاذية، حتى ولو كان معه سلاحٌ ما. كان الرجالُ سيغرقون قبل أن يتمكَّن من تحقيق أي شيءٍ ما لمْ يصل إلى الرافعة الموجودة في الممر بالخارج.

بعدما زحفَ إلى زنزانته مرةً أخرى لمْ يعد يسمع هذيانَ الممسوس وصرخاته، وخمَّنَ أن الرجلين الآخرَين كانا يتشاجران من أجل الاستحواذ على مكانٍ فوق المقعد أو الرف، وقد كانا واسعَين جدًّا بحيث يتَّسعان لكليهما، لولا أنْ أفقدهما الخوفُ عقلَيهما وصرفهما عن إدراك هذه الحقيقة. انتصر الرجلُ الذي كان يتفوَّه بالشتائم، ووقفَ في تلك اللحظة وحده فوق الرف، وراحَ يجأر باللعنات. ثم دوَّى صوتُ غَطسةٍ، وسمعَ ليرمونتوف، وهو واقفٌ في مكانه عاجزًا مُرتجِفًا، ذلكَ السجينَ يدور ويدور سابِحًا في زنزانته كحيوانٍ مُهتاجٍ، يُغمغم ويشتم.

صاحَ ليرمونتوف: «لا تُجهد نفسكَ هكذا. إذا أردتَ أن تعيش فتشبَّث بالحفرة الموجودة في أيٍّ من الركنَين العلويين. لن تَرتفِع المياه فوقك عندئذٍ، وستَستطيع أن تتنفَّس حتى تَنحسِر.»

لكن الآخر إما أنه لم يسمع أو لم يُبالِ، وإنما ظلَّ يدور ويدور باهتياجٍ وغضبٍ في حوضِه الضيِّق، وراحَ يَضرِب الماء كحُوتٍ يُحتضَر.

قال جاك بتأوُّه: «يا لَلمسكين. ما الفائدة من إخباره بما عليه أن يَفعله. إنه هالكٌ على أيِّ حال. الرجلان الآخران أحسنُ حالًا الآن.»

بعد دقيقةٍ بدأت المياه تَقطر من الفتحة العليا داخلَ زنزانة جاك، وراحت تزداد وتزداد إلى أن صار صوت تدفُّقها كهدير شلال، وأحسَّ جاك بقطرات الماء الباردة المُتناثِرة تتدفَّق نحوه. وفيما عدا ذلك، ساد الصمتُ. ربما بعد عشر دقائق تقريبًا شُدَّت الرافعة، وراحَت المياه تتدفَّق بقوةٍ من النفق السفلي كتيارِ المياه الذي يُدير دولاب الطاحون عندما يُطلق لاندفاعه العَنان، لقد غمرَ الأرض مؤقتًا لذلك اضطُرَّ جاك إلى الوقوف على المقعد الصخري.

غاصَ جاك في المياه وراحَ يَرتجِف فوق الرف الصخري، ووضعَ يديه على الوسادة الصخرية، ودفنَ وجهه داخلهما.

وأخذَ يقول مُتأوِّهًا: «ربَّاه، ربَّاه!»

الفصل السابع عشر

عالِمٌ زميل

في هذا الوضع الجسماني نامَ جاك نومًا مُتقطعًا، أو بالأحرى، غفا فيما يُشبه الغيبوبة، وكان يُفيق منها مفزوعًا بين الحين والآخر؛ إذ كان يُخيَّل إليه أنه يَسمع من جديدٍ تلك الصرخات المختلطة من الصلوات المَمزوجة واللعنات. وفي نهاية المطاف غاصَ في نومٍ عميقٍ، واستيقظَ نشيطًا، لكن جائعًا. كان رغيفُ الخبز موضوعًا إلى جواره، وبواسطة سكينه قطعَ شريحةً منه، وراحَ يَمضغ الخبز الرديءَ بتلذُّذٍ أكبر مما تصوَّر أنه مُمكنٌ عندما وقعَت عينُه عليه أولَ مرة. بعد ذلك أخرجَ سيجارةً أخرى، وأشعلَ عودَ ثقابٍ، ونظرَ في ساعته، وأشعلَ السيجارة. كانت الساعة الثانية وعشر دقائق. تساءل إن كانت ليلةٌ قد مرَّت، لكنه ظنَّ أن هذا غير مُحتمَل الحدوث. لقد نزلَ من السفينة في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من الصباح، وكان في ذلك الحين في فترة العصر. كان عطشانًا بصورةٍ مَخيفة، لكن لمْ يستطِع أن يُقنِع نفسه بالشرب من جدول الموت هذا. من جديدٍ سمع المزاليج وهي تُجذب إلى الوراء.

قال مُغمغمًا: «سوف يُلقون التعساءَ المساكينَ في البحر»، لكن الوميض الأصفر المُنبعث من المصباح جعله يُدرك أن بابَ زنزانته هو الذي فُتِح.

قال السجَّان بصوتٍ أجش: «سوف تُقابل المدير. تعالَ معي.»

وثبَ جاك إلى أرضية زنزانته وهو يكبتُ في نفسه صرخةَ ابتهاج. لم يكن باستطاعة المُدير المتجهِّم أن يَفعل له أيَّ شيءٍ يَجعل وضعه أسوأ ممَّا كان عليه، وربما تُؤدي قدراته في إقناع هذا الموظف إلى بعض التحسُّن في وضعه. على أيِّ حالٍ كان سيَحظى بفترة الراحة القصيرة التي ستُتيحها له المُقابلة، وقد كان مُستعدًّا بكل سرورٍ لمصادقة الشيطان نفسه ليتحرَّر بضعَ دقائق من هذه الحفرة السوداء.

مع أنَّ الباب الخارجي لغرفة المدير كان مفتوحًا لم تكن إضاءةُ الغرفة بالجودةِ نفسِها التي كانت عليها من قبل؛ لأن الشمس كانت قد استدارت في هذا الوقت إلى الجزء الآخَر من الجزيرة، لكنها بدَت في عينَي السجين الأليمتَين غرفةً مُتألِّقة. كان المصباح النفطيُّ نفسه يتوهَّج فوق المنضدة وتنبعث منه رائحةُ نفطٍ رديء، وإضافةً إليه، أُضيئَت شمعتان كمَّلتا بصورةٍ طفيفةٍ، جهودَ المصباح. كان عند طرف المنضدة مجموعةٌ من المستندات تحتَ مُثقِّلةٍ تمنعها من أن تَتطاير، وكانت مُرتَّبةً بدقةٍ وإتقانٍ لا يفعلهما إلا رجلٌ منظَّم. كان المدير يدفئ يديه فوق المجمرة، لكنه توقَّف عن هذا عندما أُحضِر ليرمونتوف للمثول أمامه. رفعَ المدير مثقِّلة الأوراق، وأخرجَ من تحتها الرسالتَين اللتين كان ليرمونتوف قد أعطاهما للخادم على متن السفينة البخارية، وسلَّمهما للسجين، الذي يكون بهذا يتسلَّمهما للمرة الثانية.

قال المدير وقد بدت عليه علاماتُ لا مُبالاةٍ مشوبةٍ بالضجر بدا جليًّا أنها كانت صادقةً للغاية: «أريد أن أقول إنك لو أقدمت على أيِّ محاولةٍ أخرى للاتصال بالسلطات، أو بأصدقائك، فسوف تجر على نفسك عقابًا لن يسرك.»

قال الأمير: «بوصفي أحد رعايا القيصر، يحقُّ لي أن ألجأ إليه.»

ردَّ المدير: «كان سيثبت لك أنَّ هذه المناشَدة التي كتبتَها في هذه الرسالة عديمةُ الجدوى، حتى ولو كانت وصلَت إلى وجهتها. إنَّ القيصر لا يعرف شيئًا عن تروجزموندوف، إنها قلعةٌ خاضعةٌ بالكامل لسلطان كبار الدوقات والأسطول. إنَّ تروجزموندوف لا تتخلَّى عن أيِّ سجينٍ ألبتَّة.»

«سوف أبقى هنا للأبد إذن؟»

أجابَ المدير بهدوءٍ لا مبالٍ: «نعم. وإذا لم تُسبِّب لي مشكلةً فستوفِّر على نفسك بعضَ الإزعاج.»

سأله الأمير: «هل تتحدَّث الفرنسية؟»

أجابه المدير بالروسية: «نِيَت (لا).»

«الإنجليزية؟»

«نِيَت.»

«الإيطالية؟»

«نِيَت.»

«الألمانية؟»

«نعم.»

أكمل ليرمونتوف بالألمانية: «إذن، لديَّ بعض كلماتٍ أودُّ أن أقولها لك ولا أريد هذا السجَّان أن يفهمها. أنا الأمير إيفان ليرمونتوف، وأنا صديقٌ شخصيٌّ للقيصر الذي هو، بالرغم من كل شيء، رئيس كبار الدوقات والأسطول كذلك. إذا ساعَدتني في التواصُل معه، فسأضمن ألَّا يمسَّك أذًى، وعلاوةً على ذلك سأَجعلُك رجلًا غنيًّا.»

هزَّ المدير رأسه ببطءٍ، وقال:

«ما تطلبه مُستحيل. إنَّ الثروة لا تعني لي شيئًا. ربما تفعل الرشوةُ الكثيرَ في أجزاءٍ أخرى من الإمبراطورية، لكنها عاجزةٌ في قلعة تروجزموندوف. سوف أموتُ في الغرفة المُجاورة لهذه، مثلما مات سَلفي. إنني سجينٌ في قلعة تروجزموندوف كما هي حال سموِّك تمامًا. ما مِن رجلٍ وطئ بقدمه هذه الغرفةَ يومًا، سواءٌ أكان مديرًا، أو مُوظَّفًا، أو سجينًا، ثُم سُمِحَ له برؤية البر الرئيسي مجددًا، وبهذا ظلَّ السر محفوظًا جيدًا. لقد كان لدينا العديدُ من السجناء في مثل رتبةِ سموِّك، وأصدقاء للقيصر كذلك على ما أعتقد، لكنهم ماتوا جميعًا على أرض الصخرة، ودُفِنوا في بحر البلطيق.»

«ألا يُسمَح لي بالحصول على بعض المؤن إذا دفعتُ ثمنَها؟ هذا مسموحٌ به في سجون أخرى.»

هزَّ المدير رأسه.

وقال: «يُمكنني أن أسمح لك ببطانية، ووسادة، أو ثوبٍ مصنوعٍ من جلد الغنم إذا كنتَ أحسستَ بالبردِ في البداية، لكن سُلطتي هنا محدودةٌ للغاية، وصدِّقني، إنَّ ما يحصل عليه الضباط من وسائل الراحة لا يفوقُ كثيرًا ما يحصل عليه السجناء منها.»

قال ليرمونتوف: «يا إلهي، أنا لا أهتم مُطلقًا بوسائل الراحة. إنَّ ما أريده هو بعض الأدوات العِلمية. أنا دارسٌ للعلوم الطبيعية؛ ولا علاقة لي بالسياسة، كما لمْ أتورَّط قطُّ في أيِّ مؤامرة. لقد ارتكبَ أحدُ المسئولين خطأً أحمقَ، وهذا هو سبب وجودي هنا. أنا واثقٌ تمامًا أن هذا الخطأ سوف يُكتشَف ويُصحَّح. إنني لا أحملُ أيَّ ضغينة، ولن أتفوَّه بكلمةٍ عن المكان عندما يُطلق سراحي. إنه أمرٌ لا يخصُّني. لكنَّني لا أريد أن أهدر الوقتَ الذي سيمر قبل أن يتحقق هذا. ولهذا أرغب في شراء بعض الآلات والأدوات الكهربائية، وأنا مستعدٌّ لدفع أيِّ ثمن تطلبونه في مقابلها.»

سأله المدير: «هل تفهم في الكهرباء؟» ولأول مرةٍ أظهر وجهُه الجامدُ الشعورِ مِسحةَ اهتمام.

«هل أفهم في الكهرباء؟! يا إلهي، لقد ظللتُ أكثر من عامٍ رئيسَ فنيِّي الكهرباء على متن سفينةٍ حربية.»

قال المدير، وقد عاد إلى الروسيةِ مرةً أخرى: «ربما تستطيع إذن أن تُخبرني بمشكلةِ مُولِّد الكهرباء الموجود لدينا هنا في الصخرة. فبعد طلبٍ مُتكرِّرٍ، أرسلوا آلاتٍ لإضاءة مكاتبنا وممراتنا بالكهرباء. من الواضح أنهم لم يرغبوا في إرسال كهربائيٍّ إلى قلعة تروجزموندوف، وأرسلوا بدلًا منه بعضَ كتيباتٍ للتعليمات. وأنا أُحاول معها منذ سنتَين ونصف، لكنني لا أزال أستخدم المصابيح النفطية والشموع. لم نجد صعوبةً في تزويد المكان بالأسلاك.» رفعَ الشمعة وعرضَ بها ثُريا مليئةً بالمصابيح الكهربائية تتدلى من السقف لمْ يلاحظ ليرمونتوف وجودها قبل تلك اللحظة، وكذلك العديدَ من حوامل المصابيح المنبثقة من الجدران، ومصباحًا أو اثنين من المصابيح القائمة في أحد أركان الغرفة، ويتصل بها سلكٌ كهربائي ذو كسوة حريرية خضراء اللون.

سأله ليرمونتوف: «أيُمكنني أن أرى المُولِّد؟»

دفَّأ المديرُ يديه مرةً أخيرةً فوق المجمرة، وتناول شمعةً، وأمرَ السجَّان أن يُزيل كُمَّة المصباح من عليه وأن يُحضرَه معه، وتقدَّم أمامهما في أحد الممرات، ثم دخلَ إلى غرفةٍ كان أول ما سمعه السجين فيها عند دخوله صوت خرير المياه.

«ما هذا الذي لدَيكم، مُحرِّكٌ توربيني؟ هل يزودكم بأيِّ طاقة؟»

قال المدير: «يا إلهي، إنه يُنتج الكثير من الطاقة.»

«أرني كيف تُديرون التيار.»

شغَّل المديرُ المحركَ التوربيني، فبدأ المُولِّد يُصدر طنينًا، وهو صوتٌ أدركَت من خلاله أذنُ ليرمونتوف المدرَّبةُ العديدَ من الأشياء.

«حسنٌ أيها المدير، أطفِئه. إنه مُولِّدٌ عتيق الطراز نوعًا ما، لكن من المفترض أن يزوِّدكم بكلِّ ما تحتاجونه من الإضاءة. لا بد أنك كهربائيٌّ بالفطرة، وإلَّا لَمَا تمكَّنتَ إطلاقًا من تشغيل الآلة بحيث تعمل بهذا القدر من الكفاءة.»

لَمَعَت عينا المدير الباهتتان لحظةً، ثم عادتا إلى هيئتهما المتعَبةِ الحزينةِ مرةً أخرى.

قال جاك وهو يتخلَّص من معطفه: «والآن، أريدُ مفتاح ربطٍ، ومفكَّ براغي، ومطرقة، وكمَّاشةً إذا كانت موجودةً لديكم.»

قال المدير: «ها هو ذا صندوق الأدوات»، ووجدَ فيه جاك كلَّ ما أراد. بدأ جاك في العمل بنشاط، وكان يأمر المديرَ بإمساك الشمعة هنا وهناك وهنالك، وراحَ يوجِّه الأوامر إلى السجَّان وكأنه غلامٌ متدرِّب، وعلى مدار نصف ساعةٍ لمْ يَنطق أحدٌ بكلمة.

قال جاك آمِرًا: «افتح هذه المياه مجدَّدًا.»

فعلَ المدير ذلك، وراحَت الآلةُ تُحدِث طنينًا ذا نغمةٍ مختلفةٍ. كان في الغرفة ستةُ مصابيح كهربائية فغمرَت المكان بضوءٍ أبيض باهر.

«هاكم ما طلبتُم.» صاحَ جاك بهذه الكلمات وهو يُزيل النفط عن يديه بقطعةِ خيشٍ خشنة. وقال للسجَّان: «والآن يا تومي، أعِد هذه الأشياءَ إلى صندوق الأدوات.» ثم قال للمدير:

«هيا لنرى كيف تبدو الأمور في الغرفة الكبيرة.»

كان المَمر مُضاءً، واتَّضحت بذلك كلُّ علامةٍ كانت على جدران غرفة المُدير أو سقفها أو أرضيتها.

قال جاك ضاحكًا: «كنتُ قد قلتُ لكَ يا حضرة المُدير إنني لا أعرف السبب في إحضاري إلى هنا، لكنَّني عرفتُ الآن. لقد رأفَ الربُّ بحالكَ، وأمَرَني بإضاءة النور.»

في تلك اللحظة دخل السجَّانُ بمَفاتيحه التي تُصلصل في حزامه، وتلاشَت النظرةُ المتحمِّسةُ من وجه المدير، تاركةً إياه جامِدَ الشعور عديمَ العاطفة من جديد، لكنه تكلَّم بالألمانية بدلًا من الروسية.

«أنا في غاية الامتنان لسموك، وإنه ليُحزنني أنَّ علاقتَنا ستَبقى دون تغيير.»

صاحَ ليرمونتوف بابتهاج: «يا إلهي، لا بأس. إذا كان في نطاق سُلطتك أن تَسمح لي بالمجيء لإعطائك بعضَ الدروس في الكهرباء وصيانة المولِّدات الكهربائية، فسيُسعدني للغاية أن أفعل هذا.»

لم يردَّ المديرُ على هذا العرض، لكنه ظلَّ يتكلَّم بالألمانية.

«سوف أنقلُك إلى الزنزانة رقم واحد، وهي ليسَت فقط أكثر راحةً، بل الماء فيها نقيٌّ أيضًا. هل قلتَ إنك تُجيد الإنجليزية؟»

«نعم، بالطلاقة نفسها التي أتكلَّم بها الروسية.»

أكمل المديرُ كلامه، ولكن بشيءٍ من التردُّد: «عند عودة السفينة البخارية سيكون هناك سجينٌ إنجليزي. سوف أُعطيه الزنزانة رقم اثنين، وإذا لم تتحدَّثا بصوتٍ عالٍ يجعل السجَّانَ يسمعكما، فربما يجعل هذا اليومَ أقل إملالًا.»

«هذا كرمٌ بالغٌ منك»، هكذا قال جاك، كابتًا أيَّ أثرٍ لعاطفةٍ أو اهتمامٍ عندما سمعَ الخبر، غير أنه قفزَ في الحال إلى استنتاجاتٍ مُحدَّدة. تابعَ قائلًا: «لن أطلب أكثر من هذا، لكنَّني أود أن أشير إلى الشموع وأعواد الثقاب والتبغ.»

«من المُحتمَل أن تجدَ الثلاثةَ جميعًا في الزنزانة رقم واحد قبل هذا الوقت غدًا»، ثم قال المدير بالرُّوسية للسجَّان:

«انظر إن كانت الزنزانة رقم واحد جاهزة.»

انصرفَ السجَّان، وفتحَ المديرُ دُرجًا في منضدتِه، وأخرجَ منه شمعتَين، وعلبة أعواد ثقاب، وعلبة سجائر.

وقال: «ضَعْ هذه الأشياء في جيبك. إنَّ باب الزنزانة يفتح ببطءٍ شديد؛ ولذا سوف تعرف دائمًا متى يجيء السجَّان. في هذه الحالة أطفِئ نورك وخبِّئ شمعتك. هكذا ستدُوم معك أطول.»

عاد السجَّان.

وقال: «الزنزانة جاهزةٌ يا حضرة المدير.»

أمره المديرُ بفظاظة: «خُذ السجين.»

الفصل الثامن عشر

الزنزانة رقم واحد

كانت الزنزانة رقم واحد أفضل كثيرًا من الزنزانة رقم تسعة. لم يكن ثمَّة رفٌّ صخري، ولا مقعدٌ صخري، وإنما كان بها سريرٌ نقَّالٌ في أحد الأركان، ومنضدة، وكرسي خشبي. كان جدول الماء يتدفَّق من الصخرة المنحوتة، في أحد أركان الغرفة. بعدما انصرفَ السجانُ ومساعدُه وأقحما المزاليج الخارجية في أماكنها أشعلَ جاك شَمعته ولفافةَ تبغٍ، وشعرَ بسعادةٍ نسبية. عاين المبنى الآن بعنايةٍ أكبر. كان السريرُ مصنوعًا من الحديد ومُثبَّتًا في الأرضية. ومِن فوقه تُوجد مرتبةٌ، ووسادةٌ، وبطانيتان. تُرِكَ عند رأس السرير رفٌّ صخريٌّ صغيرٌ في الركن، وكان فوق هذا الرفِّ حوضٌ من القصدير، بينما حلَّت قطعةٌ خشنةٌ من الخيش محلَّ المنشفة. خلعَ جاك مِعطفه وألقاه فوق السرير، وقصدَ إلى اغتسالٍ مُرضٍ. سمعَ جاك شيئًا ما يُجلجلُ في الجيوب، ولأنه نسيَ في تلك اللحظة ما عساه أن يكون هذا الشيء، أقحمَ يده في الجيوب، وأخرجَ زجاجةً ذاتَ سدادةٍ زجاجيةٍ مليئةً بالأوزاك. أمسكها جاك على امتداد ذراعه، وراحَ يحدِّق فيها بضعَ دقائقَ كالمنوَّمِ مغناطيسيًّا.

وصاحَ قائلًا: «يا للهول! كم هو مُدهشٌ أن أنسى هذه!»

ملأ جاك الحوضَ المصنوع من القصدير بالماء، ووضعه فوق المنضدة. من جديدٍ أذابَ جزءًا صغيرًا من المادة الكيميائية في الماء، ومن جديدٍ ملأ المحقنة.

قال جاك: «يجب ألَّا أترك على الجدار أيَّ علاماتٍ قد تَلفتُ الانتباه»، وأخذَ المحقنة المَملوءة إلى القنطرةِ القائمةِ فوق جدول الماء، ووضَعَ الشَّمعة على الأرض إلى جواره، ثم راحَ يَدفع المكبسَ برفق. اصطدم الرذاذُ بالصخر، وراحَ الصخر يذوبُ بصورةٍ طفيفةٍ لكن ظاهرة. عادَ جاك إلى المنضدةِ ووقفَ بضع دقائق غارقًا في تفكيرٍ عميق. مع أنَّ السريرَ النقَّال كان مُثبتًا في الأرضية، ومع أنه كان من المُمكن أن يكون الرفُّ الموجود في

الزنزانة التاليةِ واقعًا في مكانه نفسه، فقد كان خطر الاكتشاف أكبر من فتح مَمرٍّ بين الزنزانتين هناك. كان المكان المناسِب للشروع في العمل هو الجزء الداخلي من النفق الذي يَجري فيه ماء الجدول، لكن لمَّا اختبر جاك درجةَ حرارة الماء بيدِه، شكَّ في قدرةِ جسده على احتمال البقاء في هذا الماء البارد برودةَ الثلج أكثرَ من بضع دقائق كلَّ مرة، ولو عمل في النفق فسيغمره الماءُ تقريبًا. خشيَ جاك من احتمالية أن يهلك من البرد والتقلصات قبل أن يتمكَّن من إحداث أي أثرٍ في الصخرة.

سحبَ جاك المنضدة إلى حافة جدول الماء، وصعدَ عليها، وفحصَ الفتحةَ العليا التي كان الماء يُصرف منها عندما تَمتلئ الزنزانة. وجدَ أن باستطاعته الوقوفَ على المنضدة والعملَ بشكلٍ مُريحٍ إلى أن يتمكَّن من حفرِ ما يكفي من الصخر للسماح له بالتسلُّق داخل النفق العلوي؛ ومن ثمَّ الاستمرار في أداء أعماله. كان الماء الذي استخدمه سيَسيل عبر النفق، ويَنحدِر إلى جدول الماء الأساسي في الزنزانة المُجاوِرة. كان كلُّ ما يتوجَّب فعلُه هو أن يُذيب فتحةً شبهَ دائريةٍ في الصخر بحيث تَنعطِف بعيدًا عن طرَفِ تلك القُضبان الحديدية، وتَنفذ عبرَ النفقِ من جديدٍ إلى الجهةِ الأخرى. من لهفتِه على العمل أخذَ الحوض المملوء وأقحمَه بعيدًا داخل النفق إلى أن أوقفته القضبانُ الحديدية، ثم وضعَ شمعته إلى جواره، ووقفَ على المنضدة وبدأ في التنفيذ.

بدأ حجرُ الجير يذوب تحت تأثير الرذاذ ببطءٍ شديد، وعندما نفدَ حوضُ الماء، كانت محصِّلة النتيجة المرئية تحت ضوء الشمعة مجرَّد بصمةٍ دائريةٍ طفيفةٍ للغايةِ لا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة.

قال ليرمونتوف وقد اعترته خيبةُ أملٍ مُوجِعةٍ من نتيجةِ جهوده: «يَجب أن أجعل المحلول أقوى من هذا، على ما أظن.» وبينَما هو ينظر إليها سمعَ جلجلة انفتاح المزاليج. أطفأ ليرمونتوف الشمعةَ ووثبَ إلى أرضية الزنزانة، ورفعَ المنضدةَ ووضعها في مُنتصَف الغرفة، وتلمَّس طريقه إلى الكرسي وجلسَ عليه وقلبُه ينبضُ بسرعةٍ جنونيةٍ مَخافةَ أن يُكشف أمرُه.

كالمعتاد دخلَ الرجلُ الذي يَحمل المصباح في إثر السجَّان، الذي جاءَ هذه المرَّة وفي يدِه سُلطانيةُ حساءٍ ساخنٍ يَتصاعَد منه البخار، ووضعَها على المنضدة، ثم أخرجَ من جيبه ملعقةً، وكتلةً صغيرةً من الخبز الأسود، وقطعة جبن. على ضوء المصباح نظر ليرمونتوف في ساعته، ووجد أنها الساعة السادسة. أخذ السجَّانُ المصباحَ من مُساعدِه، ورفعه عاليًا، وراحَ ينظر في الغرفة، بينما حدَّق إليه ليرمونتوف في قلقٍ، مُتسائلًا إن كان

هذا المُوظَّف ذو الهيئة المتوحِّشة قد اشتبه في أيِّ شيء. من الواضح أنه لم يشتبه في شيء، لكنه كان يُريد فقط أن يُطمئن نفسه أنَّ كل شيءٍ كان في مكانه المضبوط، لأنَّه قال بنبرةٍ أكثر لُطفًا ممَّا كان مُعتادًا عليه قبل ذلك:

«لقد مضى زمنٌ طويلٌ على حبس أيِّ أحدٍ في هذه الزنزانة.»

بعد ذلك استقرت عينُه على الرفِّ الخالي الواقع في ركن الغرفة.

وواصل كلامه قائلًا: «يا إلهي، مَعذرةً يا سمو الأمير، لقد نسيت. يجب أن أُحضر لك حوضًا.»

قال ليرمونتوف من غير اكتراثٍ، رغم أن شفتَيه كانتا جافتَين، وراحَ يُرطِّبهما بلسانه وهو يتكلم: «أُفضِّل أن تُحضر لي شمعة»، ومن أجل أن يَعلم إن كان المال عديمَ القيمة في الصخرة بالفعل كما صرَّحَ بذلك المدير، أخرجَ من جيبه إحدى العملات الذهبية المُتبقية معه، شاعرًا بالسعادةِ؛ إذ تصادفَ أنه كان يَحمل العديدَ منها، ووضعه في راحةِ كفِّ السجَّان، فأطبقَ عليه بأصابعه بتلهفٍ وكأنه كان في سانت بطرسبرج.

«أظن أنه يُمكن تدبُّر أمر الشمعة يا سموَّ الأمير. هل أُحضِر لك كوبًا؟»

«أرجو ذلك.»

أُغلِقَ البابُ مرةً أخرى وأُدخلت المزاليج في أماكنها، وقبل أن يُنهيَ ليرمونتوف حساءَه وخبزه وجُبنه، فُتِحَ من جديد. وضع السجَّانُ حوضًا من القصدير، شبيهًا بالحوض السابق، فوق الرف، ووضعَ شمعةً وشمعدانًا على المنضدة، ووضعَ بجوارهما كوبًا مصنوعًا من القصدير.

قال الأمير في نفسه بعدما أُغلِقَ الباب مرةً أخرى وأخيرة سيظلُّ عليها طوال الليل: «لقد اعتقدتُ أنه ما من مكانٍ في روسيا انقرضَت فيه الرشوة.»

بعد العشاء لَمَّع ليرمونتوف منضدته من جديد، ووقفَ عليها، وأضاءَ شمعته، واستأنفَ عمله في شق النفق، وظلَّ يعمل باجتهادٍ إلى ما بعد مُنتصَف الليل. كان تقدُّمه بطيئًا بصورةٍ يُرثى لها، وثبَت أنَّ رش الصخر بالرذاذ كان مُهمةً من أكثر المهام التي باشَرَها إرهاقًا في حياته. لقد جعل المحلولَ الذي ملأ به الحوض في المرةِ الثانية أقوى قليلًا في تأثيره من سابقِه، لكن من دون تحسُّنٍ ملحوظ. عند الانتهاء من عمله لتلك الليلة وجدَ نفسه في وضعٍ غيرِ شائعٍ إلا بين القليل من السجناء، وهو الارتباك من الثروة الموجودة لديه. لقد كان يَملك حوضَيْن، وكان يجب إخفاءُ أحدهما. كان يستطيع بالطبع أن يترك حوضَ العمل في النفق العُلوي الذي كان موضوعًا فيه عندما أحضر السجَّانُ عشاءه، لكنه

أدركَ احتمالية أن تسقط أشعة المصباح في أيِّ لحظةٍ على سطحه اللامع، وتتسبَّب بذلك في تحقيقٍ في أمر النَّفق العلوي، مما كان من شأنه أن يُدمِّر خطته كلها نهائيًّا. وبعد بضع دقائق من التفكير توصَّل إلى حلٍّ بارع للمُشكلة؛ لقد وضعَ وجه الحوض بالأسفل في جدول الماء السريع الجريان والذي حمله معه إلى القضبان الحديدية بين الزنزانتَين، فقبع هناك مخفيًّا تمامًا وتيارُ الماء السريعُ يَترقرقُ فوقَه. بعدما انتهى من هذا خلعَ ملابسه، وخَلَدَ للنوم، ولم يستيقظ إلا عندما أحضر السجَّانُ ومساعدُه خبزًا وجُبنًا وقهوةً من أجل الإفطار.

في اليوم التالي بدأ يشعر بالإزعاج الذي تُسبِّبه صداقةُ المدير، وتمنَّى لو أنه يعود آمنًا إلى الوقت الذي كان فيه رغيفٌ واحدٌ يَكفي مدةَ أربعة أيام؛ إذ كان سيَستريح حينها من حالة التوتُّر المُستمر الذي تُسبِّبه زياراتُ السجَّان التي لا تَنقطِع. كان يخشى أن ينهمك جدًّا في عمله ذات يوم؛ فلا يسمع صوت المزاليج وهي تُسحَب؛ ومن ثمَّ يُضبط متلبسًا، إذا جاز التعبير.

بُعَيد تناول الغداء أرسل المديرُ في طلبه، وسأله عدةَ أسئلةٍ مُتعلِّقةٍ بتشغيل المُولِّد الكهربائي. أخفى ليرمونتوف نفادَ صبره، وبدأ يُلقي تعليماته بجديةٍ نموذجية. كانت الكتب الدِّراسية الرُّوسية المُتوفِّرة في مجال الكهرباء من النوع الأوَّليِّ للغاية، ولمْ يكن المدير يستطيع قراءة الألمانية رغم تمكُّنه من الحديث بها، ولذا كان المجلدان اللذان في حوزته والمكتوبان بهذه اللغة مُستغلقَين عليه. من أجل هذا كان جون مُضطرًّا للبدء بمبادئ ذلك العِلم.

غير أنَّ المدير تحمَّس للغاية، حتى إنه نسيَ حذره للحظةٍ، وفتحَ أحدَ الأبواب، واصطحبَ ليرمونتوف إلى غرفةٍ اكتشفَ ليرمونتوف أنها كانت مُستودَع الأسلحة والذخيرة الخاصة بالسجن. أشار المدير إلى بطاريةٍ كبيرةٍ قابلةٍ للشحن كانت على أرضية هذه الغرفة، وسألَ عن الغرض منها. شرحَ ليرمونتوف استخدامات البطارية، بينما كان يَفحصُها فحصًا شاملًا، ووجدَ أنَّ العديد من خلاياها قد أُتلِفَت تقريبًا خلال النقل؛ وذلك بسبب فساد تركيب شبكات التوصيل فيها. مع ذلك، كان نصف مراكم البطارية تقريبًا سليمًا وقابلًا للتشغيل؛ ففصلها ليرمونتوف وأحضرها إلى غرفة المُولِّد الكهربائي، حيث أوضحَ للمدير عملية الشحن. رأى ليرمونتوف في المستودَع صندوقًا يحتوي على مصابيح مُتوهِّجة، ولفَّاتٍ من سلكٍ مُغطًّى بالحرير ومواد أخرى جعلَت عينيه تتلألآن من البهجة. قال بالألمانية:

«لو أعطيتني لفَّةً من هذا السلك، ومصباحًا أو اثنين، ومِركمَ بطاريةٍ، أو بالأحرى ستة مراكمات، فلن أُزعجك بشأن الشموع بعد ذلك.»

لم يُجب المدير في تلك اللحظة، لكنه بعد قليلٍ سألَ ليرمونتوف بالروسية عن موعد إعادة شحنِ البطارية. عيَّن ليرمونتوف الوقتَ، وأمرَ المديرُ السجَّانَ بإحضار السجين من الزنزانة في ذاك الوقت، وبذلك أذن المديرُ لمعلِّمه بالانصراف.

من مزايا هذا اللقاء التي سعدَ بها ليرمونتوف أنه رغم شدةِ انهماك المُدير في هذه الدُّروس، لمْ يَسمح لنفسه قطُّ بالبقاء وحيدًا مع سَجينه. كان واضحًا أن المُدير في لحظات هُدوئه أمرَ السجَّانَ ومساعده أن يتبعا الأميرَ دائمًا وأن يكونا دائمًا في حالة تأهُّب. كان تحت حزام السجَّان مسدسان كبيران، وكان حامِلُ المصباح مُسلَّحًا بمِثلهما. كان ليرمونتوف سعيدًا بهذا؛ لأنه لو كان المديرُ منحه كاملَ ثقته، حتى على الرغم من أنه لم يَطلُب منه تعهدًا بعدم مُحاولة الهرب، لأبَتْ عليه طبيعته أنْ يُهاجم ذلك الزعيمَ بالقسوة التي يَنوي أن يُهاجمه بها عندما يحين الوقتُ لذلك، وعلى أيِّ حالٍ، فقد قال لنفسه إنه مهما بلغَ وُدُّ المديرِ فإنَّ من سوء حظِّه أن يحول بين سجينه وبين الحرية.

أُخرِجَ ليرمونتوف مرةً أخرى من زنزانته قبل حوالي نصف ساعةٍ من الوقت الذي عيَّنه لإتمام عملية الشحن، ومع أن المُدير لم يذكر شيئًا عن نيتِه، فقد أحضر السجَّانُ ومُساعدُه إلى الزنزانة ست بطارياتٍ مشحونةٍ، ولفةَ سلكٍ، واثنَي عشر مصباحًا. غيَّر ليرمونتوف عندئذٍ نظام عمله. كان يبدأ كل ليلةٍ حالَما ينتهي من تناول العشاء، ويعمل حتى مشارف الصباح، وينام طوال النهار إلا عندما يقاطع السجَّان نومَه. على غرار روبنسون كروزو، حاول جاك أن يسِمَ الوقتَ بعلاماتٍ، وذلك بإحداث ثَلمٍ بسكينه في قائمة المنضدة، لكنه كان ينسى في معظم الأيام أن يُنفِّذ هذه العَملية، وبهذا فشلَ تقويمه الخشبي تمامًا بسبب الفوضى. قدَّر أنه كان قد قضى في السجن أكثر من الأسبوع بقليل عندما علمَ من جلجلةِ المزاليج أنَّ الزنزانة المُجاورة كانت تستعد لاستقبال نزيلٍ جديد.

قال: «يجب أن أُجهِّز له ترحيبًا»، وأطفأ المصباح الكهربائي الموجود في نهاية السلك المرن الطويل. كان قد أعدَّ مفتاحًا صغيرًا أنيقًا للبطارية؛ ومِن ثمَّ كان يُضيء النور ويُطفئه مثلما يحلو له، دون الاضطرار إلى تجشُّم عناء فك الصواميل التي كانت تُثبِّتُ أحد أطراف السلك النحاسية في مكانها. توجَّه ليرمونتوف إلى حافة جدول الماء وأضاءَ شمعته، ثم وضعَ الجزء الزجاجي من المصباح الكهربائي في ماء الجدول، وأرخى السلك المرنَ المتَّصل به، وترَك الجزء الزجاجي من المصباح يتعرَّض لخطر التحطُّم في حال اصطدم بالقضبان الحديدية الموجودة داخل النَّفق، لكنَّ ذلك الجزء الزجاجي الكروي الصغيرَ تغلَّبَ على تيار الماء دون حتى أن يُصدِر جلجلةً ملحوظة، ورسا في قاع الماء في

مكانٍ ما قرب مُنتصَف الزنزانة التالية، وظلَّ هناك يتلوَّى كسمكةٍ في أَسرِ صنَّارة صيد. بعد ذلك رقا جاك على المنضدة، وانحنى داخل النَّفق العُلوي، وبدأ يُنصت.

صاحَ دروموند، بصوتٍ عالٍ، وكأنَّ جهارةَ الصوت كانت ستنقل المعنَى إلى آذان هؤلاء الأجانب: «أنا مُعترض. أنا معترض على هذا الاعتداء، وأطالب بحقي في التواصل مع السفير البريطاني.»

سمعَ جاك السجَّانَ يدمدم قائلًا: «سوف يَكفيك رغيف الخبز هذا أربعةَ أيام.» لكن بما أن هذه الكلمات قِيلَت بالروسية فلمْ يكن ما نقلَتْه من المعنى إلى عقل الرجل الإنجليزي بأكثر مما نقله اعتراضُه الذي أعلنه قبل دقيقةٍ، مِن فهمٍ إلى ذهن السجَّان. دوَّى صوتُ إغلاق الباب، ثم تلا ذلك صمتٌ مُطبِق.

قال جاك لنفسه: «والآن ربما نَسمع بعض الشتائم الإنجليزية القديمة الجيدة»، لكن الصمت استمر.

صاحَ جاك عَبْر القضبان: «مَرحبًا يا آلان. لقد قُلتُ لك إنك ستُعتقَل إن لمْ تُغادر سانت بطرسبرج. سوف تعيرني آذانًا مصغية في المرة المقبلة عندما أُحذرك.»

لم يُسمَع رد، وقلِقَ جاك من الصمتِ المُتواصِل، ثم سمعَ صديقه يقول مُغمغمًا:

«سوف تتراءى لعيني خيالاتٌ عمَّا قريب. كنتُ أحسَب عقلي أقوى ممَّا هو عليه في الواقع؛ كنتُ سأُقسِم أنَّ هذا صوتُ جاك.»

نزلَ جاك عن المنضدة بسُرعةٍ وهدوء، وأضاءَ المِفتاح، وقفزَ على المنضدة من جديد، وراحَ يُحدِّق من خلال القُضبان. كان يعلم أنَّ جدول الماء أصبح الآن نهرًا من النيران، وأنه كان يُرسل إلى السقف وَهَجًا لا هو من الأرض ولا من السماء.

قال دروموند مُتأوِّهًا: «يا إلهي! سُحقًا لكل هذا!» وهنا راحَ جاك يُقهقِه من الضحك.

صاحَ جاك: «آلان. اصطَد هذا المصباح الكهربائي من الرافد وأمسكه عاليًا؛ وستَعرف مكانك. أنا في الزنزانة المجاورة؛ جاك لامونت، كهربائيٌّ ونحَّاس، نهتمُّ بكل الطلبات في الحال، حاصلون على أفضل التزكيات من عملائنا، وبأسعار مُرضية.»

«جاك، هل هذا أنت حقًّا، أم أنني جُننت؟»

«يا للهول! إنك مجنونٌ طوال الوقت يا آلان، لكنَّني جاك حقًّا. التقِط المصباحَ وأخبرني بنوع الزنزانة التي حصلتَ عليها.»

صاحَ دروموند وهو يُعاين وضعه: «بشعة! من الواضح أن الجدران من الصخر الأصم، وجدول الماء الغريب هذا يتدفَّق عبر الأرض.»

«ما نوع الأثاث الذي حصلت عليه؟ رفٌّ صخري، ومقعدٌ صخري؟»

«لا، ثمَّة منضدةٌ، وسريرٌ نقَّال، وكرسيٌّ خشبي.»

«يا إلهي! علامَ تتذمَّر يا سيدي العزيز؟ لقد أعطَوك واحدةً من أفضل الغُرف في الفندق. إنك في قاعة النجوم.»

«أين نحن بحقِّ السماء؟»

«ألم تتعرَّف على الصخرة من على متن السفينة البخارية؟»

«لم أرَ قط متنَ أيِّ سفينة بخارية.»

«فكيف أتيتَ إلى هنا إذن؟»

«كنتُ أكتبُ رسالةً في غرفتي فألقى شخصٌ ما زكيبة على رأسي، وصرَّها عليَّ بإحكام، حتى كِدت أن أهلك من الاختناق. لقد أخذوني في شيءٍ أظن أنه كان عربة أجرة وأُلقيتُ فيما علمتُ بعد ذلك أنه كان عنبرَ إحدى البواخر. عندما توقفَت السفينةُ حُملتُ مثل زكيبة جَريشٍ على كتف شخصٍ ما، وحُلَّت قيودي أمام شبحٍ هزيلٍ يرتدي بذلةً نظامية، وكان ذلك في غرفةٍ تتألق تألقًا شديدًا بإضاءةٍ كهربائية لدرجةِ أنني كنتُ أرى بصعوبة بالغة. كان هذا منذ بضع دقائق، والآن أنا هنا، وأتضوَّر جوعًا. أين يقع هذا السجن؟»

«مثلما يفعل الميكادو، كما كانت كيت ستقول، تُصمِّم السلطاتُ على جعل العقاب ملائمًا للجريمة. أنت في صخرة بحر البلطيق، التي أطلقتَ عليها قذائفَ مدفعك. قلتُ لك إن هؤلاء الموظفين المهذَّبين في سانت بطرسبرج كانوا يتلاعبون بك.»

«لكن لماذا وضعوك هنا يا جاك؟»

«حسنًا، لقد كنتُ مثل الكلب الطيب «تراي»، الذي رافقَ صحبةً مُريبةً، على ما أظن، ومن ثمَّ وقعَ في المتاعب.»

«أنا آسف.»

«يجدر بك أن تَبتهج. أنا عازمٌ على الخروج من هذا المكان، ولا أعتقد أنك تستطيع أن تفرَّ من السجن، دون مساعدةٍ، ولو ظللتَ تُحاول عشرين سنة. هذا هو الموقف الذي يُجابه فيه اِلعلمُ الوحشيةَ. أقترحُ يا دروموند أن تُقرِّب منضدتك من ركن الغرفة، وأن تصعد عليها، حتى نستطيع أن نتكلم دون صراخ. لا يُحتمَل أن يسمعنا أيُّ شخصٍ بالخارج، حتى ولو أحدثنا صخبًا، لكن هذا مكانٌ رطب، والحديث بصوتٍ عالٍ يُؤذي الحلق. اقطع شريحةً من هذا الخبز البُني وتغدَّى معي. سوف تجده أفضل مما كنتَ تتوقَّع، كما تقولون في إنجلترا، لا سيَّما وأنت جائع. والآن ...» أكملَ جاك حديثه عندما

وقفَ صديقه في مقابله، ووجدا بعد تجربةٍ أن مَدَّ يديهما معًا لمْ يكن كافيًا لتمكينهما من مُصافحة أحدهما الآخر من خلال القضبان، وقال: «والآن، بينما تَستمتِع بالطعام الفاخر الذي تُقدِّمه تروجزموندوف، سوف أُعطيك وصفًا مُوجَزًا لخُطتي للهروب.»

قال دروموند: «تفضَّل.»

«يتصادَف أنَّ معي زجاجتَين تحتويان على مادةٍ إذا أُذيبَت في الماء ورُشَّت على هذا الصخر فإنَّها تحطِّمه. لقد اتَّضح أن مفعولَها بطيءٌ نوعًا ما، لا بد لي أن أعترف بهذا، لكنَّني أنوي أن أُعوِّم إليك إحدى الزجاجتَين، بالإضافة إلى الأدوات، بحيث تتمكَّن من مُساعدتي من جانبك، من فوائد هذه الخطة أنها ستُوفِّر لك عملًا مُفيدًا، وستَسمح لنا بإنجاز مُهمتنا في نصف الوقت، مثل المهندسين الذين يعملون على كلا جانبَي قناة «سيمبلون تانل».»

قال دروموند مُعترضًا: «إذا كان هناك قضبان في مجرى الماء السفلي، ألن تخاطر باحتمالية أن تنكسر زجاجتُك عند اصطدامها بها؟»

«نعم. لقد أرسلتُ لتوي هذا المصباح الكهربائي الأقل حجمًا عبر تلك القضبان، لكني سأكتفي في هذه الحالة بربط الزجاجة والمِحقنة في جوربي بإحكامٍ، وأربطُ الجورب في السلك، وسوف يتولَّى تيارُ الماء بقية المهمَّة. وحينها يُمكنك أن تُفرغ محتويات الجورب، وسوف أستعيده مرةً أخرى. لو جسرتُ على انتزاع إحدى قوائم المنضدة، لربما استطعتُ أن أُقحم الزجاجةَ والمِحقنة من هنا وأبعثهما إليك، لكن الأدوات ستَصل إلى طريقٍ مسدودٍ في مُنتصَف هذا النفق، إلا إذا كان معي عصًا لأدفعها بها كي تصل إلى متناول يدك.

حسنٌ، سوف نُواصِل العمل إلى أن يَتقابل حفرُنا ونَجعل قُطره كافيًا لعبورك من خلاله. عندها ستُصبح في زنزانتي. سنُطفِئ أنوارنا، وستَختبِئ أنت خلف الباب. سيَدخُل السجَّانُ وحاملُ المصباح. يجب أن تَحرص جدًّا على ألَّا يَنغلِق الباب؛ لأنَّك لو أغلقته فلن نتمكَّن من فتحِه من هذا الجانب، حتى ولو لم يُغلق بالمفتاح والمزاليج. إنه يُثبَّتُ في مكانه كالشمع، ويُحكَم إغلاق الغرفة تمامًا. بعد ذلك، تثِبُ إلى الأمام، وتُسدِّد إلى السجَّان بقبضة يدك واحدةً من ضرباتك الإنجليزية الصارعة المشهورة، وبعد ذلك مُباشرةً تُسقِط حامِل المصباح أرضًا. ولأنَّ لديَّ فكرة عن ثِقَل ضربتك، فإنني أعرفُ أنه لن يستعيد أيٌّ من الرجلين الوعيَ إلَّا بعدما نكون قد جردناهما من ثيابهما الخارجية وحصلنا على المسدسات والمفاتيح. عندئذٍ نحبسُهما في الداخل، ونُصبح أنا وأنت في الخارج.»

«عزيزي جاك، لسنا بحاجةٍ إلى أي نفقٍ لإنجاز هذه المهمة. في أول مرةٍ يدخل هذان الرجلان إلى غرفتي أستطيعُ أن أتغلَّب عليهما هنا بالسهولةِ نفسها التي أستطيع أن أتغلَّب عليهما بها هناك.»

«لقد فكَّرتُ في هذا، وربما تستطيع أن تَفعلها، لكن يجب عليك أن تتذكَّر أننا لا نَملِك إلَّا فرصةً واحدة. لو ارتكبتَ خطأً؛ لو هربَ حامِلُ المصباح وأطلق نار مسدَّسِه، وأغلقَ الباب، فلن يَحتاج إلى أن ينتظر كي يغلقه بالمفتاح، وسيُقضَى علينا. سوف أكون عاجزًا تمامًا في الغرفة المُجاورة، وبعد هذه المحاولة إمَّا أنهم سيغرقوننا، أو سيُبعدوننا أحدنا عن الآخر إلى أقصى حدٍّ ويضعوننا في أسوأ زنزانتَين هنا.»

قال دروموند بثقة: «لا أظن أنني سأخطئ التصويب، رغم هذا فأنا أفهم قصدك، وسأطيع الأوامر.»

«إنَّ وظيفتي الرسمية على الصخرة، منذ وصلتُ إليها، هي مُعلِّم كهرباء للمدير. لقد جعلتُ مُولِّد الكهرباء الخاص به يعمل، ووضعتُ الأسلاكَ في تلك الأجزاء التي لمْ يكن بها أسلاكٌ من قبل. أثناء هذه الدروس أبقيتُ عينيَّ مفتوحتَين. فيما يخصُّ السجن، يوجد لدينا المدير، وكاتِبٌ ذو رتبةٍ كبيرةٍ تقريبًا، والسجَّان ومُساعده؛ أربعة رجال، فقط لا غير. يبدو أن مساعد السجَّان هو طبَّاخ المكان، رغم أن ما يُطبخ بالفعل محدودٌ للغاية. الخبز الأسود يُؤتى به من سانت بطرسبرج، على ما أظن، وكذلك اللحم المُعلَّب والحساء؛ ولذا فأنواع الطعام محدودةٌ نوعًا ما.»

«هل تقصد أن تقول إن هؤلاء الرجال الأربعة فقط هم المسئولون عن السجن؟»

«عمليًّا نعم، لكن توجد الحاميةُ كذلك. الجنود يقيمون في مجموعةِ غرفٍ فوقنا مباشرةً، وفي تقديري يوجد أربعة عشر رجلًا وضابطان. عندما تصل إحدى السفن البخارية يُجنِّدون ما يلزم من الجنود لتفريغ السفينة؛ ثم يصعد هؤلاء الجنود إلى الدور العُلوي مرةً أخرى. من الواضح أن الشُّعبة العسكرية لا تتواصل كثيرًا مع الموظَّفين، الذين يَعدُّونهم سجَّانين. أعتقد أنَّ الضابط العسكري هو رئيس الصخرة؛ لأنه عندما وجد غرفة المدير مُضاءةً بالكهرباء، طالبَ بالمثلِ في مسكنه. هذا هو السبب الذي جعلني أصعد إلى الطابق العُلوي. والآن، هذه السلالم منحوتةٌ في الصخر، وهي لولبية، ومحمية بأبواب ثقيلة من السنديان في الأعلى والأسفل، ولهذه الأبوابِ مزاليج فولاذيةٌ في كلا الجانبين. ومن ثَمَّ فإن من الممكن لكلٍّ من السلطة العسكرية في الطابق العلوي، أو السلطة المدنية، أن تعزل نفسها عن الأخرى. إذا حدث تمردٌ بين الجنود، فسيستطيع المدير أن يغلق عليهم باب

عليَّتهم بالمزاليج، وسيواجهون صعوبةً كبيرةً في الخروج. والآن سأُخبرك بخطتي. سنجرِّد السجَّانَ والمساعد من أسلحتهما، ونأخذ مفاتيحهما وثيابهما الخارجية وقبعتَيهما. سوف تناسبك ثيابُ السجَّان، وربما تناسبني ثيابُ الرجل الآخر. ثم سنَحبسُهما هنا، وإن قابَلْنا الكاتِبَ أو المديرَ في الممرات فسيكون لدينا الوقتُ للتغلُّب على أحدهما أو كليهما قبل أن يَفطنا إلى التغيير. سوف أصعد على السلالم اللولبية، وأُغلِقُ الباب العُلوي من الداخل بالمزلاج، ثم أغلق الباب السُّفلي. بعد ذلك نفتح جميع الزنازين، ونُحرِّر المساجين الآخرين، وننزل من الصخرة، ونركب قارب الصيد الفنلندي، ونبتعد عن المدفعين الموجودين فوقنا، ونُبحِر في اتجاه الساحل السويدي. يجب ألَّا نخطئ؛ علينا فقط أن نبحر باتجاه الغرب، وأخيرًا سنُصبح في أمان. ثمة خطرٌ واحدٌ فقط، وهو أننا ربما نُقدِم على محاولتنا عندما تكون السفينة البخارية هنا، لكن علينا أن نخاطر بذلك.»

«أما مِن طريقةٍ لمعرفة هذا؟ ألا يمكنك أن تنتزع هذه المعلومة من المدير؟»

«إنه يأخذ حِذْره دائمًا، وهو رجلٌ قليلُ الكلام. حالما ننتهي من النفق سوف أسأله عن المزيد من الأدوات الكهربائية، وربما أستطيع حينها أن أحصلَ على تلميح عن الباخرة. أتصوَّر أنها تأتي في مواعيدَ غيرِ مُنتظِمة، ولذا فإن الطريقة الآمنة الوحيدة ستكون في أن نُقدِم على محاولتنا بعدما ترحل هي مباشرةً.»

«هل ثمة أيُّ احتمالٍ أن نُقابل بعضَ الجنود في الطابق السفلي؟»

«لا أظن ذلك. أَمَا وقد أصبحت لديهم إضاءتهم الكهربائية فإنهم يقضون وقتهم في لعبة الورق وشُرب الفودكا.»

«حسنٌ يا جاك، تبدو هذه الخطةُ عَمليةً بشكلٍ معقول. والآن، مرِّر لي أدواتك، وأصدِر تعليماتك.»

الفصل التاسع عشر

الجدران الصخرية لا تصنع سِجنًا

في مدةٍ وجيزةٍ للغاية أصبحَ لدى دروموند من الخبرة في إذابة الصخر مثل ما كان لدى صديقه. لقد كان يصفه بأنه عملٌ بطيءٌ إلى درجة العَبَث، لكنه مع ذلك كان مُجِدًّا فيه إلى أبعد حَدٍّ، رغم أنه قد مرت أيامٌ، وأسابيعُ، وشهور أيضًا مثلما ظنَّ الصديقان، قبل أن تتلاقى يداهما في منتصف الصخرة. من التفاصيل السعيدة التي سهَّلت عليهما مهمتهما أنَّ السجَّان لمْ يكن يزور دروموند إلَّا مرةً واحدةً كلَّ أربعةِ أيام.

نجحَ المُلازمُ في شق طريقه الصعب، وذلك بإقحام جسمه عبر النفق الذي اكتملَ حفرُهُ مؤخرًا بعد مرور نصف ساعةٍ على وضع السجَّانِ رغيفَ خبزٍ على منضدته. عَلِمَ جاك أنَّ السفينة البخارية رحلَت منذ عهدٍ قريب؛ لأنَّ المدير كان قد أرسلَ في طلبه قبل يومَين، وعرضَ عليه كميةً من الأدوات القادمة حديثًا، كان من بينها عددٌ من الأجراس الكهربائية والتليفونات التي كان المدير يعتزم أن يجهِّزها لكي تعمل بينه وبين الآخرين، وكذلك بين غرفته وغرفتَي الكاتِب والسجَّان. كان هناك بطارياتٌ جافة، وبطارياتٌ أولية، والكثير من الأشياء الأخرى، مما جعلَ جاك يكاد يأسف على أنه سيُغادر المكان.

سُمِعَ على طول الممرِّ الخارجي وقعُ خُطًا ثقيلةٍ يكتمها سُمكُ الباب.

همسَ جاك قائلًا: «جاهز؟ ها هما ذان قادمان. تذكَّر، لو أخفقتَ في ضربتك الأولى فسنهلك أنا وأنت.»

لم يُجب دروموند؛ لأن الخُطوات اقتربَت بصورةٍ مخيفةٍ وخَشِيَ أن يُسمَع صوتُه. بهدوءٍ عبرَ الزنزانةَ وأخذَ مكانه ملتصقًا بالجدار وراء المساحة التي سيغطيها البابُ عندما يُفتَح.

في اللحظة نفسها أطفأ جاك الإضاءة، وتركَ الغرفةَ مُظلمة. كان كلُّ واحدٍ من السجينَين المنتظرين يستطيع أن يسمع الأنفاسَ القصيرة التي يُصدِرها الآخرُ في الظلام.

واصلَت الخطواتُ الثقيلةُ للسجَّانِ وحامِل المصباح تقدُّمَها. لقد وصلا إلى باب الزنزانة رقم واحد، ثم توقَّفا، ثم تجاوَزاها وتوقَّفا أمام الزنزانة رقم اثنين.

همسَ جاك في ذُعر: «زنزانتك! ولم يكن من المتوقَّع أن يزوراك لمدة أربعة أيام. سوف ينتهي كلُّ شيء! سوف يَكتشفان أن الزنزانة فارغةٌ وسوف ... إلى أين تذهب أيها الرجل؟» وتوقَّفَ فجأةً؛ لأنَّ دروموند غادر مكانه قُربَ الباب، وراحَ يتلمَّس طريقه بسرعةٍ على امتداد الجدار.

«سأعودُ إلى مكاني وأُقاتلهما. هذا أفضل من ...»

«انتظر!»

وقعَت يَدُ لامونت على كتفه، وهمسَ بأمرٍ قاطعٍ كي يُسكته. لقد توقَّفَ المرافقان أمام الزنزانة رقم اثنين، وبينما راحَ حامِلُ المصباح يتحسَّس المزلاج المُربِك، قال رفيقه:

«انتظر! أظن أنني سأجلِب للآخر طعامه أولًا رغم كل شيء.»

اعترضَ حامِلُ المصباح قائلًا: «لكنَّ المدير أمرنا بإحضار الرجل الإنجليزي إليه في الحال.»

«وماذا لو كان قال ذلك؟ كيف سيَعرف أننا اختلسنا نصفَ دقيقةٍ لإعطاء الأمير غداءه؟ لو أخذنا الرجل الإنجليزي إلى الطابَق العلوي أولًا، فربما يتعيَّن على الأمير أن ينتظر ساعةً قبل أن نتمكَّن من العودة بالرجل الإنجليزي مرة أخرى.»

«فليَنتظر إذن.»

«وجَيبُه مليءٌ بالروبيلات؟ كلا، لن أفعل ذلك. ربما يُقرِّر ألا يعطي المزيد من قِطَعه الذهبية بعد الآن لسجَّانٍ يتركه جائعًا كل هذه المدة.»

«لقد فتحتُ المزلاجَ الآن و...»

«أغلِقه مرةً أخرى إذن وعُد معي إلى الزنزانة رقم واحد.»

رغم أن الكلمات كانت خافتةً؛ إذ أضعفتها الجدرانُ الفاصلة، فقد وصلَ معناها إلى جاك.

همسَ قائلًا: «عُد إلى مكانك. إنهما قادمان!»

أعقبَت كلماتِه مباشرةً جلجلةُ المزاليج. أُديرَ البابُ الكبيرُ للزنزانة رقم واحد بتثاقلٍ إلى الداخل. دخلَ حامِلُ المصباح رافعًا ضوءَه عاليًا أمامه، ثم تنَّحى جانبًا ليَسمح للسجَّان بالدخول، فدخلَ وراءه مباشرةً وصينيةُ الطعام على يديه الممدودتَين.

من سوءِ حظ خُطةِ الأَسيرَيْن أنَّ حامِل المصباح قد وقفَ في جانب الزنزانة المقابل للمكان الذي جثَمَ فيه آلان. لم يكن من الممكن الوصول إليه بوثبة. كان البابُ المفتوح يحول بينهما. إذا هُوجِم السجَّانُ أولًا فسيستطيع رفيقُه بسهولةٍ أن يخرج من الزنزانة ويقطع نصفَ الطريق عبر الممر قبل أن يطمع آلان في الوصول إليه.

كان الصديقان يعتمدان على أن يدخل الرجلان معًا إلى الغرفة ويَعبُراها كالمعتاد وصولًا إلى المنضدة. أما هذا التغييرُ في الخُطة فقد أَربكهما. وضعَ السجَّانُ صينيتَه على المنضدة بالفعل وكان يستدير كي يواجه الباب. وقفَ آلان في الظل عاجزًا قليلَ الحيلة، وراحَ يَقضم شارِبَه الأشقرَ في غيظٍ يائس. بعد لحظةٍ أخرى ربما تختفي فرصتُهما الغالية. وبما أنَّ زيارة السجَّان التالية ستكون إلى الزنزانة رقم اثنين، فقد تجسَّد خوفُ انكشاف أمرهما أمام أعينهما وراحَ يُحدِّق فيها.

كان جاك هو مَن كسر فترة التبلُّد الوجيزة. وكان يقفُ حينها عند الطرف البعيد من الزنزانة، قريبًا من جدول الماء.

نادى جاك حامِلَ المصباح فجأةً: «من فضلك! أحضِر مصباحك هنا. لقد تعطَّلَ نظامُ أدواتي الكهربائية، وقد أضعت أعواد الثقاب الخاصة بي. أريد أن أُصلح ...»

تقدَّم حامِلُ المصباح، طائعًا، إلى داخل الغرفة. كان قد أصبح في وسطها بينما لامونت لا يزال يتكلم. عندئذٍ، لمح بطرف عينه آلان وهو جاثم في الزاوية خلف الباب؛ إذ أصبح مكشوفًا بالكامل حينها تحت أشعة المصباح.

اندفعَ الرجل مذعورًا فورَ أن وثبَ آلان. وبهذا طارَت قبضةُ الرجل الإنجليزي الضخمةُ بجوار رأسه، وأخطأتها بمقدار بوصةٍ كاملة.

تعافى السجَّانُ من ذهوله واستلَّ أحد المسدَّسَين الموجودين في حزامه. غير أنَّ جاك قفزَ إلى الأمام وأسقطه من يده قبل أن يتمكَّن من إطلاق النار، وصفعَ شفتَي الرجل المُلتحي بإحدى يديه، بينما لفَّ ذراعه الأخرى حول ذلك الجسم القوي البِنية كي يمنعه في الحال من استلال المسدس الثاني.

لقد أخطأت ضربةُ آلان الأولى هدفها تمامًا، لكنَّ الثانية لم تُخطئ. أتبعَ ضربةَ يدِه اليمنى بأقصى ما يمكن أن يمتلكه ملاكمٌ مُدرَّبٌ من براعةٍ وخِفةٍ، وسدَّد باليد اليُسرى ضربةً مباشِرةً إلى زاوية فَكِّ حامِل المصباح. أسقطَ الرجلُ مصباحَه وتكوَّم على الأرض مَغشيًّا عليه، بينما اندفعَ آلان نحو السجَّان في الحال.

انطفأ الضوءُ بسقوطِ المصباحِ. ومرةً أخرى غرقت الزنزانة في ظلام كثيف تخلَّله صوتُ لهاث الأمير والسجَّان وعراكهما.

لم تَنقضِ سوى ثانية منذ أمسكَ جاك الرجلَ في المرة الأولى، لكن هذه الثانية كانت كافيةً كي يستجمعَ الأخير قوَّته الوحشية الكبيرة، ويتخلَّص من خَصمه الأقل منه ضخامةً، ويستلَّ مسدسه.

قال جاك لاهثًا: «أسرِع يا آلان! لقد أفلتَ مني. سوف ...»

مسترشِدًا بصوتِ صاحبه، اندفعَ دروموند إلى الأمام بسرعةٍ في الظلمة، فعلقَت قَدمُه بجسم حامِل المصباح الممدَّد على الأرض وسقطَ بقوة، لكنه سقطَ على ذراعيه اللتَين امتدَّتا في حركةٍ غريزيةٍ من حركات حفظ الذات. في اللحظة نفسها التي فقدَ فيها توازنه سمعَ صوتَ طقطقة حادةٍ أمامه مباشرةً. لقد سحبَ السجَّانُ زناد المسدس، لكنَّ مسدسه، الذي كان مصنوعًا بالتعاقد ومعيبًا، مثل العديد من الأسلحة التي يَحملها الجنود العاديُّون في المواقع الحدودية الروسية، لمْ يطلق النار.

إلى تلك المصيبة المفيدة للغاية، وهي عجزُ إحدى الخراطيش الفاسدة عن الانفجار، كان الصديقان يَدينان بسلامتهما المؤقتة.

انزلقَ آلان إلى الأمام واصطدمَت إحدى ذراعَيه الممدودتَين في عقبةٍ ما. كانت جسمًا بشريًّا، ومن خلال ملمس الأشرطة الجلدية، التي لمستها أصابعُه عند الاصطدام، علمَ أنه كان السجَّانَ وليس لامونت.

تذكَّر آلان تكتيكات كرة القدم القديمة، فتشبَّث بالرَّجل الذي وقعَت ذراعه عليه مصادفة، ودفعه على الأرض؛ فأُسقِطَ جاك الذي كان قد تحرَّك إلى الأمام في الظلام، بإسقاط الرجل الآخر.

وهكذا راحَ السجَّانُ والأمير والرجل الإنجليزي يتشاجرون على الأرضية الحجرية في كومةٍ غير متمايزة الملامح. لم يكن قتالًا عاديًّا لاثنين ضد واحد؛ لأنَّ كلا السجينَين لمْ يستطِع أن يُميِّز بين السجَّان وصديقِه. أما السجَّان فلم ينزعج بمثل تلك الشكوك، وراحَ يُقاتل بضراوة، ولم يمنعه من الصياح سوى أنَّ قبَّعته الثقيلة المصنوعة من الفراء انزلقت في أثناء سقوطه وغطَّت وجهه وذقنه ولم يستطِع في تلك اللحظة أن ينزعها.

مدَّ السجَّانُ يَده واستلَّ الحربة التي كانت معلَّقة في جنبه (إذ ضاعَ مسدسه الثاني في خضمِّ المشاجرة)، وراحَ يطعن بها بتهور. وبعد مرة أو مرتَين اصطدمَ النصل بشيءٍ ما ثم انغرسَ في جسد أحدهما.

قال آلان لاهِثًا: «جاك، هذا الحقيرُ يطعنُ بسلاحه. حرِّر نفسك واعثر على المصباح الكهربائي.»

بينما كان آلان يتكلَّم وقعَت يدُه على حَلْقِ السجَّان. لقد عَلِمَ أنها لم تكن رقبة جاك من اللحية الخشنة التي كانت تُغطِّيها. جُنَّ جنون السجَّان من الضغط الواقع على رقبته، وراحَ يطعن بحنقٍ بالغ؛ لكنَّ معظم ضرباته، لحُسن الحظ، ضاعَت في قلب الظلام.

مدَّ آلان يده الأخرى وعثر على الذراع التي كانت تمسك بالحربة، وللحظةٍ تصارع الاثنان باستماتةٍ من أجل الاستحواذ عليها.

بعد ذلك سُمِعَ صوتُ طقطقة مفتاحٍ ما، وغمرَ الغرفةَ ضوءٌ ساطع، وذلك في اللحظة نفسها التي أرخى فيها آلان قبضته عن حَلْقِ الرجل الروسي، وسدَّد له ضربةً في الذقن بكل قوةِ عضلاته المُدرَّبة. تراخت أطرافُ السجَّان المشدودة واستلقى مُمددًا على الأرض، بينما قاوم آلان، رغم نزيفه وإعيائه، ووقفَ على قدمَيه.

قال آلان لاهثًا: «معركةٌ ضارية، أليس كذلك؟ كان من الصعب توجيه ضربةٍ حاسمةٍ من هذا المكان. بالرغم من ذلك، فقد أمسكتُ به كما ينبغي. أعتقد أنه لن يُزعجنا لبضع دقائق. إنك تنزف! هل جرَحَك؟»

«جرحٌ طفيفٌ فقط على خدِّي. وأنت؟»

«جرحٌ في الرُّسغ وآخر في الكتف، على ما أظن. كلاهما ليس خطيرًا، بفضل انعدام التصويب في الظلام. لقد نجونا بأعجوبة! والآن لنَشُدَّ وثاقهما. لم يتحرَّك أحدٌ منهما بعد.»

«لا بد أنك كنت على وشك قتلهما بضرباتك الشبيهة بضربات المرزبة تلك!»

قال الملاكم الرابط الجأش: «هذا لا يهمُّ كثيرًا. سوف يكونان بخيرٍ بعد نصف ساعة. الأمر كله يعتمد على معرفة المكان الذي تسدَّد فيه الضربة. إذا لم يكن في الطابق السفلي إلا أربعة رجال، فلا حاجة لنا في ارتداء ثياب هذَين الحقيرين. فلنَأخُذ مجموعة المفاتيح والمسدَّسات فحسب.»

بعد أن حصل الاثنان على هذه الأشياء خرجا إلى الممر، وأوصدا الباب بالمزاليج، ثم تقدَّم جاك الذي كان يعلم طريقه، على طول الممر وتوجَّه إلى الدَّرَج، وصعدَ السلالم بسُرعة ورشاقةٍ، وأوصدَ الباب المؤدِّي إلى مسكن الجنود بالمزاليج، ثم نزلَ وأوصدَ البابَ السُّفلي.

«والآن لنتوجَّه إلى الكاتِب، ثم إلى المدير.»

كانت غرفة الكاتِب متَّصلةً بمُستودَع الأسلحة، الذي كان الطريقُ إليه من خلال عبور الغرفة التي تحتوي على المحرِّك التوربيني ومولِّد الكهرباء الذي وجداه يُخرخِر بمرح.

صوَّبَ الاثنان أربعة مُسدَّساتٍ إلى الكاتِب الذي انتابه الذعر، وقال له جاك بالروسية إنه لو أحدث صوتًا فسيكون آخِرَ صوتٍ له في الدنيا. بعد ذلك أخذه الرجلان، وفتحا الزنزانة رقم ثلاثة التي كانت فارغةً، وزجَّا به داخلها.

دخل الاثنان غرفة المدير وهما يُصلصلان بالمفاتيح. رفعَ الرجل العتيق بصره إليهما، دون أن تختلج عضلةٌ واحدة في وجهه؛ حتى عيناه الخاليتان من التعبير لمْ تُظهرا أثرًا لعاطفةٍ أو مفاجأة.

قال جاك باحترام: «أيها المدير، رغم أنكَ تحت فوَّهات أربعة مسدَّساتٍ، فنحن لا ننوي أن نصيبك بأذًى. ومع ذلك، يجب عليك ألَّا تُغادر مكانك حتى تنزل معنا إلى القارب، وحينها سأعطيك المفاتيح، وفي الزنزانة رقم واحد سوف تجد السجَّانَ وحاملَ المصباح وربما يكونان جريحَين، لكني أرجو أنهما لا يزالان بخير. في الزنزانة رقم ثلاثة ستجد كاتِبك في انتظارك. أنا ذاهبٌ الآن لتحرير سجنائك. كلُّ الاتصالات بينك وبين العسكريِّين ممنوعة. سوف أترك صديقي ليَحرسك حتى أعود من الزنازين. عليك ألَّا تُحاول استدعاء المساعدة، أو الصراخ، أو التحرُّك من مقعدِك. صديقي لا يفهم الروسية ولا الألمانية؛ ولذا لا فائدة من الاستغاثة به في أيِّ شيء، ورغم ما أُكن لك من محبَّةٍ على المُستوى الشخصي، ورغم إعجابي باجتهادك في تعلُّم العلوم، فإنَّ وضعنا يائسٌ للغاية، بحيث إنك لو تحرَّكتَ أيَّ حركةٍ فسيُضطرُّ إلى قتلك بالمسدَّس.»

أحنى المديرُ رأسه.

وسأل: «هل لي أنْ أُكمِل ما كنتُ أكتبه؟»

ضحكَ جاك بود.

وقال: «بالتأكيد»، ثم انصرفَ إلى الزنازين، وراحَ يفتحها واحدةً تلو الأخرى، لا لشيءٍ إلا ليجدها فارغةً كلها.

بعدما عادَ قال للمدير:

«لماذا لمْ تَقُل لي إننا كنا سجينَيك الوحيدَين؟»

أجابَ المديرُ بلطف: «خشيتُ ألَّا تصدقني.»

قال جاك، وهو يمدُّ يده، والتي صافحها الآخرُ بشيءٍ من عدم الاكتراث: «رغم كل شيءٍ، لا أعلم إن كان يجدر بي أن أصدِّقك.»

قال المدير ببطء: «أودُّ أن أشكرك على كلِّ ما علَّمتني إياه عن الكهرباء. أتوقَّع أن أُوظِّف هذه المعرفةَ في العديد من الأغراض النافعة في المستقبل. ثم إنَّ ممارستها ستجعل الوقت يمضي أسرع مما كان قبل مجيئك.»

صاحَ جاك مُتحمِّسًا: «يا إلهي! هذا جيدٌ. تأكَّد أن ما تمكَّنتُ من تعليمك إياه كان عن رضًا وسرورٍ خالصَين منِّي، وما كان لأيِّ مُعلِّمٍ أن يطمع في وجود تلميذٍ أكثر ذكاءً منك.»

«يسعدني أن أسمعَ منك هذه الكلمات يا سمو الأمير، رغم أنه يُؤسفني أنني كنتُ مُهملًا في مهامي، وربما تكون المعرفة التي جنيتَها أنتَ عن هذا المكان بسبب إهمالي قد ساعدَتْك في التمكُّن من هروبٍ لمْ أظن أنه كان ممكنًا.»

ضحكَ جاك بلطفٍ.

وقال: «كلُّ الأمور مشروعةٌ في الحب والحرب. والسجنُ قطعةٌ من الحرب. يجب أن أعترف أنَّ الكهرباء قدَّمَت لنا مساعدةً فعَّالة. بالرغم من ذلك، ينبغي ألا تلوم نفسك أيها المدير، لأنك دائمًا ما كنتَ تتخذ كامل حَذرك، وكان السجَّانُ يتبعني على الدوام. لا يُمكنك أبدًا أن تتظاهر بأنك وثقتَ بي، أليس كذلك؟»

قال الرجل العجوز بحزن: «كنتُ أحاول أن أؤدِّي مُهمتي. وإذا كانت الكهرباء قد ساعدتْك، فلم يكن هذا بإقرارٍ منِّي. مع ذلك، ثمَّة أمرٌ بخصوص الكهرباء كنتَ قد أقررتَه في ذهني، وهو أنه برغم سرعة مرورها، فثمةَ دائمًا تيارٌ عائد.»

«ماذا تقصد بهذا أيها المدير؟»

«أليس الأمر كذلك؟ إنها تَسري داخل سلكٍ ما، وتعود من خلال الأرض. أعتقد أنك أخبرتني بهذا.»

«بلى، لكنَّني لا أفهم تمامًا لماذا تذكر هذه السمة تحديدًا من سمات الكهرباء في هذا الوقت بالذات.»

«أردتُ أن أتأكَّد من صحة المعلومة التي قلتُها. فما من أحدٍ أستطيع أن أسأله بعد أن تذهب كما تعلم.»

طوال هذا الوقت كان المديرُ العجوزُ مُمسكًا بيد جاك في شيءٍ من اللِّين. ظهرت على دروموند علاماتُ نفاد الصبر.

صاحَ دروموند أخيرًا: «جاك، ربما تكون هذه المحادثةُ شائقةً للغاية، لكنها تُشبه التدخين فوق مَنجم بارود. لا يَعلم المرءُ مطلقًا ما قد يحدث. لن أشعر بالأمان إلا بعدما

نخرج من هنا تمامًا ونصبح في البحر، ولا حتى عندما يحدث ذلك. أَكمِل وداعَك بأسرعِ ما يمكن، وهيا لننصرف.»

«أنت مُحقٌّ يا آلان يا صديقي. حسنٌ أيها المدير، أنا مُضطرٌّ رغمًا عني لتوديعك الوداع الأخير، لكنني أتمنى لك حظًّا سعيدًا.»

بدا الرجلُ العجوزُ غيرَ راغبٍ في التخلي عنه، وظلَّ متشبثًا بيده.

وقال: «كنتُ أرغب في أن أحدثك عن واقعةٍ أخرى، تكاد تقترب في إثارتها للدهشةِ من دخولك إلى هذه الغرفة منذ قليل، حدثَت هذه الواقعةُ منذ ستة أو ثمانية أشهرٍ مضت. لعلك تعلم أننا نحتفظ بقارب صيدٍ فنلنديٍّ في الخليج الصغير بالأسفل.»

قال جاك بنفاد صبرٍ وهو يسحب يده من يد المدير: «نعم، نعم.»

«حسنٌ، منذ ستة أشهر مضت أو ثمانية، اختفى هذا القارب، ولم نعلم عنه شيئًا قطُّ منذ ذلك الحين. لمْ نفقد أيًّا من سجنائنا ولمْ نفقد أحدًا من الحامية؛ وكان مُساعِديَّ الثلاثة لا يزالون هنا، ومع ذلك سُرِقَ القارب في المساء.»

«حقًّا. يا له من أمرٍ مثيرٍ للاهتمام! ولم تكتشفُوا السرَّ مطلقًا، أليس كذلك؟»

«بلى، لكنني اتخذتُ احتياطاتي، وعندما حصلنا على القارب الثاني جعلتُ حراستَه أفضل من سابقه، ولذا عيَّنتُ رجلَين لحراستِه ليلًا ونهارًا.»

«هل رجُلاك مسلَّحان أيها المدير؟»

«نعم.»

«إذن ينبغي لهما أن يستسلما وإلَّا فسنضطرُّ لإطلاق النار عليهما. انزل معنا، وانصحهما بالاستسلام بهدوء، وإلَّا فإننا نستطيع، من مَكمنٍ آمنٍ على الدَّرَج، أن نصيبهما عن كثبٍ وهما في قاربٍ مكشوف.»

قال المدير: «سوف أنزل معكما وأفعل ما بوسعي.»

«سوف يُطيعانكَ بالطبع.»

«نعم، سوف يُطيعانني إذا سمعاني. كنتُ سأقول أيضًا إنَّني بالأمس فقط أعددتُ الجرس الكهربائي للعمل بالأسفل عند المرفأ، ووجهتُ تعليماتٍ لهذَين الرجلَين بأخذ برقيةٍ، كنتُ قد كتبتُها مُسبقًا، في حالة الطوارئ، إلى البر الرئيسي، في أيِّ لحظةٍ من الليل أو النهار، عندما يُدقُّ هذا الجرس. سموَّ الأمير، لقد دقَّ الجرسُ منذ أكثر من نصف ساعة. غير أنه لمْ يُسمَح لي بالخروج لرؤية النتيجة.»

وضع العجوزُ الرزينُ يدَه على كتف الأمير، وكأنه كاهنٌ يمنحه البركة. فُوجِئَ دروموند الذي لم يفهم اللغة الأجنبية، عندما رأى جاك يتخلَّص من قبضة المدير، ويتلفَّظ بشيءٍ خمَّن دروموند أنه سِبابٌ شديدٌ بالروسية، ويثبُ على الباب ويفتحه. لقد رقا فوق المقعد الصخري الذي مكَّنه من رؤية البحر. كان ثمةَ قاربٌ، بشراعَين منشورين، يُسرع باتجاه الجنوب الغربي، عبْرَ الريح الغربية العاتية، وكان على بُعد ميلَين أو أكثر منهم.

«لقد تقطَّعَت بنا السبيلُ، وحَقِّ الرب!» هكذا صاحَ الأمير، وراحَ يدور حوله ويُصوِّب مسدسه إلى رأس المدير الذي وقفَ هناك مثل تمثالٍ للكآبة، دون أن تظهر عليه أيُّ علامة تدلُّ على أي شيء.

الفصل العشرون

وصول اليخت ذي المحرك التوربيني

قبل أن يتمكَّن جاك من إطلاق النار، مثلما كان ينوي أن يفعل، ضربَ دروموند ذراعَه وأنزلها إلى الأسفل.

قال دروموند: «لا شيءَ من هذا يا جاك. من الواضح أنَّ الروسي الذي بداخلك قد اختفى، وبرز التتري إلى الأعلى. لقد أرسلَ المديرُ إشارةً، على ما أعتقد، أليس كذلك؟»

«بلى، لقد فعل، وقد ذهبَ هذان الاثنان بينما وقفتُ أنا أُثرثر هنا، شاعِرًا بالتعاطف مع الوغد العجوز. أهذا هو تيارُه العائد إذن؟»

قال دروموند: «لا لومَ عليه في هذا، إنها غلطتنا نحن بالكامل. كان أولُ ما يجب علينا فعلُه أن نحصل على هذا القارب.»

قال جاك مُتأوهًا: «وقد سار كلُّ شيءٍ على خيرِ ما يُرام، حتى هذه المرحلة، وخطأٌ واحدٌ يُفسد الخطة. لقد هلكنا يا آلان.»

قال الرجل الإنجليزي بهدوء: «ليست الأمور بهذا السوء يا جاك. إذا وصلَ هذان الرجلان إلى الساحل بأمانٍ، كما سيكون عليه الحالُ من دون شك، فربما يتسبَّب ذلك في بعض المتاعب لروسيا تحملهم على إخراجنا.»

صاحَ جاك: «يا إلهي! اللعنة على كل هذا! إنهم ليسوا في حاجةٍ إلى إخراجنا. كلُّ ما يَلزمُهم فعلُه هو أن يُبحرُوا بعيدًا عن الشاطئ ويتركونا لنموت جوعًا. ليسُوا مضطرِّين لإطلاق نار بندقيةٍ أو إنزال أي رجلٍ إلينا.»

«سيكون عليهم أن يُميتوا رجالهم من الجوع أولًا. ليس من المُحتمَل أن نجوع نحن ونُطعم أسرانا.»

«يا إلهي! نحن الروسيِّين لا نَكترِث لشيءٍ تافهٍ مثل هذا. ربما يُرسلُون مساعدةً، أو ربما لا يفعلون. من المُحتمَل أن تأتيَ طرَّادةٌ وتقف على مسافةٍ قريبةٍ وتُحاول أن تكتشف المشكلة. عندئذٍ سوف تبقى بعيدةً عنَّا بعضَ الشيء وتنتظر حتى يموتَ الجميع، وبعد ذلك تختار مُديرًا جديدًا وحاميةً أخرى.»

«إنَّ نظرتك تشاؤميةٌ جدًّا يا جاك. لا تَستطيع الطرَّادة في هذا الفصل من العام أن تقف في بحر البلطيق. ففصل الشتاء يَقترِب. وفي غضون شهر، سيغلق الجليد معظم الموانئ في فنلندا، وما من ملاذ في هذه الأنحاء للاحتماء به في حالة هبوب عاصفة. سوف يشنُّون هجومًا؛ ربما يَفتحون نيران المدافع علينا لفترة، ثم يحاولون إنزالَ فريقٍ لاقتحام القلعة. سوف نستمتع بهذا إذا كانت لديك بنادق جيدة وذخيرة وافرة.»

رفعَ جاك رأسه.

وقال: «يا إلهي، إننا مجهَّزون جيدًا، لو أنَّ لدينا فقط ما يكفي من الطعام.»

نهضَ واقفًا وقد تلاشى الاكتئابُ تمامًا، وقال للمدير:

«والآن يا صديقي، لا بد لنا أن نضعك في زنزانة. يؤسفني أن أفعل هذا، لكنه السبيل الوحيد المتاح أمامي. أين مخزن المُؤَن الخاص بكم، وما كمية المؤن المتاحة لديكم؟»

زادَت ابتسامةٌ مُوحشةٌ من كآبة وجهِ الرجل العجوز.

وقال: «يجب أن تكتشف هذا بنفسك.»

«أيوجد لدى الجنود الذين بالأعلى ما يكفي من الطعام؟»

«لن أُجيب عن أيٍّ من أسئلتكما.»

«حسنٌ، لا بأسَ أبدًا. أرى أنك شخصيًّا عازمٌ على مُعاناة الجوع بنفسك. لن يَحصُل أيُّ سجينٍ تحت مسئوليتي على أيِّ طعام حتى أطمئنَّ إلى وجود أكثر مما يكفيني أنا وصديقي. هذه شخصيتي عندما أكون سجَّانًا.» ثمَّ صاحَ بالإنجليزية وهو يلتفتُ إلى دروموند: «العجوز الحقير العنيد! لن يُجيب عن أسئلتي.»

«عمَّ كنتَ تسأله؟»

«أريد أن أعرف عن مخزن المؤن.»

«ليس ضروريًّا ألبتَّة أن تسأل عن الطعام؛ من المؤكَّد أنه يوجد الكثير منه.»

«لماذا؟»

«لماذا؟! لأننا بلغنا بداية فصل الشتاء، كما قلتُ من قبل. لا بد أنه ستمرُّ شهورٌ لن تستطيع أيُّ سفينةٍ أن تُنزِل خلالها شيئًا إلى هذه الصخرة. من المؤكَّد أنها مزوَّدةٌ بما

يكفي من المؤن لعدةِ أشهرٍ قادمة على أقل تقدير. والآن، أول ما يجب علينا فعله أن نضع هذا الرجل العجوز في زنزانته الصغيرة، وبعدها سأخبرك أين يَكمن خطرُنا الأساسي.»

لم يُبدِ المديرُ اعتراضًا ولا تذمُّرًا، بل دخل إلى الزنزانة رقم تسعة، وأُغلِقَ عليه الباب.

قال دروموند: «والآن يا جوني يا صديقي، إنَّ مصدر قلقنا هو الجنود. فور أن يكتشفوا أنهم محبوسون سيكسرون هذين البابَين في نصف لحظةٍ فقط. نستطيع بالطبع إذا جلسنا أمام الباب السُّفلي ليلًا ونهارًا، أن نعترض طريقَ أول أربعة أو خمسة ينزلون إلى الأسفل، لكن إذا هجم علينا بقيتُهم، فسيتغلَّبون علينا لا محالة. من المحتمَل أن تكون لديهم كمية وفيرة من البارود، وربما بعض القذائف الحية، والمتفجرات، وغير ذلك؛ وكل هذا سيساعدهم في التخلص حتى من هذين البابَين المصنوعَين من السنديان بسرعة كبيرة. ماذا تقترح أن نفعل؟»

قال جاك: «أقترحُ أن نسدَّ سُلَّمهم اللولبي بالأسمنت. ثمة العديد من الجَوالق المليئة به في مستودع الأسلحة.»

حالت واقعةٌ غريبةٌ دون احتياجِهما إلى هذا العمل. كان الشابَّان جالسَين في غرفة المدير، وفي تلك اللحظة رنَّ جرسُ هاتفٍ على مكتبه. لم يلاحظ جاك وجود هذه الأداة من قبل، لكنه رفعَ السماعة الآن.

قال الصوت الصادر من الهاتف: «مرحبًا يا حضرة المدير، لقد أوصَدَ سجَّانُك الأحمقُ باب الدَّرَج، ولا نستطيع أن نفتحه.»

ردَّ جاك باذلًا غايةَ وسعه في محاكاة صوت المدير: «يا إلهي! أستميحك المعذرة. سوف أتولَّى أمره بنفسي في الحال.»

أنهى جاك المكالمةَ وأخبر رفيقَه بما حدث.

«سوف ينزل أحدُ هذين الضابطَين أو كلاهما الآن. إذا نجحنا في وضع الضابطين بأمانٍ في إحدى الزنازين فلن يكون ثمةَ أحدٌ ليقود الجنود، ومن المرجَّح جدًّا أن تكون مفاتيح غرفة البارود مع أحد الضابطَين. سوف أُطفئ المصابيح الكهربائية الموجودة في الرَّدهة وأُضيء المصباح النفطيَّ. أما أنتَ فاستعد عند أسفل الدَّرَج لإطلاق النار إذا أبدَيا أدنى مقاومة.»

نزل الضابطان على الدَّرَج اللولبي وهما يتذمَّران من تأخُّر فتح الباب. استغلَّ ليرمونتوف مشيهما المتثاقل بأحذيتهما الثقيلة العالية الساق على الدَّرَج الذي يُرجِّع صدى

خطواتهما كي يُغلق المزلاج مرة أخرى، ثم تبِعهما، ووراءَه دروموند، إلى غرفة المدير. وبعدما أشعلَ الإضاءة الكهربائية قال:

«أيها السيدان، أنا الأمير ليرمونتوف، وأنا مسئولٌ مؤقتًا عن هذا السجن. المديرُ رهن الاعتقال، وأعتذر لأنني مُضطرٌّ إلى أن أطلب منكما تسليم سيفَيكما، رغم أنني مقتنعٌ تمامًا أنهما سيُعادان إليكما في غضون أيام قليلة للغاية بعدما أنتهي من تحقيقاتي.»

كان الضابطان مُعتادَين بدرجةٍ كبيرةٍ على التغيير المفاجئ في القيادة بحيث لمْ يَشعُرا بأيِّ غرابةٍ في هذا التحوُّل المفاجئ في مجريات الأحداث. كان ليرمونتوف يتحدَّث بوقارٍ شديدٍ مقنِعٍ للغاية، وكانت العبارات التي استخدمها من عبارات طبقة النبلاء. ولذا سلَّمه الضابطان سيفَيهما دون كلمةِ اعتراضٍ واحدة.

«يجب أن أسألكما إن كنتم قد تسلَّمتم حصتكم الشتوية من مخزون الطعام، أم لا.»

قال الضابط الأعلى رتبةً: «نعم، نعم، حصلنا عليها منذ شهرٍ تقريبًا.»

«هل تُخزَّن في القسم العسكري من الصخرة، أم بالأسفل هنا؟»

«إنَّ طعامنا يُخزَّن في غرفةٍ بالطابق العلوي.»

«يؤسفني، أيها السيدان، أنني مضطرٌّ لوضعكما في إحدى الزنازين إلى أن أنتهي من مهمتي. إذا كتبتَ طلبًا بحصة الطعام التي اعتدتما على تلقِّيها، فسأحرص على أن تصل إليكما. أما الآن، فاكتب أمرًا كذلك إلى مَن تُوكِل إليه قيادةَ الجنود في حال غيابِك بألَّا يَسمح لأيِّ أحدٍ بالنزول إلى الطابَق السفلي، واطلب منه أن يحرص على أن يَحصُل كلُّ جنديٍّ على الحد الأدنى من شراب الفودكا.»

جلسَ الضابط ذو الرتبة الأعلى على كرسيٍّ أمام المنضدة، وكتبَ الطلَبين. بعد ذلك وُضِعَ الرجلان في زنزانتَين متجاورتَين، دون أن تخطر ببالهما حتى فكرةُ المقاومة. لقد اعتقدا أنه توجد بعض التغييرات في مركز القيادة، وشعرا بشيءٍ من الارتياح عندما أكَّد لهما الأميرُ أن اعتقالهما سيكون مؤقتًا. أظهر المزيدُ من التحقيقات أنه لا خوفَ من وقوع مَجاعةٍ على مدى ستة أشهرٍ على الأقل.

في اليوم التالي تسلَّق جاك إلى قمة الجزيرة رغم الخطورة الشديدة لهذا الفِعل على حياته؛ لأنه كان يفكِّر في وضع راية الخطر إذا أمكن، لعلها تجذب انتباه إحدى السفن المارة. بالرغم من ذلك، فقد أدركَ فور وصوله إلى القمة الحادة، أنه لا يمكن نَصبُ ساريةٍ هناك، حتى ولو كان معه مثل هذه السارية. كانت الريحُ رهيبةً في الأعلى، وكان يُحدِّق حوله في بحرٍ فارغ.

بعد مرور أربعة أيامٍ بدءا يتطلعان إلى وصول قارب النجدة الروسي، الذي كانا يعلمان أنه سوف يبدأ رحلته إليهم فورَ وصول برقيةِ المدير إلى سانت بطرسبرج.

في اليوم الخامس نادى جاك على دروموند، وكان الأخيرُ واقفًا عند الباب.

«السفينة الروسية قادمة، إنها تتَّجه نحونا مباشرةً. إنها مُسرِعةٌ للغاية وتندفع بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ للمحرك، وتَنهبُ البحرَ كأنها مُدمِّرةُ زوارق الطربيد. أعتقد أنها طرَّادة. ليست ذلك المركب القديم البطيء الذي أتيتُ على متنه، على أيِّ حال.»

أجابه آلان: «فلتنزل إذن، وسوف ...»

قاطعَته صرخةٌ قادمةٌ من الأعلى. إنَّ جاك، الذي استطاع من النظرةِ الأولى أن يفحص السفينةَ بدقةٍ ويَصيح بأوصافها لدروموند، قد أدارَ عينيه الآن إلى جهة الشرق ووقفَ مشدوهًا يُحدِّق في منظر الشروق.

سأله آلان: «ما الأمر؟»

ردَّد جاك: «الأمر؟ لا بد أنهم أرسلوا الأسطولَ الروسي كلَّه إلى هنا في كتائبَ لإلقاء القبض على شخصينا التافهَين. ثمَّة قاربٌ ثانٍ قادمٌ من جهةِ الشرق، وهو أقرب من اليخت بمسافة ميلَين. لو لم تستحوذ السفينة الأُخرى على كامل تركيزي منذ اللحظة التي تسلَّقتُ فيها إلى هنا لكنتُ رأيتُه قبل ذلك.»

«هل هو يختٌ أيضًا؟»

«لا. تبدو كأنها سفينة شحن. قذرةٌ و...»

«ربما تكون سفينةً تجاريةً.»

«لا. إنها تحمل مدافع ...»

«من المحتمَل أن تكون سفينة تجارية مجهَّزة لأغراض الهجوم. هذا هو نوعُ السفن الذي يُرجَّح أن ترسله روسيا إلى سجنٍ سريٍّ كهذا. ما العَلَمُ الذي ...»

«لا يوجد عَلَمٌ على الإطلاق. لا يوجد عَلَمٌ على أيٍّ منهما. كلتا السفينتَين تتَّجه إلى الصخرة، بأقصى سرعة، ومن جهتَين متقابلتَين. أعتقد أنه ليس بإمكانِ أيٍّ منهما أن ترى الأخرى. أنا ...»

«من جهتَين متقابلتَين؟ لا تبدو هذه حملةً مشتركة. إحدى هاتَين السفينتَين ليست روسية. لكن أيتهما؟»

نزلَ جاك إلى الأسفل ووقفَ إلى جانب آلان.

وقال: «لا بد أن نستعدَّ للدفاع في جميع الأحوال. بعد بضع دقائق سنتمكَّن من رؤية كلٍّ منهما من فوق مُنبسَط الدَّرَج السفلي.»

قال جاك متأملًا: «تهدف إحدى هاتَين السفينتَين إلى محونا من الوجود إن استطاعت. أما الأخرى، فلا يمكن لها أن تَعرف شيئًا عن وجودنا. بالرغم من ذلك، فما الذي تفعله هنا باتجاهها نحو الصخرة إذا كانت لا تعرف؟»

عندئذٍ هرولَ جاك ثم نزلَ وقفزَ إلى الأسفل. كان دروموند هادئًا ورزينًا للغاية. كانت البنادق الآلية مرصوصةً في صفٍّ على الجدار المقابل، وكان من السهل الوصول إليها، لكنها كانت بعيدةً بقدرِ ما يمكن عن تأثير القذائف المُحتمَلة. رقا الشابان في ذلك الوقت على المقعد الحجري الموجود بجوار الباب، والذي سمحَ لهما بفحص الحيد الصخري في البحر الشرقي. بعد قليلٍ ظهرت السفينة عند طرف الجزيرة، ناصعةَ البياض، تطفو مثل بجعةٍ على الماء، وتتقدَّمُ إلى الأمام بسرعةٍ كبيرة.

قال جاك: «يا للهول! إنها سفينةٌ جيدة. تبدو وكأنها يختُ القيصر، لكنني لا أعرفُ سفينةً روسيةً تستطيع أن تُبحر بمثل هذه السرعة.»

قال دروموند: «إنها تحمل العلامات المُميِّزة لشركة «ثورنيكروفت». يا إلهي يا جاك، ما أسعد حظَّنا لو اتضحَ أنها سفينة إنجليزية. غير أنه لا يُوجد عَلَمٌ يرفرف فوقها.»

قال جاك: «إنها تتَّجه ناحيتنا، ومن الواضح أنها تعلم الجانبَ الذي يوجد المدفع فوقه. إذا كانت روسيةً، فقد افترضوا أننا استولينا على المكان كلِّه وأننا نُسيطرُ على الأسلحة. انظر، إنها تستدير.»

أصبحَت السفينة بمحاذاة الصخرة، وربما أبعد عنها بثلاثة أميال. وفي تلك اللحظة اندفعَت بخفةٍ وقوةٍ في خطٍّ منحنٍ طويلٍ جميلِ المنظر ناحيةَ الغرب وتوقفَت على بُعد حوالي نصف ميلٍ شرقيَّ الصخرة.

قال دروموند: «يا للعجب! ليت معي نظارة جيدة! إنهم يُنزِلون قاربًا.»

ظهرت على جاك حماسةُ سكان النِّجاد وليس تبلُّد الحسِّ المشهور عن الروس، وذلك عندما شاهد قدومَ قاربٍ صغيرٍ، يركب الأمواج بصورةٍ جميلةٍ، وتسوقه بالمجاديف في براعةٍ مجموعةٌ من البحَّارةِ الذين يفهمون ذلك الفن. أما دروموند فوقفَ هادئًا وكأنه تمثال.

«إنَّ حركة هذه المجاديف حركة إنجليزية يا صديقي جاك.»

كان كلما اقتربَ القاربُ أكثرَ ازداد شعور جاك بالإثارة.

«أرجوك يا آلان أن تركِّز بعينَيك على ذلك الرجل الواقف عند الدَّفة. أظن أن بصري يخونني. دقِّق النظر. ألم يَسبق لك أن رأيته قبل ذلك؟»

«أظن أنني رأيتُه قبل ذلك، لكنني لستُ واثقًا تمامًا.»

«يا إلهي! إنه يبدو لي شبيهًا بحَمي المَرِح المهيب، القبطان كِمْت، ابن مدينة بار هاربر. محض سخافةٍ بالتأكيد؛ فهذا مُستحيلٌ.»

«إنه يشبه القبطان حقًّا، بيد أنني لم أرَه سوى مرة أو مرتَين.»

صاحَ جاك عبر المياه: «مَرحى! قبطان كِمْت، كيف حالُك؟»

رفعَ القبطانُ يده اليُمنى ولوَّح بها، لكنه لمْ يُحاول أن يرفع صوته حتى يصل إلى جاك. نزلَ جاك بعجلةٍ شديدةٍ على الدَّرَج، وتبِعه دروموند بوتيرةٍ أكثرَ تمهُّلًا. استدار القاربُ باتجاه الرصيف، وصاحَ القبطان كِمْت بمودةٍ قائلًا:

«مرحبًا أيها الأمير، كيف حالُك؟ وهذا هو المُلازم دروموند، أليس كذلك؟ آخِر مرةٍ سعدتُ بلقائك فيها، يا دروموند، كانت ليلةَ الحفل الراقص.»

قال دروموند: «نعم، لقد سعدتُ للغاية برؤيتك آنذاك، لكنني أسعد مائةَ مرةٍ برؤيتك اليوم.»

«لقد كنتُ فقط أستمتعُ بالإبحار في هذه المياه على متن يختي، وعنَّ لي أن أُلقي نظرةً على هذه الصخرة التي حاولتَ أن تمحوَها. لا أرى أيَّ ضررٍ ملحوظ، لكن ما الذي يتوقَّعه المرءُ من براعة الرَّمي البريطانية؟!»

«لقد قصفتُ الصخرةَ من الجهة الأخرى يا حضرة القبطان. أعتقد أن تعليقكَ قاسٍ، لا سيَّما أنني كنتُ لتوِّي أمتدح براعةَ رجالك في التجديف.»

سألَ القبطانُ كِمْت: «والآن أيها الفتيان، هل مَلَلتما هذا المنتجعَ الصيفي؟ هل حزمتما أمتعتكما، واستعددتما للرحيل؟ إنَّ معظم الأماكن الساحلية مهجورة في هذا الوقت من العام.»

صاحَ زوجُ ابنتهِ المستقبلي: «سوف نكون جاهزَين بعد لحظةٍ يا حضرة القبطان. يجب أن أُسرع بالصعود وأُحضِر المدير. لقد وضعنا عددًا من الرجال في السجن هنا، وسوف يتضورون جوعًا إن لمْ نطلق سراحهم. إنَّ المدير رجلٌ لطيفٌ جدًّا، رغم أنه تصرَّف معي بنذالةٍ منذ بضعة أيام»، ثم اختفى جاك بين سلالم الدَّرج مرةً أخرى.

سأل القبطان: «هل حرَّرتما السجناء بالقوة هنا؟»

«حسنٌ، شيءٌ من هذا القبيل. لقد حفرَ الأميرُ حفرةً في الصخر، وخرجنا. يمكن القول إننا ارتهنَّا الحامية، لكنني كنتُ في قلقٍ شديدٍ على مدى الأيام القليلة الماضية؛ لأنَّ اثنين من الحامية قد هربا على متن القارب الشراعي الذي كان لديهم هنا، وتوجَّها إلى البر الرئيسي

حاملَين الخبر. لقد كنا نراقب يختك بقلقٍ، خشيةَ أن يكون روسيًّا. لقد حسبَ جاك أنه يخت القيصر. كيف حصلتَ على مثل هذا المركب يا حضرة القبطان؟ يا له من مركبٍ بهي المنظر!»

«حسنًا، لقد اشتريتُه قبل بضعة أيامٍ من مغادرتي نيويورك. فالمرء يحب السفر المريح كما تعلم. إنه مزوَّدٌ بالأفضل من كل شيء.»

صاحَ جاك من عند المدخل:

«دروموند، اصعد إلى هنا واقذف بهذه البنادق المُلقَّمة إلى البحر. لا يمكننا أن نتحمَّل المزيد من المخاطرات. سوف أُغلق حجرة الذخيرة وآخذ المفتاح معي تَذكارًا.»

«أستأذنكَ في الانصراف يا حضرة القبطان»، هكذا قال دروموند، الذي تبِعَ صديقَه، وبعد قليلٍ أخذَت حُزمٌ من البنادق تتساقط مقرقعةً على جانب الجُرُف، ثم تغطس في البحر. بعد ذلك نزلَ الاثنان على الدَّرَج، جاك في المقدمة، ووراءه دروموند والمدير بينهما.

قال جاك: «والآن أيها المُدير، سأُودِّعك للمرةٍ الثانية. ها هي ذي المفاتيح. إنْ قبلتَ أن تأخذها مني فلا بد أن تعاهدني على ألَّا تطلق القذائف على السفينة. إذا لم تُعاهِدني على ذلك فسألقي المفاتيح في البحر، ولتتحمَّل أنت العواقب.»

«أعاهدك على ألَّا تُطلقَ عليكم القذائف.»

«حسنٌ أيها المدير. تفضَّل المفاتيح، ومع السلامة.»

في غمرة الابتهاج بظهور اليخت نسيَ جاك ودروموند لوهلةٍ وجودَ الباخرة التي رآها الأولُ تتقدَّمُ باتجاه الصخرة.

الآن تذكَّرها لامونت فجأة.

فقال: «بالمناسبة أيها المدير، قاربُ النجدة الذي أرسلتَ في طلبه، بدافعٍ من فطنتك الشديدة، في طريقه إلى هنا. من المتوقَّع أن يصل إلى الصخرة في أيِّ دقيقةٍ الآن. في الحقيقة، أعتقد أنه ليس أمامنا الكثير من الوقت لنضيِّعه إذا كنا نُريد أن نتجنَّب وقوعَ أيِّ مناوشة. سيكون من المؤسف أن نُعتقَل الآن في آخِر لحظة. وداعًا مرةً أخرى.»

لكن المدير وقفَ بينه وبين القارب.

وقال بارتباكٍ واضح: «أنا ... أنا رجلٌ عجوز. لقد أُرسِلتُ لتولي مسئولية هذا السجن عقوبةً لي لرفضي الانضمامَ إلى مؤامرةٍ لتنفيذ مذبحةٍ بحق اليهود. إنَّ الإدارة هنا لا تزيد ولا تنقص عن كونها سجنًا مؤبَّدًا. إنَّ زوجتي وأولادي في عِزبةٍ صغيرةٍ أملكها في السويد. لقد مرَّت إحدى عشرة سنةً على آخِر مرةٍ رأيتُهم فيها. أنا ...»

«لو كانت هذه القصةُ حِيلةً لتأخيرنا ...»

قال المديرُ مُعترضًا، ولمْ يكن ثمة شكٌّ في صِدقهِ المفعَم باللهفة والمثير للشفقة: «لا! لا! لكنني ... لكنني سأُقتَل بالرصاص، أو سأُحتجَز في إحدى الزنازين ثم تُفتَح عليَّ المياه، جزاءً لي على ترككما تهربان. ألَا تأخذانَني معكما؟ سوف أعمل على السفينة في مُقابل السماح لي بالسفر. خُذاني إلى مدينة ستوكهولم. سوف أكون حُرًّا هناك؛ حُرًّا في الالتحاق بزوجتي والعيش إلى الأبد بعيدًا عن متناول كِبار الدوقات. خُذاني ...»

أمره جاك وقد اتخذ قرارًا مفاجِئًا: «اقفز إلى القارب! يعلم الربُّ أني ما كنتُ لأحكم على أسوأ أعدائي بالعيش طوال العمر في هذه الصخرة. وقد كنتَ كريمًا جدًّا معنا، وفقًا لفلسفتك في الحياة. اقفز إلى القارب، لا وقتَ لدينا لنضيعه.»

ولم يُضِع المدير وقتًا في الامتثال للأمر. ثم تبِعه الآخرون، وانطلق القارب يشق طريقه في البحر. بالرغم من ذلك، فلم تكد المجاديفُ أن تلمس الماءَ حتى ظهرَ من ناحية النتوء الخليجي زورقٌ حربيٌّ ضخمٌ، منصوبٌ فوق مقدمته مدفعٌ سريع الطلقات. كان يحمل على متنه حوالي عشرين رجلًا يرتدُون ثيابَ الشرطة الروسية.

قال آلان في انفعال: «ابتعدوا عن «السفينة» ومدفعها مُوجَّهٌ إلينا.»

صاحَ جاك في المجدِّفين الذين كانوا يجِدُّون في التجديف: «ركِّزوا على عملكم!»

قال كِمْت متأوِّهًا: «لا فائدة! سوف يقترب إلى مسافةِ مائة ياردةٍ منا. لا مجال ليُخطئ المرمَى من مثل هذه المسافة القريبة وفي مثل هذا البحر الهادئ. كم كنتُ مغفَّلًا عندما ...»

كان الزورق يندفع نحوهم بالفعل رغم بذل المجدِّفين أقصى جهدٍ لديهم، ولا بد أنه كان سيُوقفهم من دون شكٍّ قبل أن يتمكَّنوا من الوصول إلى اليخت.

استلَّ آلان مسدَّسه.

وقال بهدوء: «ليس أمامنا أيُّ فرصةٍ في التغلُّب عليه. ويبدو من الظلم أن «نُهزَم ونحن على مشارف الخَلاص.» لكن لِنبذُل وُسعنا.»

أمره كِمْت: «أعِد مُسدس الهواء هذا إلى جرابه. سوف يُغرقنا الزورقُ قبل أن يُصبح المسدسُ في نطاق فاعليته بكثير. سوف أرفع منديلي على أنه رايةٌ بيضاء.»

«نستسلم؟»

«ماذا نستطيع أن نفعل غير هذا؟»

«ويجُرنا هذا الرجلُ إلى الصخرة مرةً أخرى، كلنا؟ أما أنا فلا!»

كان الزورق في تلك اللحظة قد اقتربَ منهم، وكان كل رجلٍ على متنه يُحدِّق في القارب الصغير البائس ذي المجاديف.

«انتظروا!»

كان المدير هو مَنْ تكلَّم. نهضَ من مقعده في مؤخِّرة القارب، وحيَّا الضابط الذي كان يُسدِّد المدفعَ السريعَ الطلقات.

وناداه قائلًا: «حضرة المُلازم تشيرسكي!»

عند رؤية الرجل العجوز بهيئته الرشيقة وزيه الرسمي ينهض من بين بقية الموجودين على متن القارب الصغير، وقعَ انفعالٌ ودهشةٌ ملحوظان على متن الزورق. أدَّى الضابطُ التحيةَ العسكرية وأمرَ بإيقاف المحرِّك حتى يتمكَّن من سماع المدير بصورةٍ أوضح.

أعاد المدير نداءه: «حضرة المُلازم، أنا مدعوٌّ للحضور على متن يختِ سموِّ الدوق الأكبر فلاديمير. انطلِق إلى المرفأ وانتظرني ريثما أعودُ إلى الصخرة. لقد وقعَ تمرُّدٌ بين أفراد الحامية، لكنَّني قمعتُه.»

أدَّى الضابطُ التحيةَ مرةً أخرى، وأصدرَ أمرًا، فتوجَّهَت مقدمةُ الزورق باتجاه الصخرة.

قال لامونت عندما عادَ الرجلُ العجوز إلى مقعده مرةً أخرى: «أيها المدير، أنت الآن تستحقُّ رحلتك إلى ستوكهولم. لستَ مُضطرًّا إلى العمل في مقابلها.»

الفصل الحادي والعشرون

الهروب من أجل الزواج

لم تكن الفتاتان على متن اليخت تتوقَّعان أن يعود القبطان كِمْت بالشابَّين. غير أنهما حين شاهدا عبر منظارهما القوي، أنَّ دروموند والأمير كانا على متن القارب الصغير، انطلقتا معًا إلى البهو الرئيسي، وجلستا هناك ويدُ إحداهما تمسك بيد الأخرى. حتى كيت المُفعمة بالحماسة لم يكن لديها ما تقوله هذه المرة. لقد سمعَت صوتَ أبيها على متن اليخت وهو يُعطي أمرًا لوكيل القبطان.

«توجَّه إلى ستوكهولم يا جونسون. خُذ رجال سفينتي الحربية، واحرص على ألَّا يمسَّ الذخيرةَ أحدٌ سواكم، وألقوا بالقذائف في البحر. وارموا المدفعَ وراءها، وبعد ذلك ألقوا البنادق وذخيرتها بالطريقة نفسها. عندما نصل إلى ستوكهولم في صباح الغد يجب ألا يكون على متن هذه السفينة سلاحٌ واحد، أما بخصوص الشائعة السخيفة التي انتشرت بين رجالك عن أننا كنا سنشنُّ هجومًا على شيءٍ أو آخر، فستحرص على التأكيد على أنها كانت عاريةً تمامًا عن الصحة. أَقِرَّ ذلك في أذهانهم يا جونسون.»

همسَت كاثرين وهي تأخذ نفَسًا عميقًا: «يا إلهي! دورثي، إذا كنتِ خائفةً مثلي فشُدِّي من أزري.»

«أعتقد أنني سأفعل»، بهذا أجابتها دورثي، وضغطت إحداهما على يد الأخرى.

سُمِعَ صوتُ الأميرِ الموحي بالثقة يقول: «صدِّقني يا حضرة القبطان، إنَّ هذه السفينة تحفةٌ جمالية. لقد أسديتَ إلى نفسك معروفًا. لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ أنك مُترفٌ هكذا. يا إلهي، لقد كنتُ على متن يخت القيصر، وصدقني إنه لا يُقارن بهذا على الإطلاق ...» ثم صاحَ بصوتٍ جعل سقف اليخت يطن: «يا إله السماء! كاثرين!»

كانت واقفةً حينذاك وتوجَّهَت إليه وكلتا يديها ممدودة، وعلى شفتَيها الجميلتَين ابتسامةٌ مُرحِّبة، لكنه انقضَّ عليها، وألقى ذراعيه حولها وكأنه سائق عربة أجرةٍ يُدفِئ يديه، وراحَ يُقبِّل جبينها وخَدَّيها وشفتَيها، ويتمايل بها إلى الأمام والخلف وكأنه يُوشك أن يُسقطها من أعلى الدَّرَج.

صاحت كاثرين: «كفاكَ، توقَّفْ. ألا تَخجل من نفسك؟ وأمامَ أبي أيضًا! أيها الدُّب الروسي الضخم!» ثم وضعت راحةَ يدها على وجهه وهي لاهثة الأنفاس، ودفعَت رأسه بعيدًا عنها.

قال أبوها: «لا تقلقي بشأني يا كيت. هذا لا يُعدُّ شيئًا مقارنةً بما كنا نَفعلُه عندما كنتُ شابًّا. تعاليا أيها الفتَيَان، إلى غرفة التدخين، سوف أمزج لكما شيئًا جيدًا؛ خمرٌ أصيل من ولاية كنتاكي مُعتَّقٌ منذ سبعٍ وعشرين سنة، ولديَّ كلُّ ما يلزم أيضًا لتحضير شراب المانهاتَن.»

«أنا سعيدةٌ لرؤيتك يا جاك»، هكذا قالت كاثرين لاهثةً، وقد اعتراها ارتباكٌ شديد، لكنها حاولَت أن تُصحِّحه بلمسةٍ قلِقَةٍ هنا وهناك. وأردفَت: «والآن يا جاك، سوف أصطحبُكَ إلى غرفة التدخين، لكن عليك أن تُحِسن التصرُّف وأنت تسير على سطح اليخت. لا تجعل مني أضحوكةً أمام طاقم البحَّارة.»

قال القبطان: «أسِرع يا دروموند، وأحضِر الآنسة دورثي معك.»

لكنَّ دروموند وقفَ أمام دورثي إمهيرست، ومَدَّ يده.

«أرجو ألَّا تكوني نسيتِني يا آنسة إمهيرست!»

ردَّت دورثي بابتسامةٍ خجول للغاية وهي تمسك يده: «يا إلهي! لا، لمْ أنسك!»

بدأ دروموند بالكلام: «من المُدهِش أنكِ هنا. كم أنا محظوظ! يأخذ القبطانُ كِمْت يختَه لينقذ صهره المستقبلي، وبالمصادفة ينقذني كذلك، ثم أجدُكِ هنا! أظنُّكِ أتيتِ لأن صديقتكِ الآنسةَ كِمْت جاءت على متن اليخت، أليس كذلك؟»

«بلى، نحن مُتلازمتان تقريبًا.»

«لقد كتبتُ لكِ رسالةً يا آنسة إمهيرست، في آخِر ليلةٍ قضيتُها في سانت بطرسبرج في فصل الصيف.»

«نعم، لقد وصلَتني.»

«لا، ليست هذه. بل في الليلة التي قُبِضَ عليَّ فيها، ولمْ تُتَح لي الفرصةُ مطلقًا لإرسالها. لقد كانت رسالةً مهمةً؛ بالنسبة إليَّ.»

ردَّت دورثي، وهي تبتسم الآن بأريحيةٍ كبيرة: «لقد رأيتُ أنها مُهمة؛ بالنسبة إليَّ أيضًا. لقد حصل عليها أعضاءُ جماعة العَدَمية؛ إذ فتَّشوا في غرفتك بعدما قُبِضَ عليك. لقد أُرسلَت إلى نيويورك، وسُلِّمَت إليَّ.»

«أهذا ممكن؟ كيف عرفوا أنها مُرسَلةٌ إليكِ؟»

«كنتُ أُجري بعضَ التحريات من خلال جماعة العَدَمية.»

«لقد كتبتُ لكِ عرضًا بالزواج يا دورثي.»

«لقد بدا كذلك بالتأكيد، لكنَّك تَعلم أنه لم يكن مُوقَّعًا، وليس من الممكن إلزامك بالوفاء به.»

مدَّ دروموند يديه عبر المنضدة، وأمسكَ كلتا يديها.

وصاحَ: «دورثي، دورثي، هل تعنين أنكِ كنتِ ستُرسلين برقيةً تقولين فيها «نعم»؟»

«لا.»

«ما كنتِ ستفعلين ذلك؟»

«بالطبع لا. كان عليَّ أن أرسل برقيةً بكلمة «مُتردِّدة». فأنا أرى أنَّ المرءَ يستفيد أكثرَ عندما يرسل برقيةً بكلمةٍ طويلة. وإذن كان ينبغي لي أن أكتب ...» وتوقَّفَت عن الكلام، فصاحَ بلهفة:

«ماذا؟»

سألته: «ماذا تتوقَّع؟»

«حسنٌ، أتعلمين يا دورثي، لقد بدأتُ أعتقد أنَّ حظي السعيد بصورةٍ مُدهِشةٍ سوف يستمر، وأنكِ كنتِ ستكتبين «نعم».»

«أنا لا أعرفُ شيئًا عن الحظ، لكن هذه كانت ستكون هي الإجابة.»

نهضَ دروموند من مكانه، وانحنى عليها، ورفعت هي وجهها إلى وجهه دون أدنى تكلُّف.

صاحَ دروموند: «دورثي.»

ردَّت بصوتٍ مرتجف: «آلان. لمْ أتوقَّع مطلقًا أن أراكَ مرةً أخرى. لا يمكنك أن تتصوَّر العذاب الطويل الذي سبَّبَته هذه الرحلة، وأنا لا أعرفُ ما جرى.»

«إنها لنعمةٌ يا دورثي أنكِ لمْ تَعلمي شيئًا عن قلعة تروجزموندوف.»

«آهِ، لكنني عرفت؛ وذلك ما أرعبني. معنا رجلٌ على متن اليخت أُلقي ليموت من تلك الصخرة المرعبة. لكن بحر البلطيق أنقذه؛ إنه يُسميه أمه.»

حملها دروموند بين ذراعيه، وأخذَها إلى الأريكة الفاخرة الممتدة على جانب الغرفة الكبيرة. وجلسا هناك معًا، بعيدًا عن الدَّرَج.

«هل وصلَتكِ جميعُ رسائلي؟»

«أظن ذلك.»

«وتعلَمين أني رجلٌ فقير؟»

«أعلم أنك قلتَ ذلك.»

«ألا تَعُدِّين وضعيَ الماليَّ فقرًا؟ كنتُ أظن أنَّ جميع مَن هنا يَحتقرون أيَّ دخل يقل عن عشرات الآلاف.»

«قلتُ لكَ يا آلان إنني حديثة عهدٍ بالمال، ولذا يبدو لي دخلُك كافيًا جدًّا.»

«إذن فأنتِ لا تخافين من وضع ثقتكِ في مستقبلي؟»

«إطلاقًا؛ أنا مؤمنةٌ بك.»

«يا إلهي! أيتها الفتاة الحبيبة. ليتَكِ تعلمين مدى جمال كلماتك هذه في أذني! أستطيع إذن أن أخبركِ. في آخِر زيارةٍ لي إلى لندن مررتُ سريعًا على مدينة دارتموث في مقاطعة ديفنشر. سوف أُعيَّنَ هناك. لقد أنهيتُ رحلاتي في البلاد الأجنبية كما تعلمين، وستكون دارتموث هي دياري، بصورة مؤقتة على الأقل. ثمَّة مرفأٌ جميلٌ هناك، وتلالٌ خضراءُ ونهرٌ جميلٌ يجري بينها، وقد عثرتُ على منزلٍ عتيقٍ جميلٍ للغاية؛ إنه ليس فخمًا على الإطلاق، لكنه ملائمٌ ومريحٌ جدًّا، وهو مبنيٌّ على المرتفعات التي تطل على المرفأ، وتُحيط به حديقةٌ عتيقةٌ مليئةٌ بالورود والشجيرات وجميع أنواع الأزهار؛ والكروم تمدُّ أغصانها على جدران المنزل العتيق. خادمان فقط سيكفيان جدًّا للاعتناء به أفضلَ عناية. دورثي، ما رأيُك؟»

ضحكَت دورثي بهدوءٍ ومن صميم قلبها.

«يبدو كلامُك هذا كمقطوعةٍ من قصةٍ رومانسيةٍ إنجليزيةٍ قديمة. إنني أتوق إلى رؤية هذا المنزل.»

سألها وهو يسترِقُ النظرات حوله: «أنتِ لا تكترثين لهذه الأشياء، أليس كذلك؟»

«أيَّ أشياء تقصد؟»

«هذا اليخت، وهذه الكُسوات الحريرية، وتلك الصور الفائقة الجمال، وهذا النقش، والأشياء المُذهَّبة، والسجاد الباهظ الثمن.»

«تقصد هل أشعرُ أنه من الضروري أن أكون محاطةً بوسائل الترف هذه؟ كلا بكل تأكيد. أنا أُفضِّل منزلك الذي تُغطيه أغصانُ نبات اللبلاب في دارتموث على ذلك كثيرًا.»

للحظةٍ لم ينطق أيٌّ منهما بكلمة؛ فالشِّفاه لا تستطيع الكلام عندما تلتصق إحداها بالأخرى!

«والآن يا دورثي، أريدكِ أن تَهرُبي معي لنتزوج. سوف نصل إلى ستوكهولم قبل مدةٍ طويلةٍ من بزوغ فجر غدٍ بهذه السرعة التي يسير بها المركب. سوف أنزل إلى الشاطئ بأسرعِ وقتٍ مُمكن، وسوف أقوم في القنصلية بإجراء جميع الاستعلامات عن إتمام الزواج. أنا لا أعرفُ القواعد، لكن إذا أمكن أن نتزوج في هدوء، بحلول فترة الأصيل مثلًا، فأرجوكِ أن توافقي على هذا، ثم اكتبي بعد ذلك رسالةً إلى القبطان كِمْت، واشكريه فيها على الرحلة على متن اليخت، وسوف أرسلُ إليه رسالةً أنا أيضًا، أشكره فيها على كلِّ ما فعله من أجلي، وبعد ذلك سنتجه إلى لندن معًا. في جيبي كتاب اعتمادٍ مالي، من حُسن الحظ أنَّ الروس لم يأخذوه مني. سوف أحصل به على كلِّ ما نحتاجه من المال في ستوكهولم، ثم سنعبر السويد، ونبحر إلى الدنمارك، ونمر بألمانيا ومنها إلى باريس، إذا أحببتِ، أو إلى لندن. لن نسافر طوال الوقت، بل سنأخذ رحلاتٍ نهارية قصيرة ممتعة، ونتوقَّف في بعض المدن العتيقة الجذابة بعد كل زوالٍ وفي كل مساء.»

«تقصد أن نترك القبطانَ كِمْت، وكاثرين، والأمير يذهبون إلى أمريكا وحدَهم؟»

«بالطبع. ولمَ لا؟ إنهم ليسوا بحاجةٍ إلينا، وأنا واثقٌ تمامًا أننا ... حَسنٌ يا دورثي، سيسعدنا وجودُهم بالتأكيد ... لكن مع ذلك، لقد ذهبتُ في جولاتٍ كثيرةٍ عبر أوروبا، وثمَّة بعض المدن العتيقة المبهجة التي أود أن أريكِ إياها، وأنا أكره السفر في مجموعة.»

ضحكَت دورثي من صميم قلبها حتى إنَّ رأسها مالَ على كتفه.

وقالت أخيرًا: «حسنًا، موافقة.»

وهكذا فَعَلَا.


هنداوي